فى دروب الوطنية

د. عصام الدين جلال

كتاب الهلال



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٤ – شعبان – ديسمبر ١٩٩٧ No. 564-DE-1997

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليرة – لبنان ٥٠٠٠ ليرة – الأردن ٢٠٠٠ فلس – الكويت ١٥٠٠ فلس – السعودية ١٥ ريالا – البحرين ١,٥ دينار – قطر ١٥ ريالا – دبي / أبوظبي ١٥ درهما – سلطنة عمان ١,٥ ريال

عابر سبيل

فى دروب الوطنية

١٩٢١ - ١٩٥٠

د. عصام الدين جلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

مقدمة

بعد خمسة وسبعين عاما من المعايشة والمشاركة لمشاغل أجيال على الصعيدين الوطنى والدولى يقلقنى أن الأجيال الصاعدة تعانى من انقطاع تواصلها مع جذور وأصول تراثها الوطنى وتفاعلاته الدولية .

ودواعى قلقى أن من لا يعى ما الذى أتى به أتى بعالمه إلا واقعه الحالى يتعذر عليه أن يتبين إلى أين هو ذاهب .

ولاشك فى أن التحولات الجذرية التى توالت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى على مصر وعالمها المعاصر قد غطاها مؤرخون مقتدرون وتوفر البيانات المتكاملة لكل مثقف تتاح له تسهيلات استيعابها .

ولكن التراث ليس مجرد أحداث ووقائع تسجلها الدراسات المحققة ولكنه نبض وانفعال بمشاغل وآمال الشعوب أيضا لابد من أن يحمل أمانتها شهودها وشركاؤها .

فهذا الاسهام بالقطع ليس تأريخا يرتكز على شمول الاحاطة وحيدة النقل والمقارنة وتجدد التحليل والاستقراء .

وهو أيضا ليس سيرة ذاتية تقحم على القارئ أحداثا

وانطباعات شخصية لا صلة لها بجذور وأصول تراثنا الوطنى وتفاعلاته الدولية .

ولكنها ذكريات وطنية بحتة لمواطن عايش وانفعل وشارك فى أحداث حلقات مهمة من تواصلنا التاريخى أدونها كما عايشتها وشاركت فيها برؤية وانفعال زمنها دون تنميق أو تزويق آملا أن أحقق الهدف الأصيل لها وهو أن تعايش الأجيال التالية نبض وانفعال جيل بمشاغل وآمال عصره حتى حينما تبين الأحداث التالية قصور استيعابه لواقعه أو خطل تفاعله معها .

ومن هذا المنطلق فاغفال حدث أو شريك ليس انكارا أو اسقاطا ولكنه مجرد اثبات أنى لم أعايش أو أشارك فيه أو معه وتأكيد رؤية أو توجيه ليس إنكارا للعديد من الرؤى والتوجهات التى تلاطمت على شواطئ المرحلة وكل المراحل ولكن هو تسجيل لموقعى وعقيدتى فى لحظة وظروف الأحداث وليس بالضرورة بعدها .

وأملى ، وقد جاهدت للالتزام بأمانة الشاهد والشريك فى أحداث مراحل هامة من تراثنا ، أن اثرى إحساس الأجيال التالية بنبض وانفعال حلقة من حلقات تدخلهم مع أصول وجذور التراث بما يعمق ما حصلوه من بيانات ودراسات مؤرخيها المدققين .

وما يسهم فى إيضاح ما الذى أتى بهم إلى موقعهم الحالى إلى أين هم قادرون على الذهاب .

مقدمة الجزء الأول

لا شك أن الأحداث قد غمرتنى بفضل كريم أظنه بأثرى نعم الله على أى إنسان .

فعلى مدى نصف قرن أو يزيد أتاح انشغالى بأمور عصرى فى أرجاء الوطن وفى أركان العالم الخارجى جميعا أن أتدارس وأدرس لأكبر وأبرز عقليات عصرى فى حالات متعددة ليس من المألوف الجمع بينها وفى أعرق مراكز الفكر العالمى المعاصر .

تعمق تفاعلى معها فى أفرع الطب والعلوم والتكنولوچيا والاقتصاد والاستراتيجية الراقية والسياسة على مستوى القمم العالمية المؤثرة .

ولاشك عندى باعتزازى وامتنانى لهذا الفضل العظيم الذى أثق أنه أثمن ما حصلت فى رحلتى الطويلة .

ولكن اعتزازى الأكبر وتأثرى الأعمق وانتمائى الألصق كان ولا يزال حصيلة ما تعلمته وتطبعت به فى الشارع الوطنى فى شرخ طفولتى وشبابى ولم يكن كل الثراء العالمى الذى نهلت منه إلى عوامل تعميق وترسيخ لهذا التراث الذاتى الأصيل الذى اشهرته وعرفتُ به فى كل المجالات الوطنية العالمية .

وقصة تتلمذى فى الشارع الوطنى أهديها للأجيال الشابة التى حرمتها الأحداث من الوعى بأصالة وثراء هذا التراث المجيد وأهديها لأبنائى الأعزاء عاصم الدين ورامى ورشا .

الباب الأول

اليقظة

كان ذلك عصر يوم ٢٤ أغسطس ١٩٢٧ وكان عمرى لا يتعدى ست سنوات ، تلميذا فى مدرسة الرهبان ، الفرنسية بطنطا الواقعة على ضفاف ترعة القاصد ، التى كانت تخترق طنطا فى هذا الزمن ، وكنت قد انتقلت إليها من مدرسة الراهبات على الضفة الأخرى للترعة ، التى أمضيت فيها سنتى الحضانة ، وهى فى الأصل مدرسة بنات وأتذكر أن الانتقال إلى مدرسة البنين فى السنة الأولى ظل موضع أحلامى وتطلعى طوال مرحلة الحضانة ، واعتبرت الانتقال خطوة باهرة على طريق النضوج وتحقيق الذات . وكانت مدرسة الراهبات هذه هى التى تعلمت فيها والدتى وأخواتها ، وبها بنات خالاتى المقيمات فى طنطا ، وكان بين المدرستين كوبرى خشبى ضيق للمشاة فكان عبور هذا الكوبرى هو رمز التقدم . ولم أكن أستوعب سبب عدم ارتياح جدى لوالدى لالتحاقى بهذه المدارس الفرنجية وهو ما شعرت به كلما ذهبنا لتمضية إجازة الصيف فى قريته «أبو جلال» مركز شربين ، حيث كانت هذه المدارس هى محل إقبال العائلات التى نختلط بها المدعية التحضر ، رغم أن هذه المدارس كانت بها نسبة من ذوى الدخل المنخفض ، مجانا تختارهم المدارس حسب معايير تعكس توجهاتها .

وكنت من جانبى أشعر بعدم الارتياح لأسلوبه فى تناول الطعام فى المضيفة ، من صحون ضخمة يتوسطها جبل من الأرز وقطع ضخمة من اللحوم غير المقطعة يلتف به جمع الحضور ، ينضم إليهم كل غريب عابر

سبيل ، ويتناولون جميعا الطعام بأصابعهم دون شوك أو سكاكين . هذا بالاضافة لطابور المقبلين عليه عند دخوله المضيفة ، فيهم أولاده والزوار والغرباء بمن فيهم نظيف الوجه وقذره . ولم استطع رغم ما كان يخصنى به من عطف وتقريب ، من بين الجمهرة الكبيرة من أحفاده ، أن أهضم أو أندمج فى هذه التقاليد . ولم أكن أفهم لماذا يركب حمارته الخاصة كل يوم ليمر على أراضيه الزراعية ، التى تضم كل زمام القرية دون منازع ، وتقف الحمارة تلقائيا على رأس كل حقل ، كما لو كانت تحت سيطرة إيحائه ، مثل سائر سكان القرية الذين يعملون جميعا فى أرضه ، رغم امتلاكه لعربة حنطور وكارتة يستخدمها أولاده وعائلاتهم ، أو يستخدمها هو لو خرج خارج دائرة نفوذه لأحد الكفور المجاورة أو المركز .. ولم أربط تحفظه على دراستى بمدارس الفرنجة بالمرات القليلة التى حضرت فيها استقباله لأجانب من تجار القطن ، أو ملاك بعض القرى المحيطة التى حصلوا عليها من ملاكها المستدينين وما خيل لى ، رغم معاملته لهم بالتقدير ، أنه لا يكن فى نظرته إليهم الانبهار أو حب الاستطلاع ، الذى كان يلون نظرة الأجيال الأصغر من أولاده وأحفاده وفلاحيه ، وكان إيمانه بدنياه لا تشوبه أى ظنون ، كما أن قبوله لأن يكون لهم هم دنياهم لم يكن موضع أى نفوز .

وفى طنطا ورغم انعدام الزحام فى غير أيام مولد السيد البدوى ، يتآلف السكان حتى يتعرف عليك الكثير من أصحاب المحلات ، فقد كان

يصحبنى إلى المدرسة فتى قروى من قريتنا ، ويعود لأخذى فى نهاية اليوم الدراسى بحجة حمل الحقيبة المدرسية ، وربما بقصد تأكيد مكانتى الاجتماعية . وكنت كلما تغير الفتى ، الذى لم يكن يزيد عنى إلا بقليل من السنوات ، أكون أنا دليله وحارسه أكثر مما يقوم هو بهذه الوظيفة ، ولكنه كان خلال الرحلة يزودنى بكل أخبار المنزل والجيرة ، بشمول لم يكن من المنتظر أن يتاح لى من أى من العاملين الكبار أو أفراد العائلة ، وكنت أعرف أنه ليس مقبولا أن استدرجه أو اشجعه على نقل الأخبار ، ولكنى بالقطع لم أكن أسكته ما لم يتعرض لأى من العاملين القدامى بسوء ، وهم ، كما كان فى هذا الزمن ، تربطهم بالعائلة وشائج انتماء وثيقة .

وفى هذا اليوم الذى لم تمح السنون الطوال انطباعاته من الذاكرة أو القلب ، لفت نظرى بمجرد الخروج من المدرسة هدوء وسكون غريب يلف شمل المدينة ، ولما تأكد لى بعد قطع جزء من الطريق تساءلت عن تفسير هذا التغيير الملموس ، وإخبرنى الفتى أن زغلول باشا قد مات ، ولم يكن يتذكر بقية الاسم ولكنه كان يعرف أنه الباشا الكبير ، ولما أمعنت النظر على مدى الطريق وجدت الوجوم والتجهم والأسى يصبغ أوجه الناس ، وحتى على المقاهى لم يكن هناك الصخب والمرح المعتاد ، بل رأيت الكثيرين يمسحون دموعهم ، بل خيل إلى أن جو وفراغ المدينة ومبانيها قد خيم عليها الأسى والحزن والسكون . ولم أتمالك ،

نا الطفل ، إلا أن أحول حديثنا إلى همس ، وأفقد كل رغبة فى الابتسام أو المرح الذى كان عادة ما يسبغ حديثنا فى رحلتنا ، وقد أتيح لى فيما بعد أن أعرف الأكثر عن الفقيد سعد باشا زغلول ، وألمس مدى الحب والإجلال اللذين يكنهما له الناس ومدى الحزن والأسى الذى عم بوفاته ، كما أتيح لى التعرف على سير الأبطال وإنجازاتهم وسايرت بل وحملت جثث شهدائهم ، ورافقت كفاحهم فى مصر وفى أنحاء أخرى من العالم . ولكن بقى لا ينسى حزن طنطا التلقائى والدفين ، لوفاة زغلول باشا رمزا للوعى والصحوة الوطنية ، مهما تعمقت معلوماتى وتوسعت تجاربى وتنوعت خبراتى . وعلى مدى سنوات العمر الطويل رأيت الجماهير فى مصر وخارجها تعبر عن أسى وألم الفراق لرموزها البارزة السياسية والاجتماعية والفكرية ، رأيت بكاء ونواحا وصراخا تعبر به عن فجيعتها وأحلامها المهدرة ومخاوفها الكامنة ، كما فعلت فى جنازة جمال عبدالناصر ، ولكن درس جموع أهل طنطا بكل فئاتهم وأعمارهم فى خشوع جرفهم وألمهم الدفين فى أعماقهم بقى أكثر الدروس رسوخا وأثرا فى نفسى وركيزة من أبرز ركائز ضميرى الاجتماعى .

طفولة تداعيات الصحوة

ولا أستطيع أن أقطع بأنى كنت على أى درجة من الوعى باحتمال

انعكاس هذه الصحوة على تفاعلى مع الأحداث المحيطة بى وبلورة توجهاتى ، ولكنى أقطع بأن انطباعات الصحوة ظلت حبيسة فى مخيلتى ووجدانى ، وكان طلبة مدرسة الرهبان فى طنطا ، كما سبق وبينت أن أغلبهم لهم خلفية اجتماعية وثقافية متميزة فيما عدا الأقليات المصرية أو الأجنبية التى تتركز بنسب أعلى ، ولم تكن اللغة العربية والدين يحظيان بعناية فى برنامج التعليم ، وبالتالى ساد انتشار ترتيب الآباء لإعطاء دروس خصوصية من مدرسين مصريين لهم دراية بنواحى المعرفة هذه ، والحقيقة أن المدرسة كانت تمنع استخدام العربية فى الحديث حتى فى فترات الراحة أو الفسحة ، وكان النظام أن أول كل فصل يحمل قطعة خشبية صغيرة معلمة ، كانت تسمى «الانسينال» ويطوف فناء المدرسة فإذا وجد من يتحدث العربية يعطيه هذه القطعة ، ويترتب على ذلك توقيع عقاب بأن يكلف بكتابة صفحات بالفرنسية ، يعترف فيها بخطئه والتزامه المستقبلى بالحديث بالفرنسية ، وأظن أن حجة المدرسة كانت أن هذا النظام هو الكفيل باتقان اللغة الفرنسية فى سن مبكرة .

ولكن وقفت عقبتان رئيسيتان أمام هذا النظام ، الأولى والأهم أن اللغة الفرنسية لم تكن تعكس الألفاظ والرموز الحية وألوان المرح والفكاهة الوطنية ، التى يعبر بها الطفل تلقائيا عن انفعالاته ويستقبلها زميله فى يسر وإلمام ، وثانيها أنه فى هذه السن المبكرة لم يكن الطلبة

المصريون ، ولم تكن أسرهم تتحدث الفرنسية بحصيلة كافية للتعبير عن كل نواحي التواصل والتفاعل المرغوب فيها .

وكنت وظللت في كل مراحل دراستى طفلا يميل إلى الإنطواء قليل المرح ويكسو ملامحى وتصرفاتي قدر ملحوظ من التحفظ والرزينة يفوق سنى . وأظن أن انتمائي الريفى كان له دور فى تنمية هذا التوجه ، فلم يكن الصغار مسموحا لهم بالانضمام إلى حلقة الكبار فى المضيفة وكنت استثنى من هذه القاعدة بحكم ما وصفت به من العقل والاتزان لعدم مشاركتى الصغار فى صخبهم ومرحهم ، وكان جدى ووالدى يتوسمان فىَّ بشائر امتياز فى المستقبل ولعل بعض المدرسين ، ولاحقا الزملاء من الطلبة ، نموا فى هذا الاتجاه بما اسبغوه علىَّ من تقدير ، ولكن ظنى أن الأصل فى هذا التوجه أنى كنت خجولا وحساسا إلى درجة مبالغ فيها حتى أن التأنيب أو الزجر حتى فى شكل ممازحة كان يؤلمنى ويؤرقنى لمدد طويلة وكان ذلك موضع نقد وعدم رضاء من الآخرين .

كنت متفوقا فى الموضوعات التى تدرس لنا ما عدا اللغة الفرنسية ، وعقب الفجوة مررت بتجربة تركت انطباعا باقيا فى نفسى ، فقد حصلت على الدرجة الأعلى فى العربية ، وجاءت اجابتى فى الحساب خالية من أى خطأ ، وكان معنا فى الفصل طالب لبنانى متفرنج يدعى فرنسوار ، يتحدث الفرنسية بطلاقة انطباعا أن والدته

كانت فرنسية وأن أسرته كانت تتمتع بالامتيازات الأجنبية التى تعفى الأجانب من الخضوع للقانون والقضاء المصريين ، وكان مدرس الحساب لبنانيا متفرنجا أيضا ، اسمه مسيو كاميل قد أعطى فرنسواز النمرة النهائية فى الحساب ، رغم وجود أخطاء فى نتائجه ، وأعطانى نمرة أقل ، وكان فرنسواز يحصل على النمرة النهائية دائما فى الفرنسية التى يدرسها أحد الرهبان ، واستجمعت أطراف شجاعتى ولفت نظر مسيو كاميل ، فبين لى بعجرفة أن ركاكة لغتى الفرنسية وعدم تميزى فى الخط ، مثل فرنسواز ، لا يؤهلانى لما أطلب مهما كانت اجاباتى . ودفعنى الشعور بالغبن إلى ركوب مركبة الصعاب ، وتقدمت إلى الراهب الذى يعطى «الانسينال» إلى الأول - هو مرة أخرى فرنسواز - بتظلمى فنهرنى بجفاء وقسوة . وقد أحاط بى الأسى لأيام من جراء ذلك ، مما دفع الصبى الذى كان يحضر لمصاحبتى من المدرسة إلى الإلحاح لمعرفة دواعى حزنى ، فلما قصصت عليه القصة اقترح حلا ريفيا مصريا أصيلا ، وهو أن يحضر معه كمية من الظلط باكر ، ويقف على الجانب الآخر للطريق ، وبمجرد ظهور الراهب يلاحقه بإلقاء الظلط عليه حتى يؤذيه ، فلا يعود إلى فعلته الشنعاء ، ورغم أنى رفضت اقتراحه فإن خيال تنفيذ الخطة والتشفى من مناظرها ظل يلح على خيالى لأيام طوال .

وكان معنا طالب إنجليزى وحيد في الفصل ، لا أتذكر أسباب وجوده في المدرسة الفرنسية ، وكان الطلبة المصريون يعتبرون السخرية منه ومعاكسته إحدى تسالى الفسحة ، وكان هو أكبر حجما من متوسط الطلبة وشديد النشاط ، فيلاحق الطالب الذى يعاكسه ولم أكن اشترك فى هذه المناورات ، وكان معى أحد أقاربى أصغر سنا وحجما وكان نشطا فى هذه المناوشات ، ولعله انعكاسا لكمدى أنى هددت الطالب الإنجليزى أنه لو ضرب قريبى فسأضربه ، ولما احتج بمعاكسته كان ردى : «إذا عاكسك فعاكسه ولكن لا تضربه» ، اتذكر أن هذا التصدى الجسمانى ، والذى لم يكن هو طابعى ، أرضانى نفسيا فى حينه .

وفى سن الثامنة قرر والدى ، مع جمهرة من الآباء المصريين المعارف ، تحويلنا إلى مدرسة مصرية ، وكان ذلك فيه تأخير لى فى الحصول على الابتدائية لمدة عام ، ولكننى كنت سعيدا وفرحا رغم التحذيرات والقصص التى وصلت إلى مسامعى ، عن النقص فى الامكانيات وصعوبات البيئة الجديدة . وكنا نمضى إجازة الصيف في رأس البر وتصادف أن العشة التى أقمنا فيها جاورت عشة السيدة أم كلثوم ، وكان ذلك حوالى ١٩٢٩ . ومن خلال اللعب مع أبن اختها «دسوقى» على ما أتذكر توثقت علاقتى بالسيدة أم كلثوم وكانت تصر أن أجلس بجانبها على مقعدها وكانت تدندن لى بعض الألحان

أحيانا ولم أكن استوعب مكانتها الفنية ولا أعرف الكثير عن الموسيقى أو الغناء . ولكن كنت واعيا لشدة مكانتها الوطنية كإحدى الشخصيات العامة العزيزة وإن هذا هو أول احتكاك لى بأحد هذه الرموز .

ودخلت مدرسة القاصد الابتدائية ، وكانت مدرسة حكومية (ميرى) حديثة أقل ازدحاما وأحسن تجهيزا من المدارس الأخرى ، ومن مظاهر تقدمها أنها تميزت باختيار نظار مؤهلين ، أتذكر اسمين منهم هيكل والهاكع ، وكانا قد حصلا على بعثة إلى بريطانيا ومن ثم كانا أكثر تقدما وانفتاحا على أساليب التربية الحديثة . وأذكر أن أحدهم كان معنيا باذكاء روح الوطنية والاعتزاز بالذاتية التاريخية والثقافية المصرية ، وكان ينتهز الفرص لبث هذه الروح فينا ، وكانت هناك عناية بالنظافة العامة والذاتية للطلبة ورقابة على التصرفات والألفاظ. عاد مبدأ التأديب بالعصا فى هذا العصر ، فالتخلف عن أداء الواجب له عدد من العصى على الأيدى ، ومخالفة النظام له عدد وإهمال الكراريس له عدد ، والرسوب له عدد .. ومن ثم أصبح هناك حافز مضاعف لى لتجنب هذه الإهانة بمضاعفة الجدية والإلتزام والاجتهاد ، وكنت من الطلبة الموفقين ، ورغم هذا مرت مناسبة عائلية حاشدة منعتنى مرة من أداء الواجب ، وكانت ثقتى أن تاريخى المشرف مع تفسير السبب سيكونان مبررا كافيا لإعفائى من العقاب ، ورغم تفوقى بشهادة المدرس ، أصر على توقيع العقاب وأتذكر أنه من شدة

الخجل والمهانة لم أشعر بالألم إلا بعد انتهاء العقاب ، ولم يوحى إحساس بالظلم لأنه كان نظاما عاما ، ولكن راودنى الشك والتساؤل عن جدوى أى نظام يتصف بالجمود والغباء ، وثار فى نفسى تساؤل عما يدعيه أصحابه من حكمة ومعرفة ، وبقى معى هذا الإلحاح والتحفظ لكل نظام أو أسلوب جامد مهما كانت مبرراته أو ركائزه أو أصوله ، وأظن أن كل حياتى عكست فى كل نواحيها هذه المساءلة والتحفظ وكثيرا الرفض الذى اكتسى بالحدة أحيانا كثيرة منذ طفولتى حتى شيخوختى أتذكر أن الأثر اللاحق لهذه التجربة المؤلمة كان تدعيم انطوائى وتحفظى، وعزوفى عن الدخول فى علاقات حميمة مع زملائى وأساتذتى ، أى تعمقت توجهاتى الأصلية ومبالغتى من الالتزام بقواعد الأصول المرعية فى التعامل مع الجميع ، مما أكسبنى قدرا ملحوظا من التقدير ولكن ضيع على دفء العلاقات الحميمة مع الجميع . ولست أريد المبالغة وتضخيم آثار الحادث والأرجح أن هذه التوجهات كانت أصيلة فى شخصيتى بدليل أنها صاحبتنى ، كل حياتى ولكن لعل الحادث جعلنى لأول مرة أعى مدلولاتها .

وكنت فى هذا الوقت أقيم مع والدتى وأخوتى فى منزل جدتى بشارع درب الأثر ، القريب من مسجد السيد البدوى ، فى منزل عتيق يكاد يكون أثريا من أوقاف أسرة جدتى لأمى ، وكانت هذه الجدة من أقرب شخصيات طفولتى لقلبى ، فهى سليلة أسرة قديمة من الأعيان

بدد ثروتها رجال أسرتها ، وبقى لها الوقف الذى يحفظ لها ضرورات عزها الزائل بعد أن أكمل زوجها خيبة أهلها بأن بدد ثروته هو أيضا قبل موته وهو يكبرها بسنين كثيرة وله زوجة أخرى ، وكانت قد فقدت ابنتين لها ولم يبق لها إلا والدتى وابنة إحدى كريمتيها المتوفيتين ، فاحتضنتها رضيعة بعد زواج أبيها ، ودارت حياتها حول هذين المحورين بعمق وتفان لا تشـوبه شـائبة أو تأفف أو تململ أو حتى تعبير بإشارة عن قسوة قدرها ، وكان أخوها قد منعها من تعلم القراءة خشية أن تكتب خطابات للغرباء وإن تعلمت تلاوة القرآن ، وكانت شديدة البساطة والتواضع ولكن تكسوها مسحة من الاعتزاز والكرامة والإتزان يستحيل تصور أنها تعلمتها أو أدمنت بها ، وظنى أن البعد المكتسب منها كان تراث أجيال من بيئة بنت الأصول فى زمنها ، وكانت متسامحة متفهمة فيما لا يمس ابنتها وحفيدتها اليتيمة ، وقد مرت بظروف عصيبة كثيرة لم يكن أقلها أن تركت منزلها فى طنطا وصاحبتنا إلى القاهرة عندما انتقلت إلى مدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا ١٩٣٣ ، كان ذلك لا بمثابة انتهاء لملكتها المتواضعة والمتداعية ولعلها كانت أكبر تضحياتها لابنتها الوحيدة الباقية ، ولكن بقيت لها فى كل الأحوال كبرياؤها المتواضعة وأصالتها التى لم تخدشها الأحداث ولا الأيام ، من الناحية الأخرى كان جدى لوالدى هو أبرز الشخصيات الأخرى فى حياتى ، وكان رجلا معمما أزهرى الثقافة كثير العيال

والطين ورغم ثراء عائلته فكان عصاميا بنى أراضيه بجده واجتهاده بعد أن هاجر من المحلة الكبرى إلى البرارى ، وأنشأ أبو جلال من العدم وكانت حياته هى الأرض بل كانت عشقه وغرامه ليس امتلاكا فقط بل تواصل والتحم بطينها ومياهها وزرعها وحيوانها وشمسها وأبنائها وكان غير مهموم بالعالم الخارجى بل نفورا منه وتباعدا عنه حتى أنه شجع أولاده الكبار على عدم مواصلة دراستهم والعودة إلى الأرض ولم يدفع أيا منهم لاستغلال الفرص الكبيرة التى كانت فى متناول يد الأغنياء خارج القرية علما أو سلطة أو مركزاً أو شهرة فالأرض لم تكن له مجرد ثروة ولكنها حياة وعزة وهواية ، والعيال هم ثمرتها الأثمن وعزوتها ورونقها ، ويبدو أنه كان يرى متغيرات العالم الخارجى وأحداثه وعلاقاته كملهاة دخيلة على أصل الكيان وهو ارتباط الإنسان بالأرض ومازلت أذكر ملامح الرخاء والامتنان تغمره وهو يعاين الزرع المزدهر والأشجار المترعرعة والمياه الجارية والأسى الدفين وهو يعتصره على رأس حقل انزوى زرعه أو عصفت به النوائب ، وكنت نادرا ما أصحبه فى جولاته على زراعته فى إجازة الصيف وظنى أنى كنت أستوعب التواصل مع الأرض ، ليس من ازدهار الزرع ونضارته ، ولكن من انعكاس المناجاة بينه وبينها على نظرته وملامحه ، بل وقامته وحركته ولعلها كانت دائما أحجية مثار عجبى وتعجبى ، ولم استوعب كينونتها إلا بعد ثلاثين عاما ، بعد أن عدت من غربة خمسة أعوام فى بريطانيا

سنة ١٩٥٦ ووقفت وقفته ، وقد تبددت أجزاء من أرضه ، وتفرقت ما تبقى بين مئات الأولاد والأحفاد لم يعيشوا التواصل مع أصل الحياة وهدفها الأصيل ، وعلى رأس هذه الأرض وبعد ست سنوات فى أوربا من التفاعل الناجح والمؤثر فى مؤسساتهم العلمية والفكرية والسياسية ، وكانت نقلة العودة بعد هذا الاندماج فيها صدمة بينتها أبعاد التكيف اللازم مع مفاهيم وأساليب تعامل ونظم ومؤسسات وبيئة سياسية وقانونية مخالفة كل المخالفة لبيئة الغربة ، ورغم الحنين والولاء المشتعل فى وجدانى طوال مدة القرية والذى صبغ مسارى وحكم كل تصرفاتى ورغم العشق الذى أخذ دائما بتلابيب نفسى نحو أهلى وأهل مهد الحضارات ، فقد خالجنى القلق من احساس بالغربة والاستغراب بعد العودة حتى فى مسارى فى الطريق أو الشراء من دكان ، ربما زاد حدته ما قابلتنى به المؤسسات والسلطة من شك وريبة وحصار ، ولكنى على رأس هذا الحقل وفى صحبة أبناء الأرض ، وهم الأقصى عن معايير الحضارة والثقافة التى تغربت معها ، شعرت لأول مرة بانحسار غيوم الغربة عنى وشعرت بالنشوة التى لابد وأن تسير فى أوصال كل نبت تعود جذوره إلى أرض منبتة ، وآمنت أن كل فجوات الحضارات والثقافات الحديثة الأخاذة هى مجرد إضافة وليست بديلا عن التواصل مع التراث الخالد عبر عشرات الآلاف من السنين مع أصل الحياة ورسالتها واستوعبت

الفلسـفة التى لم يستطع جدي فى طفولتى أن يفسـرها لى والذى يغلب على الظن أن آباءه لم يفسروها له لأنهـم مثله كان مثالا حيا لا يحتاج إلى تفسير أو تبرير .

وفى السنة الثالثة الابتدائية كانت الحياة تعد لى تجربة أخرى تشكل توجهاتى وتبلور طابع شخصيتى ، ولقد تعودت أن أكرر على تلاميذى فى العلوم والسياسة الذين يؤمنون أنى لم آخذ حظى المستحق فى الحياة وأنى أسرف فى لفظ الفرص والمنافع التى تفرضها قدراتى والتزامى أنى كنت دائما محظوظا لأن الحياة أتاحت لى ثروة من التجارب وفرصا للتعلم والتعليم لأنضج عقليات عصرى فى كثير من أنحاء العالم ، وهى ثروة لا تعادلها ثروة أو سلطة أو مال وأن كل فضلى كان دائما أنى أرهف السمع وأدقق النظر فى كل ما أتاحته الحياة من تجارب وتفاعل وأن هذه هى حكمة حياتى التى أهديها لتلامذتى ، وكانت مدرسة القاصد تعامل على أنها مدرسة حكومية نموذجية ومن ثم كانت هناك درجة من الرقابة والرعاية أكثر من المدارس الأخرى ، ومن ثم كانت هناك رقابة دقيقة على قص الأظافر وتلميع الأحذية وكى الطربوش ونظافة الكراريس وانتظام الطابور إلخ .. ومن بين ألوان الرقابة أن المدرسة التى لم يكن بها «كانتين» كانت تسمح لاثنين من الباعة لهم عربات مزينة بالبيع للطلبة من خلال فتحت الباب الخلفى الحديدى أثناء الفسحة . وكان المعتاد أن هذين البائعين يسمحان بالشراء بالأجل لمن

انتهت نقوده حسب تقديرهم لقدراته والتزامه ، وفى هذا العام بدأ البائعان فى التنافس على بيع البخت ، وكان علبة مغلقة قد يجد الطالب فيها قطعة حلوى أو قلم حبر فاخرا ونقودا .

وتأتى عن ذلك إسراف من بعض الطلبة فاشتكى أهاليهم ، وتم التنبيه على الباعة بالامتناع أو طردهم من أمام المدرسة ، ودعمت وكانت تعليمات الشرطة لها احترامها وفاعليتها ، ويبدو أن المنافسة بين البائعين أن يحاول كل منهما احتكار البيع للطلبة ، فتقدمت شكاوى مدعمة بشهود من بعض الطلبة أن كلا منهما يخالف التعليمات وأوقف البيع حتى يتم التحقيق ، وفى يوم استدعيت من الفصل لمقابلة الناظر ، وكان على ثقافة عالية وله سابق دراسة فى بريطانيا ، واتذكر الهلع والخوف الذى انتابنى لهذه الدعوة التى لم يعرف الفراش سببا لها ، وتوجهت معه أقدم رجلا وأأخر أخرى ، ولما دخلت حجرة الناظر وجدت معه مساعده واثنين من المدرسين ، ولكنه استقبلنى ببشاشة وعطف سكنا بعض مخاوفى ، وسألنى إذا كنت أعرف سبب وقف المبيعات فأجبته بالإيجاب ، فقال لى بهدوء اسمع يا عصام أنا استدعيتك لأن كل المدرسين يؤكدون أنك دوغرى ويمكن الوثوق بك لأسألك سؤالا ، ولكن قبل أن أسألك أريد منك أن تفهم شيئا ، هل تعرف خطورة تحصيل لقمة العيش التى يجد والدك لتوفيرها لك ، أنا سأسألك سؤالا وبناء على شهادتك قد يقطع عيش أسرة ، هل

أنت (قد) المسئولية ، فأجبته بأنى لا أكذب فيما أعرف ، ولا أقول ما لا أعرف ، فسألنى من يبيع «بخت» بعد صدور قرار المنع ، فأكدت له أنه منذ صدور القرار لم أر أحدا يبيع ، ولم أر «بخت» في يد أحد الطلبة ، إن كنت لا أمضى وقتي بجوار الباب .. ويبدو أن دقة الجواب اعجبته فسألنى ما رأيك فى الشكاوى ، فأخبرته أن هناك تنافسا شديدا بين البائعين وصل إلى حد الخناقة والاعتداء المتبادل وان كلا منهما يحاول التأثير على بعض الطلبة فصرفنى ، وتعامل مع البائعين على أساس التنافس غير الشريف وهددهما بأن أى احتكاك أو تأثير على الطلبة سيجعله يستبعدهما ، وبعد أيام أصدر أمرا أن يعين ألفة لكل فناء ، وكان للمدرسة فناءان وعينت أنا لأحدهما .

وكان هذا الدرس بداية منحنى فى مسارى لا شك أنه صبغ شخصيتى ونمى ملكاتى فى اتجاه محدد ، فلقد كانت مفاجأة كبرى أن يكون التزامى وتقيدى بالأصول موضع ملاحظة أحد بل الأكثر موضع تقدير ، وكنت أحسبه عبثا ليس لها مردود ، ثم إن التكليف الجديد أعطانى مبررا لاسقاط تحفظى واتجاهى للعزلة في إطار اجتماعى ايجابى ، بدلا أن يكون تباعدا وانفاصما عن المجتمع . ولم تقم شبهة أنى أتجمل أو أتكبر بحكم سلطاتى الجديدة لعدم مشاركتى فى اللعب

والمرح والمحاولات ، لأن هذا كان طابعى المعروف غير المفتعل وإن كنت أظن أنه أضفى علىَّ قدرا من الحيدة والشعبية أعاننى على القيام بواجباتى بيسر أكبر ودون تنفير ، وقد استمرت معى هذه المسئولية فيما عدا السنة الأولى الثانوية حينما انتقلت إلى مجتمع القاهرة الغريب عنى ، ولكن سرعان ما عادت إلىَّ طوال الدراسة الثانوية . ولعل أكبر عائد ايجابى لهذه الفرصة هو أنها اتاحت لى المبرر للتعايش مع أبعاد لعلها أصيلة فى شخصيتى دون تناقض وتخبط ، وأصبح طبيعيا أن أتوقع من مجتمعى قدرا من التقدير وأن يحظى رأيى بقدر من الانصات ، وأن يلجأ إلىَّ بعض الأقران طلبا للمشورة أو المساعدة ، وسعدت أن أكون ملاذا ولو ضعيفا للضعفاء أو المضطهدين ، ومعرقلا ولو جزئيا للباغين أو المعتدين ، وتعلمت مبكرا إن ما يجتذب ثقة الناس ليس التفوق والبروز بأشكاله ولكن الحيدة والأمانة والاهتمام ، وأن مسئولية حيازة الثقة هى مزيد من كل هذا مهما كانت الأعباء والضغوط ، وأنه فى نهاية المطاف فالرابح هو المعطى وليس الآخذ ، وأن التواصل الاجتماعى يمكن أن يكون أكثر دفئا وثراء من العلاقات الحميمة الثنائية التى تفرزها الأحاسيس والظروف . وأظنه تدرجا طبيعيا أن نما هذا التواصل الاجتماعى معى من مستوى فناء المدرسة إلى مستوى جموع الطلبة ثم جماهير الأمة، ثم مجموعة الدول النامية كلها فى مراحل تالية من حياتى، وأن يبقى الالتزام

والثبات طابع هذا التواصل الاجتماعى قوميا وعالميا حتى يصبح الصفة الغالبة التى أعرف بها، وتعرف عنى فى أعلى المحافل العالمية ورحمه الله ناظر مدرسة القاصد الابتدائية ، وكم يؤلمنى ، وقد بعدت الأحداث ، أن لا أستطيع أن أقطع إذا كان الأستاذ الهاكع أو الأستاذ هيكل هو الذى منحنى هذه الفرصة .

الباب الثانى

توسيع المدارك

وفي ١٩٣٢ حصلت على الشهادة الابتدائية بتفوق على مستوى الدولة ، وقرر والدى انتقال الأسرة إلى القاهرة للالتحاق بإحدى المدارس الثانوية المرموقة لاستحقاقى للمجانية ، وسكنا فى شارع شبرا فى بقايا قصر قديم يقال إنه كان يخص حاشية الخديو توفيق ، وكانت له ميزة لاشك أنها كانت ذات تأثير كبير فى تشكيل نشاطى الوطنى فى مرحلة التعليم الجامعى ، فرغم تقسيمه إلى شقق فإن اتساع غرفه الرئيسية بما يفوق المساحات المتعارف عليها بقيت على حالها وقد كانت إحدى هذه الغرف الشاسعة والتى أعدت كصالون ، وإضيفت لها مكتبى فيما بعد، هى مقر الاجتماعات الأسبوعية التى كنت أعقدها مساء الخميس ، ويحضرها أعضاء المجموعة التى عملت معى من زملائى فى الجامعة ، وأيضا من يدعونهم من معارف وأصدقاء فى بداية عملى السياسى أثناء دراستى الجامعية فيما بعد .

والواقع أن الانتقال إلى القاهرة فتح لى النافذة على المجتمع الكبير لسببين ، أولهما أن حصولى على الابتدائية ودخولى للثانوية أطلق لى حرية الفكاك من أسر الحياة الأسرية الضيقة ، التى حاصرتنى فى طنطا، وثانيهما أن خروجنا وجدتى معنا من معقل جدتى الموروث فى شارع درب الأثر فى طنطا بتقاليده وخدمه وحشمه حتى بعد انهياره وعلاقاته الموروثة ، أقحمنا جميعا فى تجربة وغربة تعدت حدود النقلة

الجغرافية والحضرية من البيئة الأسرية التقليدية والإطار النصف مدنى ونصف ريفى لطنطا العشرينيات إلى المجتمع المفتوح المختلط التوجهات والقيم والمفتقر للالتزام بالتقاليد الجامدة فى شبرا القاهرة ، فالغربة عكست الضرورة لتلمس الأسرة لأسس جديدة ومتغيرات ملزمة لتصنيف علاقاتها ومواقعها بين أفرادها وبين الأسرة ومجتمعها الجديد ، وفى الحقيقة كان الانتقـال معـناه نهـاية تقـاليد وقيم بلاط جدتى وجدى ليس داخل بنائها الأسرى الموروث فقط، ولكن أيضا فى موقعه من المجتمع الأكبر فى بيئة لها تصنيفها الاجتماعى المختلف ولها قيمها وموازينها المغايرة .

وخصنى من هذا التغيير ليس فقط حرية الاختلاط مع المجتمع الأكبر ، ولكن ضرورة هذا الاختلاط ومن ثم خروجى للتمشية على شاطئ النيل الذى أصبح أحد غرامياتى والذى سلب سحر مياهه الجارية لبى .

فكان بينى وبين النهر الخالد أكثر من تواصل بل حوار واتصال ولكنى أيضا وجدت انجرافا لاستكشاف خفايا المدينة وتأمل أحيائها وسكانها ، وكانت المدينة صغيرة بعد تبدأ أبعادها من دوران روض الفرج حتى العباسية ومصر القديمة ، ولم يكن استشكاف المدينة وسكانها لى مجرد حب استطلاع أو تسلية أو حتى ترويح على النفس ، ولكن كان عملية استقراء واستيعاب لمدلولات كنه هذا المجتمع الجديد ،

وكنت أقوم بهذه الجولات بمفردى ولا أتمتع بها مع الغير ، ولا أشعر أن هناك بديلا عن هذا الاندماج فى طياتها لفهمها وادراكها ، وقد تأصلت هذه الخاصية فىّ بحيث جعلتها القاعدة فى تعاملى مع المجتمعات الجديدة خلال مراحل اشتغالى بالأمور الدولية ، كما اكتشفت فى القاهرة أنى لن أجد الكنه والأصل إلا إذا تهت وضللت الطريق فى أركان القاهرة فقد جعلتها القاعدة أن أتوه وأضل فى كل عواصم العالم لندن وباريس وفرنكفورت وبرلين وروما وچنيف وكوبنهاجن وبروكسل وغيرها عشرات فى أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية وآسيا من اليابان حتى طهران .

وفى الحقيقة أن هذه الهواية لم تزدنى علما بجغرافية هذه المجتمعات فقد تكرر توهانى فى نفس الأحياء مرات فى المدن الأوروبية والأمريكية والآسيوية ولم أكن اقتصر على الأحياء العصرية المتحضرة ، بل جذبتنى دائما الأحياء الشعبية القديمة حتى فى المدن التى تقع فيها هذه الأحياء بالمخاطر والعنف مثل نيويورك ولوس أنجلوس وفيلادلفيا وديترويت فى الولايات المتحدة ، ونيودلهى وكراتشى وبانجوك وهونج كونج ، ولأسباب مبهمة لا أستطيع تفسيرها حتى اليوم ، كان هذا الالتحام والاندماج يريح شعورى بالغربة والفردية ، ويثير فىّ اقتناعا بالإنتماء الإنسانى إلى الحد الذى رسخ فى نفسى وحدة الإنسانية وتواصلها واشتراكها الأصيل فى الأصول والأساسيات من أرقى أحياء

استكهولهم إلى أبشع عشوائيات نيودلهى وبيونس أيرس فقرا وقذارة وجهلا . ولعل هذا كان سببا فى أن انتمائى واعزازى للإنسانية ككل ، كيفما كان لونها وعاداتها ومستواها ، أصبح طبعا فىّ وليس تطبعا إلى الحد أنه كان ركيزتى التى يلحظها ويحس بها الآخرون ، وكانت مؤهلى الأساسى فيما حققت من تجارب وثقة فى معاملاتى الدولية رغم العقبات السياسية الكبيرة التى أقامها تصلبى فى السعى إلى التغيير والالتزام بحقوق المهضومين .

ومن ثم فإن غربتى فى المجتمع الكبير فى القاهرة أسرعت فى التقلص ، ليس بمعنى استعارتى لقيم وموازين هذا المجتمع ولكن بمعنى إحساسى بنبض هذا المجتمع وتفهم واستيعاب دوافعه ومحركاته ، والحقيقة أن قيم وطبائع الريف لم تغادرنى أبدا حتى بعد أن اندمجت فى الحياة الثقافية والفكرية والسياسية فى أرقى المجتمعات المتقدمة على مدى عشرات السنين ، وتمكنت من لغتهم ومفاهيمهم ونظمهم فقد ظللت فلاحا طبعا وانتماء ولنا عودة لهذا التناقض الراسخ فى مرحلة تالية .

وكنا فى أوائل الثلاثينيات مازلنا نعانى من أوجاع الأزمة العالمية فكان انتقالنا إلى القاهرة مع ما فيه من زيادة فى التكلفة يضيف شظفا إلى شظف ، ولست أعرف إذا كان هذا سببا لتنمية عزوفى عن الرفاهية والعبث ، ولكنه بالقطع كان عاملا فى توجهى إلى التوسع

الرشيد لمداركي فلم تكن لي موارد لإشباع رغبتي في ممارسة الترويح الأحب إلي نفسي وهو القراءة ، ففيما عدا كتيبات أرسين لوبين وشرلوك هولمز التي كنا نتبادلها مع الأقارب والزملاء فقد اكتشفت في أول سنواتي في القاهرة الكتبخانة في باب الخلق ، وبعد تردد كثير اقتحمت بناءها الضخم ووصلت إلى قاعة المطالعة ، ووجدت من يرشدني إلى فهارس اختيار الكتب والاختيار منها ، وفجأة انفتح أمامي كنز لم أكن أعلم بوجوده أو أحلم بالوصول إليه ، وكان غنيا بدرجة تفوق الخيال مقارنة بمكتبة المدرسة المحدودة والمنتقاة ، وأصبحت الكتبخانة الكعبة المجانية التي أحصل على أكبر المنح فيها ، دون حدود خاصة خلال الاجازات المدرسية ، وكان طبيعيا أن تستهويني كتب التراث والأدب والتاريخ القديم في أول الأمر ، ولكني ما لبثت أن جذب اهتمامي كتب العلوم المبسطة وكتب السياسة ببعدها الوطني ، وأتذكر أني كنت أحيانا أقطع الطريق من شبرا إلى باب الخلق سيرا لتوفير نفقة الترمواي ، لأشتري بها فطيرة بالجبن إذا ما جعت عندما يطول بي وقت القراءة .

ولست أظن أنني حصلت أو تعمقت في الثقافة في هذه المرحلة، ولكنها بالقطع كانت بداية اتساع آفاق المعرفة وتعميق تواصلي معها حتى صار السعي إليها والتزود منها طبعا لا أكابر نفسي عليه .

وكانت المدارس فى هذا الزمن دور تربية وتعليم حقا ، وكان النشاط غير الدراسى من مكتبات وجمعيات الأشغال الفنيـة واليدوية والجمعيات الأدبية والخطابة ، إضافة إلى الملاعب الرياضية جزءا أصيلا من الحياة المدرسية ، أتذكر أنى منذ حداثتى لم تجذبنى الرياضة بأنواعها ، ورغم أنه فرض علينا أن نحوز على ملابس رياضية ونلعب فى حصص مخصصة للرياضة ، فقد كنت أكسل وأقل الطلبة مهارة وإقبالا ، ويحضرنى مثالان على هذا العزوف المبكر الذى أظن أنه كان انعكاسا للطبع الريفى الدفين ، بأن هذا التلاعب فيه اخلال بمتطلبات الوقار والرزانة .

أذكر أنه كانت تقام مسابقة في الكرة بين الفصول ويحصل الفصل الفائز على كأس ، وشكل الطلبة الرياضيون فى فصلنا فريقا وبحكم كونى ألفة الفصل كان علىّ أن أفصل فى الخلافات ، ولحل الأشكال الأكبر أصر أعضاء الفريق أن أكون أنا رئيس الفريق ، ورغم إصرارى واقتناعهم بأنى أقل الطلبة صلاحية لهذا الأمر فقد أصروا ووجدوا حلا لخيبتى المشهورة ، فاتفقوا أن أقف غير بعيد عن مرمى الخصم وسيحضر إلىّ أعضاء الفريق الكرة ويضعونها أمامي وكل ما على أن أركلها فقط دون جرى أو عناء ، وبالطبع تم تنفيذ ما اتفقنا عليه وأحضروا الكرة أمامى على بعد خطوتين ولم يكن أى من الخصوم قريبا ، وكنت أرى لاعبى الفريق الأول يندفعون جريا نحو الكرة

للاستزادة من قوة الركل فاندفعت بقوة نحو الكرة وركلت بأقصى قوتى، ولكن شيئا لم يصطدم بقدمى ، بل اندفعت أنا نحو المرمى .

وعند قيام الحرب العالمية الثانية عندما بدأ هتلر يهاجم جيرانه ١٩٣٨ ، تقرر إدخال التدريب العسكرى فى المدارس الثانوية وحضر مدرسون من احتياط الجيش لتدريبنا ، وكان التدريب صوريا إلى حد كبير ويقتصر على الطابور العسكرى وتحريك بدائل البنادق الخشبية من الكتف .

وعندما تقدم التدريب تقرر أن تقوم المدرسة باستعراض فى شوارع الحى ، وعملت بروفة فى ملعب الكرة الخاص بالمدرسة التوفيقية ، ولأنى كنت ألفة فناء من أفنية المدرسة فقد تقرر أن أكون باش شاويش على أحد الفريقين الذين قسم إليهما طلاب المدرسة وتولى أحد أبطال الرياضة فى المدرسة رئاسة القسم الثانى ، وحضر بعض ضباط التدريب مع الناظر هذه البروفة وأصدر المدرب نداءاته باللف إلى اليمين واليسار والدوران للخلف والسير البطئ والسريع عشرات المرات ، ثم مررنا أمام القيادة ذهابا وإيابا على إيقاع الطبول عدة مرات بحيث يتقابل الفريقان فى منتصف الملعب أمام القيادة ، وبعد أن أمضينا ساعتين فى هذا العناء ، وكان علىَّ أن أردد نداء المدرب لفريقى للتحرك ، صدر النداء لنا من أطراف الملعب للعودة بالمرور أمام القيادة ، ودقت الطبول وفوجئ المشاهدون بتحرك الفريق الآخر وعدم تحرك فريقى ،

وصدر الأمر بالوقوف وهرع إلىّ المدرب ليستفسر فأخبرته أنى تعبت ، وأن أعضاء الفريق شكوا لى من التعب والمطلوب أن يبحث عن باش شاويش غيرى ، وبالطبع جردت من شرائطى وقيادتى للفريق وكنت سعيدا لأننى لم أقد طابور الاستعراض فى الشوارع بعد ذلك .

وعندما عشت فى الخارج لسنين ، حيث الألعاب الرياضية جزء من عقيدتهم شبه الدينية ، بذل معى الزملاء كل الجهود ولكن لم أخرج أبدا عن تكاسلى ومبدئى ألا أبذل جهدا جسديا سعيا إلا إلى غرض أو هروبا من خطر .

والرياضة الوحيدة التى أحببتها ومارستها كانت ركوب الخيل فى اجازة الصيف فى «أبو جلال» وكذلك الصيد وبالطبع فإن الجهد الأكبر كان على الحصان وأظن أن تقليد الفروسية الذى كان موضع تطلع كل ذى مقدرة فى هذا الزمان كان عنصر الجاذبية الأساسى .

وفى هذا الزمن كانت مؤهلات العمل الوطنى السياسى تقوم على ركيزتين : أولا الخطابة وثانيا دراسة الحقوق ، ومن ثم كان تطلعى المبكر أن أحوز المؤهلين وأنى أتذكر أول مناظرة اشتركت فيها فى جمعية الخطابة التى كان لابد وأن التحق بها، وكنت على ثقة أنا وكثير من زملائى أنى أكثر معرفة وفصاحة من زملائى المناظرين الآخرين . ومع ذلك فبمجرد حلول الدور علىّ انهمر العرق على كل أعضاء جسمى

حتى بللت ملابسى والذى حز فى نفسى هو عرق وجهى المنهمر واضطرارى لتجفيفه المستمر ولولا وجود كلمتى مكتوبة فى يدى لتلعثم لسانى وطارت كل أفكارى ، وقد عاودتنى هذه الذكرى فى مواقف شهد لى بالتميز فى تملك ناحية الخطابة فى مراحل نشاطى العام فى مصر وفي الخارج فى أكثر من منبر أجنبى ودولى ، فلعل هذه الملكة هى التى حملت نفسى عليها وكلفت طبيعتى بها ، أو لعل البداية المتعثرة لا يصح أن تؤخذ مؤشرا على القدرات .

وفي هذه المرحلة أقبلت بنهم على التوسع فى قراءة ما يتعلق بتاريخ الحركة الوطنية ، ابتداء من ثورة عرابى مرورا بمصطفى كامل ومحمد فريد وثورة ١٩١٩ والأدبيات التى أفرزتها هذه الصحوات ، ثم امتد اهتمامى إلى الحملة الفرنسية والمقاومة المصرية ودور محمد على وانعكاسات التواصل مع الحضارة الأوروبية ، ودور على مبارك ورفاعة الطهطاوى وقاسم أمين ، ولم تكن الصلة التراثية قد تباعدت مع هذه الصحوات بعد ، وكنا كطلبة ملتزمين بلبس الطربوش ورباط الرقبة أتذكر إنى اعتبارا من ١٩٣٥ لما تحققت لى مشاركة مباشرة مع الحركة السياسية بدأت فى لبس ياقات القميص المنفصلة المنشاة والصديرى من قماش البدلة واشتريت عصا وهى كانت جزءا لا يتجزأ من لباس الرجال البالغين وكذلك اشتريت المنشة والمسبحة وإن كانت الشجاعة لم تواتنى لاستخدامها جميعا إلا فى المناسبات الخاصة ، ولقد عشت

متابعة أزمة إلغاء دستور ١٩٢٣ ، وحكم صدقى باشا المتعدى كنكسة خطيرة لإنجازات ثورة ١٩١٩ ، وهجمة الاحتلال البريطانى والسراى على هذه الإنجازات ورجالها فى أول الثلاثينيات ، وسمعت تفاصيل هذه الهجمة وتتبعت أخبارها ليس قراءة فقط بل من أفواه مقاوميها وضحاياها فى الحضر وفى الريف ، وتفاصيل عطائهم فى مقاومتها وإجهاض أهدافها .

ولكن البعد الاجتماعى لهذا التواصل الفكرى كان لا يقل أهمية عن التنور الذهنى ، وكانت المدارس لها برامج قراءات صيفية تعقبها مسابقات على مستوى الدولة ، توزع فيها الجوائز على المتفوقين . وأتذكر أن اهتمامى بالمشاركة حقق لى الفوز بجوائز فى الدين (قرآن طبعة الملك فؤاد الفاخرة) ، وفى اللغة الإنجليزية طبعة فاخرة بالصور الملونة لقصص أسوبس ، والعلوم كتاب مترجم عن التقدم فى مختلف العلوم الطبيعية خلال الربع الأول من القرن العشرين .

وأتذكر أن الجمعية الأدبية أعلنت عن مسابقة على القصة القصيرة وتقدمت بقصة قصيرة ، وكان ذلك ١٩٣٤ وأنا فى الرابعة عشرة من العمر ، تستقصى منشأ العلاقة العاطفية بين آدم وحواء ، بعد طردهم من الجنة ، وكانت هذه القصة بداية أول حوار جدى بينى وبين المجتمع الأكبر وأولى خطوات ظهورى كعنصر مشارك فى مجتمعى ، فقد اتخذت لجنة المسابقة قرارا باستبعاد القصة باعتبارها قصة منقولة أو مترجمة،

وباعتبارها تخرج عن إمكانيات طالب ثانوى فكرا وخبرة ، ولما احتججت بعنف على هذا الاتهام تقرر أن يقوم رئيس اللجنة ، وكان طالبا له نشاط شعرى مرموق بمناقشتى وقد عقدنا عدت مناقشات واطلعته على المسودات والتعديلات المتعددة فى إعداد القصة فاقتنع بأنى كاتب القصة ، ولكنه قرر أنه لن يقدم تقريره إلى لجنة الجمعية الأدبية المكونة من بعض الطلبة برئاسة مشرف من هيئة التدريس ، ولكنه سيقدمه إلى الناظر لأنه يرى أن هناك بعدا تربويا إضافة للبعد الأدبى ، وفوجئت لأول مرة باستدعائى لمقابلة الناظر فى غرفته بحضور المشرف والمقيم ، وطلب منى الناظر شرح أسباب اختيار هذا الموضوع ، والمصادر التى أعتمدت عليها فى الشرح المتعمق لأصول العلاقة العاطفية بين آدم وحواء ، واقتنع الحاضرون بأن القصة استقراءات لحصيلة واسعة من القراءات والإطلاع ، وتأملات متصلة لاستيعاب المجهول ، وكان الناظر صبورا وعطوفا وفى نهاية اللقاء كان قراره فى ظاهره مخيبا للآمال ، ولكنه فى حقيقته كان أكبر دافع لى على الثقة فى النفس وحافزا على ملاحقة التميز والبروز ، فهو فى عطف شرح لى أنهم مقتنعون جميعا بأمانتى من حيث أن القصة حصيلة حقيقية لإطلاع وتفكير ذاتى ، ولكنه تخطى الحدود المعتادة لسنى وهذا تميز يشكر لى ، وشرح لى أن الجمعية والمجلة هما فى الأصل أدوات تربية تطرح أنماطا تهدف المدرسة لشيوعها ومحاولة محاكاتها بين الطلاب ، ولأن القصة تخالف

هذا وتطرح أنماطا تتقدم على المناسب لسن وتجارب الطلاب فكان الاقتراح أن أسحب القصة من المسابقة ، ولا بأس من تأخير إعلان نتيجة المسابقة أسبوعا أو عشرة أيام لأتقدم بقصة بديلة ، وقد قبلت الاقتراح برحابة صدر ، وإن كنت اعتذرت عن تقديم قصة بديلة لصعوبة الافتعال للكتابة ، وقرب ميعاد الامتحانات ، وكان اعتذارى فى الواقع لأن القصة حققت كل أغراضها من وجهة نظرى من حيث تفاعل فكرى مع المجتمع الأكبر ، والمردود إلىّ من تقييم المجتمع لهذا الفكر وتقديره لموقعه من التيار العام أما المردود من حيث الشهرة فلم يكن لى ذا أهمية كبرى .

ولقد صاحبنى هذا «الخلل» فى توجهى طوال سنى حياتى فالتحدى الفكرى تبقى دوافعه قوية وغالبة حتى يثبت عطائى جدارته وصوابه وغلبته ، ومن ثم تقفز اهتماماتى وانشغالاتى إلى تحدٍ فأرى جديدا دون أن أبذل الجهد لتعميم وشيوع العطاء السابق حتى أنى اتهمت ، ولا أعلم عن حق أو عن غيره ، أن دافعى الرئيسى هو المتعة الفكرية التى أحصلها فى ركوب ناصية التحدى وامتلاك قيادته ، وأن توجهى الوطنى والإنسانى الذى تؤكده أفعالى والتزاماتى على مدى أكثر من نصف قرن يتناقض مع هذا التركيز على أساسية التعامل الفكرى دون التركيز على تحقيق مردوده الاجتماعى ، والذى يبدو من اصرارى على الالتحام بالمجتمع الكبير فى الحركة واقتصارى على التعامل الفكرى مع الخاصة

.. وكتابى هذا الذى يقرؤه القارئ نتيجة متأخرة لهذا «الخلل» فى توجهاتى لأنه لم يأت إلا بعد إلحاح وتقريع ليس فقط من رفاقي فى العمل العام ولكن أيضا من الكثيرين من الدارسين البارزين الذى سمعوا ما يتناقل عن دورى وخبرتى التاريخية .

ولقد هممت مرات ومرات على مدى الخمسين عاما الماضية أن أبدأ فى كتابة هذه التأملات والذكريات ولكن شغلنى عنها تحديات ومعارك متصلة وهموم حياة لا تنقطع والحقيقة أن الوازع الأكبر والحافز الحاسم الذى ألزمنى بالبداية لم يكن فقط إحساسى أن الزمن لم تعد فيه قسمة ، وقد شارفت على منتصف السبعينيات ، ولكن ما ألمسه ويتألم له كل من معى وكل من حولى من خطر انقطاع التواصل للأجيال الناشئة بابعادها الوطنية والتاريخية والفكرية والخلقية ، وتقلص المشاركة والمصداقية والاقتناع وانعدام فرص وقنوات الخبرة والممارسة المتاحة لهم فى مجال العمل الوطنى الأصيل وقيمه وأساسياته .

ولقد عانى جيلى من قصور وقيود وعقبات لا يستهان بها ولكننا شرفنا وأثرينا بتواصل راسخ وفرص للممارسة الحميمة رغم كل الصعوبات والعقبات . وهذا هو التحدى الذى يهدف هذا الكتاب للتعامل معه تحدى إزاحة الركام والغمام عن الوجه الحقيقى لمصر التواصل والمشاركة والالتزام وفضح زيف وغربة وجه انقطاع التواصل الوطنى واستبداله بتواصل غريب ومقتحم مع ما يشيعه من زعزعة الانتماء

والالتزام وتطبيع الفردية والانتهازية والتفريط ، فكما أروى الآن لكل تلاميذى من الباحثين عن الحقيقة والمتطلعين للصحوة أن أكبر جرائم الواقع القائم التضحية بأجيالهم على مذبح الأخطاء والأهواء .

والحقيقة أن مرحلة التواصل مع التيار الثقافى للحركة الوطنية لم يكن مجرد ضرورة لتعميق إحساس العقيدة الوطنية وترسيخ جذورها فى مفاهيم وقناعات أكثر تبلورا ، ومن ثم الانتقال بى من مرحلة الصحوة الوجدانية إلى مرحلة الوعى والاستيعاب والقناعة العقلانية ، بل هو أيضا كان ضرورة على مسار نضوجى الفكرى وتنمية ملكاتى الذهنية التى ارتكز عليها كيانى ونشاطى الوطنى والإنسانى الدولى لأحقاب طويلة تالية ، وقد رسخت فى وجدانى تجاربى الشخصية أنه بدون الجهد والالتزام اللازمين لإحداث هذا التحول من الصحوة الوجدانية إلى مرحلة القناعة العقلانية فلا يمكن تفادى تخبط المواطن وتقلص فاعليته الوطنية . والذى مازال عالقا بذاكرتى أن اختيار الفرد وتطلعه ليس هو العامل الوحيد الذى يتحكم فى عملية التحول هذه ، ولكن البيئة الخاصة فى الأسرة والمدرسة والبيئة العامة فى المجتمع الكبير الوطنى كثيرا ما تكون تأثيراتها حاسمة سلبا أو إيجابا ، مما يملى على الناشئ عبء مقاومة سلبياتها والتحفز لانتهاز فرصها الإيجابية وهو عبء ليس بالهين فى هذه السن اليافعة ، وأتذكر كذلك إحساس الملح لضرورة التواصل واللقاء

مع الواعين بهذه الضرورة وأن تلمس الدرب فى فيافى التيه منفردا مدعاة للتعجيز والتيه ولكنى أيضا لمست فى سن مبكرة أن هذا التواصل والتفاعل مدعاة لمضاعفة اليقظة وتنمية القدرات النقدية والانتقائية ، فالتفاعل والتواصل لابد وأن يحملا فى طياتهما اختيار الرفض كى يحمل اختيار القبول ، ولعل تجاربي الفكرية قراءة ومشاركة فى النشاط الثقافى فى المدرسة كانت سعيا غير واع نحو هذه الغاية ، ورغم تعدد التأثيرات السلبية للمجتمع الصغير والكبير فلقد كان لهما إيجابيات أسدل عليها ستار النسيان الآن ولابد من إحيائها ، فلقد كان التواصل طبيعة أصيلة فى مجتمع هذه الأيام ، وكان كل كبير فى السن هو «عم» وكل كبيرة فى السن هى «خالة» مهما تفاوتت المراتب الاجتماعية ، وكان العلم موضع تبجيل واحترام تلقائى ليس من الجهلة فقط ولكن من المتعلمين ، ولم يكن العلم هو مجرد تأهيل مدرسى ولكن قناعة الناس بعمق الإدراك وسعة الإلمام والخبرة . أذكر فى مراحل الدراسة المختلفة أن الطلبة كانت تنظم شللهم على اعتبارات اجتماعية واقتصادية بل وجسدية ، ولكن التقدير للنضوج الفكرى كان يتخطى هذه الحدود وأذكر فى العائلة الكبرى التى حكمت العلاقات فيها السن والأجيال أنه كان مقبولا ومستساغا تخطى حدود هذا التصنيف الموروث على أساس اتساع المعرفة النافعة والفكر الثاقب ، وأذكر أن الألفة فى الفصل لم يكن يختار على أساس تحصيله لأعلى الدرجات الدراسية،

ولكن انضج الناجحين فكرا وشخصية ، وأذكر أن والدى الذى لم يوافق على مساعدتى على تعلم الموسيقى باعتبارها فى عرفه حرفة فيها مضيعة لوقت طالبى العلم لم يعارض إدمانى زيارة الكتبخانة ، ولا المشاركة فى النشاط الثقافى المدرسى ، وفرح لحصولى على جوائز المطالعة الصيفية وافتخر بها .

الباب الثالث

الالتحام والمواجهة

أ - ولادة الوعى

لقد كانت بداية مشاركتى فى المواجهة الوطنية سنة ١٩٣٥ مفاجئة ولا أذكر أن سبقها تخطيط أو تدبير .

ولقد كنت منذ سن مبكرة مغرما بقراءة الجرائد اليومية والمجلات التى تصل إلى يدى ، وكنت أولى عناية خاصة للأخبار السياسية الداخلية والدولية ، وحتى فى أيام الإجازة الصيفية حيث يصل الأهرام مع عائد من شربين بعد الظهر ، كنت أتتبع تنقله بين أيدى الكبار حتى استطيع استعارته ، وكان يزعجنى عدم وصوله وألح فى الوصول إليه إذا علمت أن العدد الذى فاتنى فى حوزة زائر آخر للمدينة عاد دون علمى .

ومن ثم فقد تفتح ذهنى على أزمة متصلة الحلقات تعتصر السياسة المصرية الداخلية وتكبل سياستها الخارجية .

وأولى هذه الذكريات المبهمة كانت عن حكومة اليد الحديدية التى يرأسها محمد محمود باشا سنة ١٩٢٨ ، ولم أكن أدرى مدلول تعطيل الدستور وحل مجلس النواب ، ولا إنقلاب محمد محمود على زملائه فى قيادة وفد ١٩١٩ وتواطئه مع السراى ولا دور التآمر بين السراى والإنجليز ولكن فى حدود إدراكى لما أسمع ويتردد فهمت اليد الحديدية على أنها ضربة موجهة إلى وجه مصر من أبناء لها أئتمنتهم ورجت على أيديهم الخير ، وانعكس علىَّ الأسى والغضب الذى أحسست به يغلى فى صدور الكبار ، ولم أكن أعى تاريخ انفصال

محمد محمود عن سعد زغلول سنة ١٩٢٩ بسبب رفضه لمشروع ملنر وتصريح ٢٨ فبراير الذى اعتبره سعد زغلول حماية مقنعة وإصراره على الاستقلال الحقيقى .

ولا أذكر الأحداث التى أنهت هذه اليد الحديدية عندما أقالت وزارة حزب العمال البريطانية الجديدة اللورد لويد المندوب السامى فى مصر ونصير محمد محمود وعرض هندرسون مشروع معاهدة جديدة اشترط الوفد وقف تعطيل الدستور لسنة ١٩٢٣ وإجراء انتخابات حرة غير مزورة بمعرفة حكومة محايدة وتولى حكومة الأغلبية المفاوضة ، ومن ثم لا أتذكر شيئا عن حكومة عدلى يكن التى أجرت الانتخابات فى ظل عودة الوضع الدستورى ١٩٢٩ ولا عودة الوفد برئاسة النحاس باشا فى أول ١٩٣٠ ولا فشل مفاوضات هندرسون التى حققت جزءا غير يسير من المطالب المصرية ولكنها فشلت عند صخرة تمسك بريطانيا بالانفراد بالسودان واسقاط كل الحقوق المصرية قبله .

ولعل أولى ذكرياتى الشخصية الواضحة فى ذاكرتى هى عن انقلاب إسماعيل صدقى فى منتصف ١٩٣٠ والذى تبع فشل مفاوضات النحاس هندرسون فى لندن ، تلك المفاوضات التى أمكن لهندرسون العمالى أن يتجاوب مع مطالب عزيزة لمصر ، بشأن إنهاء الاحتلال والاستقلال وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، والوصاية البريطانية المدعاة على الأقليات ، وتركيز القوات البريطانية حول الإسماعيلية ، وتحديد

عددها وضحى الوفد المصرى بكل ذلك فى سبيل مبدأ حقوق مصر فى السودان التى أخرجت منها تآمرا وقهرا بعد مقتل السردار .

ويرجع وضوح ذكرياتي عن هذه المرحلة ليس من منطلق ، توسعى في الإطلاع وتعمقى فى الفهم فقد كنت لا أزال طالبا فى المدارس الإبتدائية ، ولكن يرجع ذلك إلى ما تميزت به حكومة هذا الانقلاب من قسوة ووحشية وبجاحة واستهتار أصبغت على تصرفاتها شكلا روائيا ودراماتيكيا كان كافيا لجذب انتباه كل المواطنين بمن فيهم الصبية الصغار .

وكان أول هذه الأحداث الروائية المثيرة التى كانت موضع الحديث والتندر وغطت صفحات الصحف ، كان اقتحام النواب لأبواب المجلس الذى عطله صدقى وتحطيم سلاسله بمعرفة حرس البرلمان استجابة لأوامر ويصا واصف رئيس المجلس المعطل ، وأصبحت حكاية تحطيم السلاسل حكاية مثل الشاطر حسن ، تتناقلها أفواه العالم وغير العالم ببواطن الأمور ، وأخذت بتلابيب خيالى حيث إن السلاسل ارتبطت فى خيالى بسلاسل العبيد المقهورين والسجناء فى القصص الدارجة ، ومن ثم بدا لى تحطيمها ، بصرف النظر عن مدلولاتها السياسية التى لا شك فى أنها لم تكن واضحة لى ، عملا من أعمال البطولة والإقدام .

وثانية الذكريات كانت معركة المنصورة ، وهى حاضرة بلدنا «أبو جلال» والتى كانت تابعة لمديرية الغربية لوقوعها على الجانب الغربى

النيل إلا أن قربها من المنصورة جعلها حاضرتنا الذى نباشر فيها كل نشاطاتنا ونقضى حاجاتنا . وكانت هذه الأحداث فى يوليو أثناء الإجازة الصيفية ومن ثم أمكننى سماع قصتها من شهود عيان ، حيث امتلأت شوارع وحوارى المنصورة بأهلها وأهل الدقهلية وجزء كبير من الغربية ، بما قدره البعض بمليون شخص فى انتظار النحاس باشا وصحبه ، وكذلك بآلاف من جنود الشرطة المدججين بالسلاح ، ويبدو أن هذه القوة لم تفلح فى وقف الركب حيث اقتحمت سيارة النحاس باشا صفوف الجند ، ، فوجهوا إلى ركابها الطعن بالسونكى والرماح فأصيب سينوت حنا بك ونجيب الغرابلى باشا بطعون وسقط من الأهالى قتلى وجرحى ، وسالت دماؤهم على الأرض . وبقيت معركة المنصورة حديث ومجال محاورات ومجادلات كل الأهل طوال إجازة الصيف ، وزاد اشتعال الانفعال مذبحة الإسكندرية التى سقط فيها عشرات القتلى ومئات الجرحى بعد أسبوع من معركة المنصورة .

وتتبعنا سنة ١٩٣١ جولات النحاس ومحمد محمود الذى انضم إليه إلى طنطا عندما حول صدقى قطارهم إلى صحراء الصف فى الجيزة وبنى سويف عندما حوصرا فى المحطة ثم عودتهم بالسيارات ومحاصرتهم .

وفى هذه السنة ابتدأت الناحية الفكاهية فى المعركة السياسية وكانت موضع استغرابى ودهشتى وعجبى من تفاهة الكبار ، وكان

خالى عمدة لأحد كفور شربين وكانت أبو جلال تابعة لهذه العمديّة التى كانت تعتبر أكبر عمديّات مصر مساحة وسمعت قصص زيارات صدقى لمدن الأرياف ، وكان مفروضا على كل عمدة إحضار أعداد محددة لمحطات الزيارة ، ولم يقبل الأعيان ولا المتعلمون المشاركة ، وعليه ألبس الخفر والصيارفة وحلاقين الصحة ما أمكن تدبيره من ملابس شبيهة بالأعيان وحشدوا فى محطات الزيارة حسب حصة كل عمدة ، ثم أسرع بنقلهم بالسيارات لاستقبال دولة الباشا لإكمال حصص مأمورى المراكز ومديرى المديريات الذين حشدوا موظفيهم وجنودهم بالملابس المدنية ، وكان دولة الباشا والمسئولون والفلاحون والمستقبلون والأطفال يعلمون بالمسرحية الفكاهية سيئة الإخراج والمنظر وكنت حتى هذا الوقت أتصور أن أمور الأمة يدبرها كبار ، وقد يكونون غلاظا ومعتدين ومغتصبين ، ولكن تصورت أنه لابد أن يكونوا جادين وقورين ، ولكن تبين لى أن جسامة أزمتنا الوطنية لا يعبر عنها أكثر من أن بعض ساستها لا يرقون إلى اتزان وحياء الصبية العاقلين .

وكانت فضيحة تزوير الانتخابات ، والتى بلغت حدا من البجاحة والاستهتار وانعدام الحياء لم نسمع به ولم يفعله ريفى فى يوم من الأيام ، فقد قدم العمد والمشايخ استقالاتهم وتعرضوا للقبض والحبس والغرامات المرهقة ، ولا يقدر خطورة هذا التصرف إلا من تربى على

تكالب الريف على هذه المناصب التى لا تعتبر فقط مصدر سلطة ، ولكنها عنوان جاه العائلة وعلامة كرامتها وامتداد لتراثها .

ثم كانت مذبحة البدارى التى فضحت عفن وانحطاط الحكم البوليسى الدكتاتورى ومن ناحية أخرى ورغم هذا البلاء ، فكما كسر حرس البرلمان سلاسل اليد الحديدية أمام محمد محمود ، تعرضت محكمة النقض والابرام برئاسة عبد العزيز فهمى باشا للقتل والاعتداء والاغتصاب بالزجر والتجريم ، فكانت هى وحرس البرلمان والعمد والمشاريخ مؤشرات صارخة على سلامة البنيان الوطنى وأصالة إنسانه ، كما كان الزعماء المدافعون عن حقوق الأمة ودستورها برئاسة النحاس باشا والغالبية الساحقة من الشعب المقهور .

وأنا وأن كنت أتذكر الفرحة التى صاحبت انقلاب الملك على صدقى فى سنة ١٩٣٣ وبداية انفراج الأزمة الاقتصادية العالمية والمحلية ، فإنى لا أتذكر تغيير المندوب السامى السير برسى لورين الذى خطط لانقلاب صدقى ، والذى كنا نطلق عليه «السير برأسى لورا» كما لا أتذكر شيئا عن وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التى سحبت البساط من تحت قدميه وكان يحيى باشا نائب رئيس حزب الشعب الذى اخترعه صدقى باشا وزور باسمه الانتخابات . وانهيار مقاومة صدقى لطعنة السراى وانصاره فى الحزب ، تولى يحيى باشا رئاسة الحزب المزعوم

لحساب السراى رغم أنى كنت قد انتقلت للأقامة بالقاهرة وبدأت دراستى الثانوية .

وأنا استدل من هذا أنه لم تتولد عندى اهتمامات سياسة فى هذا الوقت ، وأن إنشغالى واهتمامى كان وطنيا بحتا .. وأظن أن المعلومات والإلمام بالخلفيات والأساسيات لم يكن قد تربى عندى ، ومن ثم لم يكن الاطلاع والدرس هو مدخلى ولكن أظن أن مدخل نمو إنتمائى الوطنى ويقظة ضميرى الوطنى كانت انعكاسا وتفاعلا مع توجهات وانفعالات مجتمعى الصغير فى العائلة والكبير فى الأسرة والشارع ولم يكن أيهما مصدر علم ودراسة ولكن كان كلاهما جياشا بالمشاغل والانتماء الوطنى . وقد بقى المجتمع الكبير بانشغالاته وإنتماءاته معلمى وملهمى فى كل حياتى ، حتى بعد أن تقدمت بى السن اتسعت وتعمقت دائرة المعارف ، وملكت ناحية الفكر والنظريات السياسية المعاصرة بحيث أصبحت خبيرا لها فى الدول المتقدمة نفسها . وأظن أن ذلك كان الأساس الذى ميزنى مع آخرين بالقدرة على تطويع الفكر والنظرية السياسية لخدمة التجربة والممارسة الوطنية .

ولقد أكدت أن ذكرياتى هذه ليست تأريخا لمرحلة سياسية ، ولكنها جماع وحصيلة معايشة وممارسة وتفاعل مع مجتمعى الصغير ثم الكبير فى مصر ثم الأكبر على إبعاد الكرة الأرضية . والمكتبة المصرية والعالمية غنية بالدراسات السياسية والتاريخية ولا شك أنها

ستزداد ثراء وغنى على مدى الأيام والمكتبة العالمية لا حدود لثرائها فى هذا المجال ومن ثم لا ضرورة لها وأن نقحم نفسه على المتخصصين .

والمكتبتان ثريتان بالسير الذاتية لأولئك الذين حظاهم الله بنعمة حياة يصح أن تكون مجالا للتمعن والاستفادة أو مثالا للتنور والاتعاظ ، وأنا لا أظن حياتى كانت من هذا النوع ومن ثم فأنا لا أدون سيرة ذاتية ولا أقحم على القارىء تجاربى ومشاغلى وأحداث حياتى الذاتية ، ولكن حياتى تميزت بصحوة مبكرة ونضوج متواصل لضمير ووعى وطنى شاءت العناية الالهية أن تمنحنى السمع المرهف والنظر الثاقب لاستيعاب عطاء المجتمع بأفراده وجموعه ويقظة ودأب وإلحاح الأيام والشارع على تغذيته وإنمائه . وأظن أنى كنت فريدا فى سعادة طالعى أن أكون مستقبلا لكل هذا الثراء والعطاء وأظن أنه كان إطارا فريدا استطعت أن أسقط فيه الحصيلة المتراكمة التى أسعدنى حظى من العلم والمعرفة فى مصر وفى أنحاء العالم لتحصيلها والأضافة إليها وهذه النعم هى التى اسعى لمشاركة القارىء فيها ولفت الانظار إلى كنوزها خاصة للأجيال الجديدة التى أظن أنها حزمت من هذا الفضل العظيم الذى كان وأظنه سيظل أبدا وجه مصر الأصيل أصل الحضارة الوطنية والإنسانية والتى كانت دائما ومازالت قمة فخرى واعتزازى .

ب - بداية الالتحام

ومن حيث إنى كنت مجرد متـابع وملاحـظ للأحداث الجـارية حولى ، حتى وإن كـان ذلك بعنـاية ومثـابرة فأظـن أن أحداث ١٩٣٥ كانت منبهـا ، وحافزا لى لتقليب الرأى والتـأمل فى المستقر الطبيعى الذى يبدو أن تواصـلى وانشـغالى بالأحداث العامة لابد وأن يقودنى إليه .

ولأسباب لا أستطيع تفصيلها ، لم يكن يستهوينى الاشتراك فى المظاهرات أو الهتاف ولا فى الجدل الصاخب الذى يدور بين الطلبة والمعـارف ، والذى لا ينظمه منهج أو تقوده غاية .. وكان بعض الطلبة يدعون انتمـاءهم لأحـزاب معينـة ويتجاوبون مـع توجهاتها ، ورغم أن منحى عائلتى العام كان وفـديا فلم يكن لهم ارتبـاط نشط فى غير أوقات الانتخابات ، والتى كان يبدو أن اعتبارات العزوة والارتباطات الأسرية هى محرك أساسى لها بدليل تحرك العائلة بجموعها فى صفوف موحدة ودون إلمام أو تمحيص للظروف الموضـوعية . ولم يكـن النشـاط الثقافى فى المدرسـة مسـموحا له أن ينحى منحى سياسـيا ، ومن ثم بدا أن البحث عن باب الولوج أمر معقدا .

وفى ١٩٣٤ حدث تفسيران مؤثران استدعيا أن تعيد بريطانيا

حساباتها لرسم سياسة تتعامل مع هذه المتغيرات ، وأول هذين المتغيرين وأهمهما كان صعود الفاشـية وربيبتها النازية فى أوروبا وتحفز موسـولينى فى ايطاليا لالتهام الكعكة الامبريالية ، ليأخذ لنفسه نصيبا على الشـاطىء الجنوبى للبحر الأبيض فى ليبيا ، والقرن الأفريقى ، الحبشة والصومال واريتريا ، وبالتالى بتر خط الحياة للأمبراطورية البريطانية إلى الهند والثـانى كان إصابة الملك فؤاد بمـرض خطير وليس له ولى عهد إلا صتبى يافع لا يمكـنه أن يجـابه مع بريطانيا مخاطر حرب عالمية محتملة ولا استمرار نجاح المؤامرة على حكم الدستورى الشعبى وكبت حركة الاستقلال واسترجاع السودان .

وكان الملك (المريض) قد انفرد بالسلطة منذ إلغاء دستور ١٩٢٣ أو تعطيله طوال مدة تزيد على خمس سنوات .

وكان للمرحلة رجالها ممثلين فى المندوب السامى الجديد السير مايلز لمبسون (فيما بعد لورد كيلرن) والمستر بينرسون المندوب السامى بالنيابة فى غياب لمبسون للزواج فى بريطانيا .

ولم يقبل الملك طلب بريطانيا ، اختيار قائمقام للملك فى حالة تدهور صحته إرسال ابنه فاروق للتعلم فى بريطـانيا ، ولكن كترضية عين أحمد زيور باشا صديق الإنجليز وقائد أول انقلاب على الدستور سنة ١٩٢٤ رئيسا للديوان الملكى .

وعين محمد توفيق نسيم باشا رئيسا للوزراء ، وكان المفروض أنه على علاقة طيبة بالوفد ، وهو فى نفس الوقت رئيس سابق للديوان الملكى فهو إذن رجل السراى . وقد وافق النحاس على تعيينه ، وكان أول قراراته إلغاء دستور ١٩٣٠ فى نوفمبر ١٩٣٤ وحل المجلسين المترتبين عليه واللذين زورهما صدقى باشا ، وسارت المظاهرات ترحيبا بالتغيير وخطب النحاس مرحبا به أيضا ، وإن كان الملك احتفظ لنفسه بالحق فى وضع نظام دستورى بديل وممارسة السلطة التشريعية حتى يتم ذلك .

وكان الشعب ، ومن ورائه الوفد ، قد رحب بنسيم على أمل أن يكون خطوة انتقال للحكم الشرعي وعودة دستور ١٩٢٣ وكان اتجاه الملك ونسيم هو إدخال تعديلات على دستور ١٩٢٣ لا شك بقصد تقليص سلطات الشعب ، وكان اتجاه الانجليز الموافقة على ذلك ولكن التمهل والتأجيل استدعتهما مقتضيات السياسة البريطانية فى ظل حرب الحبشة واحتمال توسع المواجهة مع الفاشية .

ورغم ما كان واضحا من دور نسيم باشا فى المماطلة فقد اتجه الوفد للمهادنة باعتبار نسيم أخف الأضرار مقارنة بمحمد محمود أو صدقى ، خاصة وأن بريطانيا كانت تحشد قواتها فى مصر لمجابهة هجوم موسولينى على الحبشة ، دون اتفاق أو معاهدة مع مصر تضمن استقلالها . وقد حاول الوفد تقديرا لضغوط الأزمة العالمية أن يدفع فى

سبيل عودة الدستور وتوقيع المعاهدة باظهار الرغبة فى التفاهم الهادىء مع الانجليز ، ومن ثم استمر رغم الغضب العام فى تأييد نسيم باشا .

وبدأ صحفيون معرفون بوفديتهم يهاجمون وزارة نسيم مثل روز اليوسف والعقاد رغم ضغط الوفد ، ورورجت الإشاعات أن النحاس بعد المعارك الطويلة وزواجه الحديث قد لانت عريكته ومال إلى المهادنة ، وتفاقمت الخلافات والجدل والخصومات حتى بين الوفديين أنفسهم حتى وصلت إلى مضيفة «أبو جلال» .

وبدأ غزو إيطاليا للحبشة يوم ٣ أكتوبر مما حدا بالمندوب السامى إلى التغاضى عن كل الحساسيات المصرية والأمر بتوزيع الجيش المصرى على نقط الحراسة ، وعقد مجلس الحرب من القادة الانجليز للقوات البريطانية ، وسفنكس باشا المفتش العام للجيش المصرى وهو ضابط بريطانى .

كما أصر المندوب السامى على سفر ولى العهد فاروق إلى بريطانيا لتلقى العلم على الطراز البريطانى ديفونشير ومعه أحمد محمد حسنين بك رائد أمير الصعيد ونائبه اللواء عزيز المصرى .

واشهارا لتولى المندوب السامى للأمور يقرر عمل استعراض عسكرى للجنود والبحارة البريطانيين فى الاسكندرية ، ويقرر سفنكس باشا مشاركة الجيش المصرى فى الاستعراض كدليل على دخول مصر

المعركة فى ركاب بريطانيا دون اتفاق أو معاهدة أو اقرار من مجلس نيابى منتخب يوم ١١ أكتوبر ، تأكيدا أن بريطانيا عندما ما يشغلها غير دستور ٢٣ ومعاهدة الاستقلال .

ويلغ السخط الشعبى حدا لم يعد من الممكن أن يظل الوفد فيه فى أحلام المهادنة وكان الاحتفال بعيد الجهاد يوم ١٣ نوفمبر يبدو أنه الفرصة الأخيرة للوفد للم شمل صفوفه وانقاذ زعامته .. وسارع الأحرار الدستوريون بعقد اجتماع يوم ٧ نوفمبر لقطع الطريق على النحاس وحمل محمد محمود حملة شعواء على وزارة نسيم واستسلامها وتدخل الانجليز وطالب بإعلان الدستور وإعادة الحياة النيابية (التى كان تاريخ محمد محمود أبعد من أن يكون مشرفا بالنسبة لها) .

وأرى لزاما أن أتوقف عند انشغال وانفعال الشارع والقرية المصرية بالأحداث ، وعلينا أن نتذكر أن عدد المتعلمين الأفندية كان محدودا ولم يكن الراديو والتليفزيون كأداة إعلام فعالة قد وجدت ، فالإذاعة لم تبسط سيطرتها على الأذن المصرية إلا خلال الحرب العالمية الثانية ، حينما أدمن كل المصريين متعلمين وأميين متابعة الأحداث العالمية والداخلية من الإذاعات العربية للحلفاء ودول المحور ، حتى أصبح كل مصرى خبيرا بمجارى الأمور ، ومتفقها فى تبنى الاختيارات من الادعاءات المتضاربة للأطراف حسب منطقه وحسب أهوائه ،

وانعقدت فى فناء كل مدرسة ومقهى ومصطبة وصالون حلاقة ومندرة حلقات المناظرة والمجادلة ، حول مجابهة «الحاج هرقل» والخواجة تشرشل وصبيانهم وجيوشهم وربطها بأحداث توزيع الأدوار ومؤامرات المندوب السامى والسراى والحكومة وأغنياء الحرب ومفسديها وفرائسهم من ضحايا الحكم العسكرى وضحايا الحصار البحرى من جموع الشعب .

أما فى ١٩٣٥ فكانت الفئات المتعلمة هى عيون الشعب وآذانه ، ولم تكن ظاهرة التفاف السامعين والمستفسرين حول قارىء الصحيفة أو المجلة ظاهرة عابرة ، ولكنها كانت علاقات ثابتة متعارفا عليها ، وكان لكل قارىء مريدوه وبطانته ولتعدد مصادر المعلومات من جرائد ومجلات حزبية أو تجارية فكان اختيار القارىء وجريدته يعكس توجه السامع وولاءاته . ولما ظهرت المعارضة بين صفوف الوفد ممثلة فى روز اليوسف والعقاد وحملتهما على وزارة نسيم ، رغم حماية الوفد وتعرض جريدة الجهاد للرد أصبح مألوفا سماع الرأى ثم سماع الرأى المعارض ، إما رغبة فى التنور وإما لتسفيه الرأى المخالف لاقتناع وتوجه القارىء والسامع .

وكان انشغال الناس بفئاتهم المختلفة وأعمارهم المختلفة وانفعالهم عميقا وحارا وجديا بحيث تحس بأنهم ليسوا مجرد مشاهدين أو باحثين عن التسلية ولكنهم مهمومون بأمور تتعلق بصميم

حياتهم وتراثهم ومستقبلهم ، وظهر لى أن الاهتمام بالمتابعة وحرارة الخلاف على تفسير الأحداث كانا تعبيرا عن مشاركة وتأكيدا لحقوق ومسئوليات .

وكانت هناك توجهات وثوابت عند قطاعات عريضة من الشعب ، يبدو أن منطق الأحداث غير قادر على التأثير فيها ، فكان هناك ارتباط وثقة متوارثة بخليفة سعد زغلول تلزم باستقراء الأحداث فى إطار هذه الثوابت ، وكان هناك رفض وشك بالملك فؤاد دفين ليس في حاجة إلى دليل أو تأكيد ، كما كان هناك رفض موازٍ للنحاس من أسر كبار الملاك المنطوية تحت لواء الأحرار الدستوريين ، والمرتزقة من أنصار حزب الشعب الذين فقدوا الأمل فى استرداد مصداقيتهم بعد تواطئهم مع صدقى باشا ، وكلهم يشعرون بأن عودة الوفد ليس فيها قضاء على أحلامهم ومعاشاتهم ،ولكن قد تكون على كيانهم ووجودهم ، وكانوا سعداء بمهادنة سياسة الوفد وبداية الانشقاق فى صفوفه خاصة بين المثقفين . أما الانتماء للوطن والطهارة الوطنية والتصدى للإنجليز فكانت من الرواسخ التى يتسابق الجميع فى افتراضها في نفسه دون حاجة لتأكيد أو برهان .

وكان هذا التوفق الوطنى بالانشغال والانفعال له أبعد الأثر فى نفسى فلم يعد الانشغال بالقضية الوطنية مجرد تعبير عن نباهة

فكرية أو انعكاس لدرجة من النضوج والتنور ، ولكن سرعان ما أصابتنى عدوى الشارع المصرى من انشغال كشريك وصاحب حق أصيل في الحقوق والمسئوليات الوطنية .

وأظن أن هذا التطور كان أحد منعطفات حياتى المهمة ومرتبة من مراتب نضوجى وتوثيق وروابطي وانتماءاتي الوطنية .

ورغم عزوفى عن الانتماءات الحزبية ، وعدم إلمامى بتفاصيل الخلافات ودوافعها فقد شعرت بتعاطف مع العناصر الوفدية الضاغطة على النحاس للعودة إلى صلابته التقليدية ، وإن لم استسغ التطاولات الشخصية التى صبغت بعض كتاباتهم ، إلا أنى احترمت شجاعتهم لأن معارضة الوفد كانت فيها مخاطرة انتحارهم السياسى .

وفى يوم ١٠ نوفمبر جاء تصريح هور (يسقط هور ابن الطور) ، وكان ، كتصرفات متتالية سأتعرض لها على مدى ذكرياتى ، يؤكد أن القوى الاستعمارية مهما كانت كفاءة أجهزتها فهى فى نهاية المطاف غير قادرة على استيعاب توجهات الشعوب المستعمرة . فقد وصفت حالة البلبلة والشكوك وترامى الإشاعات وتضارب التفسيرات حول عودة الدستور وتوقيع المعاهدة وعدم استسلام الحكومة المصرية لمطالب بريطانيا العسكرية المترتبة على هجوم الفاشية الايطالية . وقد شاعت العنجهية البريطانية أن يقوم هور

وزير الخارجية البريطانيـة بتأكـيد كل الشكوك والمخاوف الشعبية ، وهذه مقتطفات من تصريحه .

«مصر تلبى بكل طيبة خاطر دواعى الواجب بروح التعاون الحر والشعور الودى ، ولا يمكن هذا العمل إلا أن يعود بالفائدة على حكومتينا عند حلول الموعد لوضع علاقاتنا على أساس مرض للفريقين .. أجل إننا عندما استشارونا أشرنا بعدم إعادة دستورى ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٠ ، مادام قد ظهر أن الأول غير صالح والثانى لا ينطبق على رغبات البلاد» .

وهكذا فضـح هـور تواطؤ نسـيم والسـراى مـع بريطانيا عـلى عدم عـودة دسـتور ١٩٢٣ وتأجيل المعـاهدة (عند حـلول المـوعـد) والاستجابة لكل الأعباء العسكرية لبريطـانيا بروح التعاون الحر والتعاون الودى .

ومن ثم فقد وضع حدا للبلبلة وأكد الاشاعات ووضع الجميع ، سلطة ومعارضة ، أمام خيارات مرة تجهض كل أحلام الشعب ومطالبه ، ولم يترك هامشا بين التواطؤ والمقاومة تحت أى مبرر أو ستار .

وعليه ففى ١١ نوفمبر ، وفى جو من الغضب والهجوم والتذمر ، بدأ اجتماع القيادة الوفدية بمستوياتها .

واحتشدت الاجتماعات فى الجامعة والمدارس للتنديد بالسياسة البريطانية وأصدرت اللجنة التنفيذية العليا التى تمثل مجموع القيادات

الحزبية نداء وطنيا يوم ١١ نوفمبر ، اتفق فيه على الدعوة إلى الجهاد لتحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان والاحتفال بعيد الجهاد ١٣ نوفمبر .

.. واجتمع مستر كين بويد من دار المندوب السامي مع الضباط والكونستبلات الانجليز في وزارة الداخلية المصرية ، وقرر الاستعانة بالجيش لكبت أى تحرك شعبي .

وكان احتفال الوفد بعيد الجهاد سيتم في الساعة الخامسة مساء ، ومن خلاله سيلقى النحاس قرارات الوفد التي تسرب مضمونها بالحزم والمجابهة .

ولكن الطلبة لم ينتظروا نداء رئيس الوفد ، فمن الساعة الثامنة صباحا خرجت مظاهراتهم من الجامعة والمدارس الثانوية والمتوسطة والمعاهد الأزهرية في القاهرة والأرياف وحدثت مصادمات دموية بينهم وبين قوات الأمن سقط فيها قتلى وجرحى ، وهاجموا القنصلية البريطانية قرب جامع جركس واشترك الجنود البريطانيون من قشلاق قصر النيل (موقع هيلتون النيل الآن) والقنصلية البريطانية في الاعتداء على الطلبة ، وحدثت مصادمات عنيفة في ميدان عابدين والعباسية والظاهر والأزهر ، وكانت العادة أن تتجه المدارس الثانوية والمتوسطة من منتصف المدينة إلى الجامعة للمشاركة مع مظاهراتها ولذا كانت الحشود تعد بالآلاف ، ونقل

المصابون بالعشـرات إلى المستشفيات وقبض على الكثيرين .

وقد قامت مدرستى التوفيقية الثـانوية بمظاهرة أيضا ، ولم تكن هذه المدرسة بارزة فى الرياضة أو العمل السياسى مثل المدارس الثانوية فى منتصف القاهرة ، وكانت شهرتها فى ارتفاع مستواها الدراسى ، ولم تخرج المظـاهرة إلى وسـط البلد كما طالب بعض الطلبة ولم تحدث مصادمات دامية مع قـوة الأمن فيما عدا بعض العصى التى أصابت عددا قليلا . ولم يكن لى أى دور قيادى فى هذه الأحداث وفى النهاية جاء بيان الوفد فى اجتماعه الضخم قرب بيت الأمة ليحدد :

١ - عدم التعاون مع الانجليز ما استمر اعتداؤهم على الدستور والاستقلال .

٢ - المطالبة باستقالة وزارة نسيم باشا

٣ - مقاومة أى وزارة تتواطأ على تعطيل الدستور

٤ - أنه اتفق مع نسيم على تقديم المطالب المصرية للحكومة البريطانية يوم ١٨ أكتوبر .

وهى أن تتولى مصـر الدفاع عن حـدودها وأرضـها بنفسـها وتوقـيع المعاهدة وتحقـيق الاسـتقلال وإنهـاء الامتـيازات الأجنبيـة ودخـول مصر عصبة الأمم .

وهاجمت القوات البريطانية بقيادة لوكاسى الاجتماع واقتحمت بيت الأمة وقتل عامل وجرح مائة واعتقل ٢٢٠ من الحاضرين الذين وفدوا من الأقاليم ومختلف أحياء القاهرة .

ورغم الخسائر الكبيرة والاعتداءات الوحشية التى تعرض لها الطلبة يوم ١٣ نوفمبر خرج الكثيرون فى مظاهرة عارمة تلقائيا ، وهاجمها الضباط الانجليز بالرصاص عند كوبرى عباس ، وأصيب الكثيرون وسقط شهيدان واغتصبت القوات جثة أحدهم وهو من الاسكندرية ، لدفنه هناك .

وصدر قرار بغلق الجامعة وتعطيل الدراسة لمدة ١٠ أيام ، وفى ١٦ نوفمبر قامت دار العلوم بمظاهر عارمة وسقط جرحى وشهيد جديد ، ثم شعيت جنازة أحد شهداء الجامعة المرحوم محمد عبدالحكيم الجراحى ، وظل يعالج سكرات الموت خمسة أيام ، واشترك فى تشييع الجنازة مصطفى النحاس باشا وإسماعيل صدقى باشا وحفنى محمود أخو محمد محمود ممثلا لأخيه وأحمد ماهر وغيرهم من الزعماء وجموع من الطلبة وحشود من الهيئات العلمية والسياسية والاجتماعية والنقابات وجموع الشعب من كل أنحاء القاهرة.

قوّت هذه الجنازة الدعوة الى الوحدة والائتلاف لمجابهة الأزمة ، وظهرت تلقائية التحرك الشعبى والاخذ بزمام المبادرة ليس فقط من أحداث مظاهرات الطلبة وتضحياتهم ولكن من المشاركة التلقائية

العامة لجموع الشعب .. وقرر مديرو الصحف المصرية الاحتجاب عن الظهور يوم ٢١ نوفمبر ونفذ الاضراب بالاجماع، وأضرب التجار الوطنيون وأغلقوا محالهم في القاهرة ، والاسكندرية وبلدان عديدة فى سائر الانحاء ، واستمرت المظاهرات والمصادمات واشتركت فيها الطالبات ولم يسلمن من اعتداء قوات الأمن.

وهكذا عايشت انفعال وتحرك الأمة التلقائى بعد ما بدا من موات وجمود الرأى العام، وتولى الشعب قيادة الزعماء والاحزاب التى يبدو أنها حاولت التعلق بأذيال التحرك الشعبى والتمسح بطوفانه والجرى وراء انطلاقاته.

واستمر نمو المطالبة بالائتلاف والوحدة ، رغم تحفظ الوفد ، وحاول محمد محمود ركوب هذا التيار وأيده حمد الباسل باشا رئيس الوفد السعدى المنفصل عن الوفد ، ولم تحفل أحزاب الاقلية بعودة دستور ١٩٢٣ أول مطالبها بعكس الوفد الذى جعل عودة الدستور أول شروط الاندماج . وانتقل هذا الخلاف الى صفوف الطلبة وظهرت الثغرات الحزبية فى كثير من المستويات ، وحاصل ذلك الخلافات الحادة فى مؤتمرهم ٣٠ نوفمبر فى كلية الطب وانسحاب بعض الطلبة من الأحزاب ، وانقسام صفوف الطلبة الى حد المطالبة من البعض بفتح الجامعة والتخلى عن الجهاد وانشقاق بعض المعاهد مثل الأزهر عن اللجنة التنفيذية التى تعكس الخلافات الحزبية .

وعادت البلبلة والانشقاق واليأس والقنوط وتحدثت الجرائد البريطانية بتشف عن شيوعه بين الزعماء والطلبة .

وابتدأت المظاهرة الحزبية تهاجم الأحزاب الأخرى وامتد هذا الشقاق الى المدارس والمعاهد.

فى مقابل هذا التدهور ومابدا من انهيار الحركة الوطنية ، قامت العناصر المستقلة غير الحزبية من الطلبة بضغط مركز بعد صدور تصريحات بريطانية بالاصرار على موقفها ، واخطرت العناصر الحزبية فى اللجنة التنفيذية العليا للانضواء تحت لوائها ، واصدروا قراراً بالمطالبة بتكوين جبهة وطنية موحدة وتحقيق المطالب الوطنية باستقلال مصر والسودان وعودة دستور ١٩٢٣ ، وذلك بتاريخ ٧ ديسمبر.

وقد أشار بيان الطلبة الى تصريح هور الثانى فى نفس اليوم ١٦ ديسمبر الذى أكد فيه استحالة أن تدخل بريطانيا فى مفاوضات لتسوية المسألة المصرية أو تحديد تاريخ لبداية مفاوضات المعاهدة في ظل مشاغلها فى حرب الحبشة ، وأكد أنه ليس معنى هذا أن بريطانيا لا ترى أن حل المشكلة غير ممكن ولا أن التأجيل هو الى مستقبل مظلم بعيد .

وعقب ذلك أقيم نصب تذكارى للشهداء فى حرم الجامعة واشترك مدير الجامعة أحمد لطفى السيد فى الحفل وانطلقت

مظاهرة ضخمة نحو كوبرى عباس الذى فتحه الانجليز ، وأغلقه طلبة الهندسة ، وعبره جزء من المظاهرة رغم الحشود برئاسة الضباط الانجليز الذين أصيب منهم لوكاس ونويل بجروح فى المصادمات العنيفة التى انتشرت ، ونزل الحكمدار الانجليزى لقيادة المعركة ، وبدأ حرق وسائل النقل العامة ومصابيح الانارة فى نواح كثيرة ، وسقط الكثير من الجرحى ، وعمت الفوضى وتجاوب الأهالى مع الطلبة.

وصدر قرار بإغلاق الجامعة فى ديسمبر من نسيم باشا ، وأصدرت وزارة المعارف بلاغا رسميا أعلنت فيه أولياء أمور الطلبة أنها تعتزم فصل كل طالب يضبط فى مظاهرة أو ناد غير خاص بالطلبة ، كما أنها تعتزم فصل كل طالب يضرب عن تلقى الدراسة ، وأطلق كونستبل انجليزى النار على طالب يوم ٩ ديسمبر عندما توجهت المظاهرات لحضور المؤتمر المعلن عنه.

وكانت مشاركتنا فى مدرسة التوفيقية تتأرجح حسب تصاعد هذه الحركة وهدوئها ، وكانت المظاهرات تنحصر داخل المدرسة أحيانا وتخرج إلى شوارع شبرا أحيانا ، وكان عبور كوبرى شبرا إلى وسط البلد يمثل نقطة حصار حصينة من قوات الامن.

وفى يوم ٩ المذكور تجمع الطلبة منذ الصباح الباكر وهم عازمون على المشاركة فى المؤتمر المزمع عقده ، وكان هناك اتفاق مع طلبة

شبرا الثانوية وفاروق الثانوية بروض الفرج للالتقاء بشارع شبرا للخروج فى قوة موحدة للوصول الى وسط البلد.

وكانت مدرسة التوفيقـية فى هذا الوقت مقسمة إداريا الى حوشين:

حوش للطلـبة الكبار السـتة والرابعـة والخامسـة ، وحـوش الطلبة الاصغـر اولى وثانيـة وثالثـة ، وكنت أنا ألفـة لهذا الحوش الاخير ، وتجمـع رجال الشـرطة على باب المدرسة منذ الصباح الباكر ، وأخـذ حـوش الكبار فى الهتـاف والتحـرك للخروج والناظر والمدرسون يحاصـرونهم لمنع الخـروج ويذكرونهم بقرار الوزارة بالفصل.

واحتشدنا نحن فى حوش الصغار ولم نستطع أن نجارى الكبار فى علو هتافاتهم ولكننا بدأنا فى التحرك نحو باب المدرسة للخروج وأسرع ناظر المدرسة والمدرسون لاحتوائنا ، وتوجه الناظر نحوى شخصيا وطلب منى المساعدة على إدخال الطلبة الى الفصول وأكد لى أنه على غير استعداد لأن يسمح للعيال الصغار بتعريض أنفسهم للخطر والفصل وأمر بإغلاق الباب الداخلى للحوش.

وتجـمع بعـض الطلبـة حـولى وابدى بعضـهم الامتعاض من وصفهم بالعيال الصغار، وعتب علىَّ أحدهم أنى لم أرد على الناظر على هذه الإهانة واكتفائى بأن ذكرته أن الاسهام فى العمل الوطنى هو واجب على المواطنين من كل الفئات والأعمار، وأن حماس الطلبة

وإصرارهم لا يدع مجالا لفاعلية تدخل فرد أو أفراد في إلزامهم بتصرف معين .

وكانت أجابتني أنه ليست مهمة الناظر أو الالفة التحكم فى تعبير الوطنيين عن وطنيتهم ، فلما وجدت منهم حماسا واصرارا على الخروج تقدمت صفوفهم ، وخرجنا مع الآخرين فى مظاهر صاخبة، والتقينا بطلبة المدارس الأخرى ولم تحصل إلا بعض المصادمات الخفيفة مع قوات الأمن التى فى الغالب اكتفت بحصارنا ومنعنا من المضى نحو وسط المدينة.

ومن الواضح لى إننى لم أذهب الى المدرسة وأنا أفكر فى دور خاص لنفسى أو تولى زعامة وانى لم أخطط للخروج عن دور المشاركة والتأييد للاسهام الوطنى ، وإحساسى أنى حتى بعد أن تقدمت الصفوف وخرجنا للخارج لم أشعر أنى أقتحم مجالا جديدا أو انتقل إلى مستوى بطولى فى العمل ، فقد كان تقدمي للصفوف هو مظهر تقليدي وتنظيمى للصفوف ، هو امتداد لعلاقة توافقية بينى وبين زملائى .

ولما عدت للمنزل اعتبرت اليوم انتهى بالتوفيق ولم يخطر على بالى ان يكون نقطة تحول .

وفى صباح اليوم التالى توجهت للمدرسة وأنا مستعد لاستمرار تكرار الأحداث على النمط الذى سلكته منذ بداية العام الدراسى ،

وليس بالضرورة بنفس حدة الأمس .. وفوجئت بجموع الطلبة تنتظرني على باب المدرسة لتخبرني بتعليق قرار فصلى من كل المدارس الثانوية والمدارس الاميرية على باب المدرسة وأن قوات الأمن ستمنعنى من الدخول ، وكان أول رد فعل لى هو رغبتى فى التوجه الى الناظر لمناقشة هذا القرار العدوانى ، ولكنه اتضح أن القرار صادر من وزير المعارف، وفيه أكثر من ثلاثين اسما من مدارس الوزارة المختلفة وليس للمدرسة أو الناظر سلطة عليه.

وأتذكر بوضوح مدى الصدمة التى لبدت فكرى بالغيوم ، فقد كان قرار الفصل كما يبدو دائما ونهائيا وهو فصلى من أسرة هى جزء من كيانى ووجودى ومحور لحياتى ، ولم أفهم منطقه أو مبرراته ولم أعرف لنفسى مخرجا أو مسلكا للتعامل معه ، وكان بيان الفصل بالأسماء قد نشر فى إحدى جرائد المعارضة ، وأتذكر أنى أمضيت اليوم كله أتمشى فى الشوارع ولم أرجع إلى المنزل ، وحين رجعت لم أقو على مصارحة اسرتى بما تم .. كانت خشيتى أن يقرأ والدى اسمى فى صحيفة المعارضة التى أفادنى زملائى بنشرها الأسماء ، ولا أتذكر أنى سعيت لشراء نسخة منها فى أغلب الظن حتى لا تكون طريقة لتوصيل الخبر إلى أسرتى.

وفى ثانى يوم توجهت للمدرسة يداعبنى حلم أن ينتهى الكابوس وأن تعود المياه إلى مجاريها ، وقابلنى الطلبة بكثير من العطف

والصداقة والاعزاز، ثم أمضيت اليوم فى السير فى الشوارع، وتوجهت لوسط البلد لأعاصر الأحداث.

وكان فرج الله قريبا ، ففى يوم ١٠ ديسمبر ظهرت أخبار موافقة جميع الأحزاب على تكوين جبهة وطنية ، ودعا النحاس باشا كل زعماء الأحزاب للغداء على مائدته يوم ١٢ ديسمبر واتفق على أنه ما لم يوافق المندوب السامى فى منتصف يوم ١٢ ديسمبر على عودة دستور ١٩٢٣ ، فعلى نسيم باشا أن يقدم استقالته . وصرت انتظر ظهر الخميس باهتمام مظاعف لعودة دستور ١٩٢٣ وعودتى الى المدرسة .

ورأيت تحت هذه الظروف مجابهة الأسرة بما تم والاتصال بوالدى لإعلامه، وفى منتصف ليل الخميس ١٢ ديسمبر أبلغ المندوب السامى نسيم باشا بالموافقة على عودة دستور ١٩٢٣.

ويوم ١٣ ديسمبر علمنا أن المرسوم الملكى الذى طالب زعماء الجبهة الوطنية بعودة دستور ١٩٢٣ قد صدر ونشر ، وفى أواخر ديسمبر أصبح معروفا أن عودة الطلبة المفصولين للمدارس والجامعات مقررة ولكن ستتأخر لحين استكمال الترتيبات السياسية .

وكان مستر ايدن قد عين وزيراً للخارجية ، وكان عليه أن يستجيب لمطالبة الجبهة باستئناف المفاوضات لعقد المعاهدة ، وقد

بادر بتأكيد ميله شخصيا لاجابة مطالبهم ، ولكنه طلب مهلة كوزير جديد ولأخذ موافقة مجلس الوزراء.

وقد عادت البلبلة عندما أصدر نسيم باشا قانون الانتخاب ، ونجحت المناورة فى إشاعة المنافسة بين الاحزاب استعدادا للانتخابات ، وانتظارا لرد الحكومة البريطانية طلبت جبهة الاحزاب من الطلبة التزام الهدوء.

وظهر امتعاض الرأى العام وتوجسه من هذه الظاهرة، واحتدم الحوار والجدل والانفعال والتحذير فيما عدا النخبة من الحزبين المنظمين، وكان واضحا لى ان الركائز الشعبية للجبهة القومية هى الارسخ أساسا والامتن بنيانا ، وأن الهياكل الطلابية والحزبية ليست إلا انعكاسات وقتية لضغوط وحرارة التوجه الشعبى . وأتذكر انى احترت فى تفسير هذه الظاهرة، وأن ألعن ماعليه أغلب الجماهير من جهل وأمية وضيق واختناق .. وولد فىّ اقتناع لم يتزعزع بعد ذلك ابداً بصدق ووعى إحساس الجماهير ، وعمق انتمائها الغريزى التاريخى، الذى يبدو أنه يتخطى حدود الجهل والكبت والعزلة ، وقد أكدت تجارب حياتى فى مراحل تالية هذه القناعة وهذا الايمان وتغنيت بهذا الثراء فى كل محافل مصر والعالم الخارجى.

وكان الرد الرسمى البريطانى مثارا للبلبلة والحيرة والتوجس ، وإن بعث الأمل والتطلع، وكان ذلك فى ٢٠ يناير ١٩٣٦.

فقد أكدت الحكومة البريطانية استعدادها لبداية التفاوض فى الحال ، واشترطت تدرجا يبدأ بمحادثات عسكرية ، إذا نجحت ينتقل إلى موضوع السودان ، فإذا تم التفاهم يتم التفاوض على نصوص المعاهدة ، ولم توافق الحكومة البريطانية على أن تكون مفاوضات ١٩٣٠ (النحاس - اندرسون) أساسا للمفاوضات الجديدة لادعائها بدخول متغيرات جديدة ، كان مفهوما أنها تشير إلى احتمال نشوب حرب عالمية ثانية ، وحذرت أن فشل المفاوضات سيجبر بريطانيا على إعادة النظر فى سياستها وأكدت أن هذا ليس تهديدا بل هو توضيح للحقائق.

والحقيقة أن الظروف الدولية لم تكن مواتية من وجهة النظر المصرية، كما كانت فى ١٩٣٠ ، وكان هذا هو مصدر التوجس ، وكان واضحا أن بريطانيا لا تريد التفاوض مع وزارة لا تحتل مكانة شعبية ، مثل نسيم باشا ، بل تريد التفاوض مع كل ممثلى الشعب المصرى ليس اقتناعا بالديمقراطية ولكن فى محاولة لتدعيم موقفها فى وجه المجابهة مع الفاشية العالمية.

وحاول الملك ورئيس ديوانه العمل على تأليف حكومة ائتلافية لا ينفرد بها الوفد ، ووافقت كل أحزاب الاقليات ورفض الوفد ، وأخيرا وبعد انتشار البلبلة والتناقضات الحزبية وانقساماتها تقرر أن وزارة محايدة برئاسة على ماهر باشا رجل السراى ستتولى الحكم

وأن هيئة المفاوضات برئاسة زعيم الاغلبية النحاس باشا ستتولى المفاوضات.

وبدأت المفاوضات فى قصر الزعفران يوم ٢ مارس ١٩٣٦ بين زعماء الجبهة المستقلين ووفد بريطانى غير متكافىء من المندوب السامى وقواد عسكريين ، وحدد يوم ٢ مايو فى ظل تعثر المفاوضات ومبالغة المطالب البريطانية ، ولكن موت الملك فؤاد يوم ٢٨ أبريل ١٩٣٦ والمناداة بفاروق ملكا تحت مجلس وصاية ترتب عليه استقالة وزارة على ماهر ودعوة النحاس باشا زعيم الاغلبية لتأليف الوزارة طبقا لاحكام دستور ١٩٢٣.

وتقدمت المفاوضات حتى تم الاتفاق على أساسياتها، وسافر الوفد برئاسة رئيس الوزراء إلى لندن لتوقيع بنودها فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ التى كانت موضع خلاف وتحفظ من قوى وطنية عديدة حتى ألغاها النحاس باشا يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١.

وقد سقطت قرارات الفصل والابعاد والاجراءات القضائية التى اتخذتها وزارة نسيم ضد الطلبة باستقالتها يوم ٢٠ يناير ١٩٣٦ ، وإن كنت أتذكر أن جزءاً من هذه الفترة التى كنت فيها موضع فصل لم يكن لها تأثير لان الوزارة مدت الاجازة من ١٢ ديسمبر حتى ٣٠ ديسمبر إلى مابعد عيد الفطر ، وعقب ذلك كانت الاحوال هادئة استجابة لنداء النحاس باشا ومن ثم لم تكن اجراءات الامن المشددة

أمام المدارس معمولاً بها مما سمح بتردد الطلبة على المدارس وعدم تعنت الادارة مع المفصولين ، وكانت اجتماعات الطلبة مستمرة وان توقفت المصادمات . وأتذكر ان عودة البلبلة التى صاحبت الاختلاف حول الحكومة الائتلافية وانعكاسها على صفوف الطلبة صحبتها محاولات لتدعيم وحدة الطلبة وشملت هذه المحاولات دعوة زعماء الطلبة للاجتماع مع فرق اللجنة التنفيذية العليا ، وقد أصر زملائى الطلبة أن الدعوة للزعماء تشملنى بحكم فصلى وهو تأكيد من وزارة المعارف لهذه الصفة ومن ثم اتفق أن أتوجه لحضور أحد هذه الاجتماعات فى كلية الطب ، على أن أؤكد تمثيل ومشاركة مدرسة التوفيقية الثانوية التى كنا جميعا نعتز بالانتماء إليها وقد شاركت فى اجتماعين زعزعوا ثقتى فى كفاءتها .

وفيما يتعلق بالأسرة فإن ذاكرتى ان والدتى لم يسبب لها قرار الفصل انزعاجا كبيرا ، وأظنها كانت لا تتوقع دوامه وأن آثار غضبها ما سببت للاسرة من توتر ، على عكس والدى الذى كان القرار مبعث حزن وأسى عميقين وإن لم يأخذ غضبه مظهرا سافرا أو زاجرا .

وفى المدرسة لا أظن أنه كان لى دور أو إرادة فى إحداث أى تغيير فى علاقاتى المدرسة ، بل إنى أشك أنه تبادر الى ذهنى ان

مثل هذا التأثير وارد، ولكن التغيير وان كان غير صريح أو واضح المعالم ظهر فى المعاملات التلقائية المتباعدة ، والتى بتجمعها وتكرارها لاشك كان لها تأثير فى نفسى فلقد ظهر زيادة توقع زملائى أن أكون ملما ومتتبعا لمسار الاحداث، وأن يكون لى الحق فى سماع رأيى وإن لم تكن رخصته الموافقة والتأييد.

أما علاقتى بالادارة وهيئة التدريس فقد لاحظت قدرا اكبر من الاعتراف والتقدير ، يخالطه قدرا من الترقب والحذر ، والغريب أن هذا الأخير كان أبعد أثرا فى نفسى لأنه كان يحمل مدلول الأخذ على محمل الجد وتقلص الاتجاه نحو الاستخفاف او الاستهتار الذى كان كثيرا ما يثيرنى فى تعامل الكبار مع الصغار.

ومن ثم فقد دعم اتجاه الآخرين لأخذى على محمل الجد ومن ثم كان درسا آخر من شارع الوطنية استكمل به تشكيل شخصيتى وتوجهاتى دون وعى أو إدراك منى.

ومن ناحية أخرى فقد حبانى العديد من رجال الشارع فى المنطقة المحيطة بالمنزل اللصيق بالمدرسة والجيران والاقارب والمعارف بعطف وتقدير وتشجيع دافىء ومخلص ربما كان أبعد أثرا فى نفسى ومدعما لاحساس بالانتماء والوحدة مع مواطنى ولست هذا من الحلاق والطرابيشى والجزمجى والبقال والبواب

وكل من انتظمت علاقة التعامل معهم خلال هذه المرحلة ، بل حتى زبائنهم من سكان المنطقة ولعل هذا التجاوب غير المنتظر قد بلور فى ذهنى اليافع مدلولا أعمق من المدلول اللفظى لمعانى المشاركة والالتزام الوطنى ، ولعله كان بداية تراكمية لثروة طائلة حبانى بها الشارع الوطنى ، كانت دائما ركيزتى الوجدانية ومبعث امتنانى وفخرى .

الباب الرابع

بحثا عن البداية

ولم يكـن واضحـا لى بعد هـذه التجـربة ما هـى البداية التالية ، وكنت أظن أن الاكتفـاء بالمشـاركة فى انفجـارات الانفعال الجماهيرى عندما يهدر طـوفانه لا تتحلى بالقدر الواجب من الايجابيـة الخلاقة ، ولم يكن متاحا بديل آخر حسب ما بدا لى إلا البطانة الطلابيـة للأحزاب المتنافسـة ، ولم أجد فى هذا المنحى جاذبا فكريا ولا توافقا طبائعـيا ، ومن ثم فـدون وعى أو تدبير ظل هذا التساؤل ماثلا فى ذهنى مما قادنى لدرسين اضـافيين أكمل شارع الوطنـية تثقيفى بهما خلال مرحلة الدراسة الثانوية.

وكنت فى هذه المرحلة مأخوذا فكريا بالتراث الدينى، وكنت أجد عطاءً ثريا فى استيعاب لمحات القرآن ومعانيه وثورته الاصلاحية وأصالته الانسانية ، وكنت مبهورا بعبقرية وعمق مفكرى وأئمة التراث واعتبر اسهامهم منهلا فكريا وكنزا عقليا يثير فى العجب والاستغراب مقارنة بما بدا عليه مجتمعنا المعاصر من سطحية وعقم ، وكنت أصلى الجمعة فى زاوية فى جزيرة بدران وأظن أنى أخترتها لصغرها وبساطتها ، واستقرار مريديها على سكان وعمال وتجار الجيرة الملاصقة وبساطة وتلقائية إمامها وخطيبها ، وكان فيما بدا راعى الزاوية رجل فاضل من كبار موظفى الدولـة هو ونخبة من رفاقه كان لهم ركنهم المختار ، وفى آخر كل صلاة ، كان يهيب بالمصلين للتبرع لبناء جامع أوسع فى هذا الموقـع ، وكنت مثل غيرى من محدودى الدخل

من المصلين أضع قرشا أو قرشين فى الصندوق المعد لهذا الغرض ، وكان يبدو لى أن جمع المال اللازم لبناء الجامع المنشود سيستغرق قرونا ، وبعد تردد كبير وإقدام وإحجام تقدمت إلى الرجل الفاضل عقب الصلاة وطلبت أن أتحدث إليه ، فرحب هاشا باشا ، فاعتذرت له أنى أريد أن أقدم له اقتراحا ، وكان رأيى أن جمهرة المصلين من محدودى الدخل والاعتماد عليهم غير كافٍ ، والمنطقة وان لم تكن ثرية ولكن فيها تجارا وملاكا وعمالا وأسرا مستقرة ، قد تكون أكثر قدرة وليس اقل رغبة فى العطاء حتى ولو لم تنتظم فى الصلاة او اختارت ان تصلى فى الجوامع الكبيرة القديمة ، فإذا جعلنا بناء الجامع هم الحى وليس هم المصلين فقد نحقق نجاحا سريعا ، وأعطانى الرجل عنوانه ، وأفهمنى انه ورفاقه يتقابلون بعد صلاة العشاء للتواصى والتذاكر وطلب منى ان اختار اى يوم يناسبنى للقائهم ، وأوصانى ان افكر فى الطرق العملية لتنفيذ افكارى ، وأظن ان ذلك كان فى أواخر ١٩٣٦ . بالفعل توجهت الى مكان لقائهم وكان رأيى ان نتخذ الاجراءات لطبع دفاتر طوابع ذات فئة غير مبالغ فيها ونحدد الغرض من الجمع ومكان الجامع المستهدف ، وأقوم أنا بجمع فريق مختار من الطلبة من أبناء الحى والمدارس المحيطة حتى يكونوا موضع ثقة وتقدير الاهالى ، وأنه مع بداية العمل قد يتجمع المتبرعون بأكثر مما تحتمل الطوابع كى

تتسع دائرة الموزعين والمتعاونين لشعور كل فرد بأنه شريك فى هذا الخير والفضل العظيم ، وانه إذا لقى الاقتراح القبول وأعددنا العدة ، فيمكن له فى نهاية الصلاة الحديث عن المشروع وطلب المتطوعين أن يتصلوا بى قبل مغادرة المسجد لتنظيم العمل ، وأتذكر ان المشروع مضى فى طريق تحقيق هذه الخطة بخطى مطردة وتوسعنا فأخذنا نوزع على الأهل والجيران والمعارف خارج المنطقة ، واخذنا نوزع فى المدرسة وغيرها من التجمعات وكان لابد من أخذ موافقة المدرسة على التوزيع وقد رحب الناظر بذلك.

ولا أذكر كيف انتهى المشروع وعندى ظنون أنه بعد سنين بنى جامع فى هذا المكان ولست أعرف قدر إسهامنا فيه ولكن الذى اتذكره جيدا كيف ان التكاتف والتعاون لعمل الخير وخدمة المجتمع والمشاركة فى تحمل مسئولياته أعطانا جميعا إحساسا بالنضوج والايجابية ، واخرجنا من دائرة السطحية ومهد لنا خيارا غير التبعية الهامشية .

ولعل الدرس الثانى كان أقل توفيقا ولكنه كان الى حد ما وليد هذه التجربة ، وهو الذى سعى إلىَّ دون اختيار أو تدبير منى.

ففى صباح أحد أيام الدراسة حضر فراش الناظر الى الفصل وطلبنى لمقابلة الناظر، وقد حيرنى فى ذلك واربكنى فلم اكن قد ارتكبت

أى مخالفة ، وعندما توجهت الى حجرته وجدت معه شخصية بارزة كانت معروفة لكل المصريين، وهو بطل حمل الاثقال العالمى سيد نصير، وقابلنى الناظر بترحيب غير معتاد وأخذ يشكر فى ويعدد فضائلى ، ثم وجه إلىّ الكلام واخبرنى ان سيد نصير افندى يشترك فى مشروع وطنى كبير مع النبيل عباس حليم وحسن انيس باشا، وان نجاح هذا المشروع يقتضى الاعتماد علىٰ شبان ممتازين لان المشروع موجه لخدمتهم، وانه اختارنى من طلبة المدرسة لأن فىَّ المواصفات التى يتطلبها هذا المشروع، وأنه يطلب الىّ أن أتوجه لمقابلة سيد نصير أفندى فى مقر المشروع وتقديم ما استطيع من مساعدة.

وأعطانى سيد نصير عنواناً فوق أمريكين شارع عماد الدين ، وسألنى عن الميعاد المناسب فحددته له.

وذهبت فعلا وشرح لى بالتفصيل مشروع النبيل عباس حليم للدفاع الوطنى، وأن الغرض منه هو تعليم الشباب الطيران لانه عنوان العصر والتقدم وانه ما لم يلحق الشباب بركب العصر فسنتخلف عن سائر الدول ، وان مصر وصلتْ إلى اعتاب العظمة فى ايام جد النبيل محمد على لان محمد على ألحق شباب عصره بركب التقدم وأسبابه ، وبنى السفن والبوارج وأدخل وسائل العصر كلها فى مصر ، وأنه يلزم أن نجمع الأموال لشراء طائرات التدريب ، وأنه يتوفر للجمعية المتطوعون من المدربين ، وأنه يمكن خلاف الاجازات ونهاية

الاسبوع تعليم اعداد وافرة من الشباب دون الاخلال بدراستهم ، وأن جمع الاموال والشباب لابد أن يبدأ باختيار عناصر جادة مسئولة وقيادية تستطيع حمل هذا العبء هذا هو السبب أنه توجه لمدارس معروفة يتميز طلبتها ، وإن طلب من الناظر الاختيار بناء على توجيهات افندينا النبيل عباس حليم.

وعليٌ أن أعترف أنه لم يكن أمامي مجال كبير للتفكير فمقابلة سيد نصير والتعرف عليه كانت حدثا مرموقا ، ودعوته ورجاؤه بالعمل معه كانت لاشك شرفا كبيرا ، فوافقته على المشاركة على أن أحدد دورى بعد الاطلاع على تفاصيل العمل فأخذنى لمكتب داخلى حيث قدمنى إلى حسن أنيس باشا الذى بدا لى أنه يعرف كل شئ عن الطيران ومستقبله ، وعرفنى بالسكرتير التنفيذى وكان محاميا على ما أتذكر كان اسمه حمدى ، واتفق مع الأستاذ حمدى أن أفرغ نفسى للحضور للمقر كل يوم خميس بعد الظهر حتى نفكر فى تنظيم العمل .

ولسابق خبرتى فى جمع تكاليف بناء المسجد ، وشبكة المتطوعين التى تعاونت معى واختيار الزملاء الذين لهم هوايات رياضية وتسمح لهم ظروفهم الاجتماعية بمباشرة نشاط خارج المدرسة ، وهو أمر فى هذا الزمان لم يكن موضع سماح أو رضاء كثير من الآباء ، أمكن أن أضع خطة لمسار العمل .

وبعد جلسات مع سيد نصير ومع أنيس باشا أعدت طوابع إيصالات التبرع ، وأعدت إشارة للمتطوعين وطبعت نشرة توضح أغراض المشروع وأهدافه تصدرها بالطبع صورة أفندينا ، وقابلت أفندينا مع المذكورين ولم أحس بالارتياح إلى شخصه ولا للكنته التركية الأجنبية المزدوجة ، ولا بصلفه الذى جعل تبساطه غير مستساغ ، وابتدأنا العمل بجهد واجتهاد ، وعلمت خلال العمل أن عباس حليم كان غير موضع رضاء من الملك فؤاد وأنه بعد موته وتولى الصبى فاروق للعرش فهو لا يكتفى باسترداد مكانته وحريته فى الحركة ولكنه يتطلع لأن تكون له صدارة فى نواح مختلفة .

ولما كان عملى أساسا مع الأستاذ حمدى وسيد نصير وكان حسن أنيس باشا رجلا دمث الأخلاق متواضعا فلم أجد غضاضة فى جو العمل بل على العكس وجدت مدخلا مرموقا للاندماج فى مجتمع الكبار والنخبة المؤثرة والبارزة ، ووجدت فى تقديرها لى إرضاء لذاتيتى ودعما لثقتى واعتزازى بنفسى وفتح مجالات جديدة أمامى للخبرة لم يكن من الممكن أن تتاح لى فى الحياة الدراسية الرتيبة .

استمر العمل فى المشروع بنجاح من حيث جمع الأموال ولم أر نشاطا آخر غير هذا النشاط ولم اشترك فى اجتماعات يدور فيها تباحث ونقاش بين قيادات المشروع .

وفى أوائل إجازة الصيف ١٩٣٧ زف إلى سيد نصير وحمدى خبر تعيينى عضوا فى مجلس الإدارة كممثل للشباب ، وأننا بالنسبة لنجاح الشق الأول للمشروع وهو جمع التأييد والتبرعات فإن المجلس سيقوم بإعداد خطط تنفيذية لاستكمال باقى مقومات المشروع ومع ذلك لم ألحظ أى مظهر لهذا الاستعداد ، وقد أكد علىّ السادة المتصلون بى أهمية مراعاة كل مراسم التبجيل والاعتبار فى التعامل مع أفندينا عباس حليم ولعل تكرار تأكيدهم عكس ما لمسوه فى تصرفى من تلقائية وصراحة واعتداد بالنفس ، وتكرر التأكيد بعدم لياقة معارضة نبالته وأن أى ملاحظات يمكن الإدلاء بها لحسن أنيس باشا بعد اللقاء ، وهو يقدر مدى قبولها ومناسبتها ، وعلى أى كانت الجلسة أو الاثنتين اللتين حضرتهما عرضا من السكرتارية للتقدم والإنجازات ولم أسمع من نبالته إلا زئيرا أو نطقا بالاستحسان أو عدم الرضاء ، ثم انصرافه بين تكبير وانحناءات الحاضرين كما كان حضوره ، وابتدأ الشك يراودنى فى صلاحية أى مشروع قومى يتولاه أمثاله من منقطعى الاتصال والتواصل مع التراث الوطنى ، والمنشغلين بأحلامهم ومطامعهم الشخصية والمفتقدين إلى المؤهلات والكفاءات الجماهيرية وشككت دائما أن المتحمسين والمخلصين من الشباب الذى اعتمدنا على جهودهم لابد وأن يصابوا بنفس الصدمة حينما يحين الوقت لتعاملهم

معه ، وكان عزائى أن الإدارة التنفيذية للمشروع هى فى يد حسن أنيس باشا وسيد نصر .

وفى أغسطس ١٩٣٧ أعلنت خطبة فاروق الملك الشاب لصافيناز الملكة فريدة ذو الفقار ، وكان فاروق يمر بمرحلة شهر العسل مع الرأى العام المصرى فهو شاب مليح واضح يفتقر إلى الخبرة ، ولعل الأهم أنه خلف والده الذى لم تتزحزح السدود بينه وبين الشعب فى يوم من الأيام، ولم يحاول تأكيد انتمائه ولم يمل من تكرار عدائه لمشاركة الشعب حقوقه في الديمقراطية والدستور وكان دائم التآمر والتواطؤ مع أعدائهم من المندوب السامى إلى أحزاب الاقليات إلى العملاء المشتركين بينه وبين المندوب السامى ، وكان هذا سببا كفيلا بالتهاب شعبيته ونمو أحلام الشعب أن يكون فاروق للإصلاح والتقدم إلى الحد الذى جعل شعبية الوفد تتعرض للمخاطر وبتخطيط من بطانة السراى عملوا على توافق تطلعات الملك مع تطلعات الأزهر ، وتولى شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغى توجيه الملك فتضاعفت أنعماؤه على رجال الأزهر ، وانتظمت دورته لصلاة الجمعة والمناسبات على المساجد الكبيرة ، فكانت ملتقى للتأييد والإعجاب الجماهيرى ، وتخطى حاجز الغربة والتعالى الذى ضبغ موقف السراى من الجماهير على مر العصور ، وزيادة فى استنفار هذا الكنز الثمين أصر رجال السراى أن يكون تنصيب الملك فى حفل دينى يرأسه شيخ الأزهر ويضفى على حكم فاروق

سمة من الحصانة والانفرادية الخلافية ، ويفرد لشيخ الأزهر دور حاكم خارج إطار الدستور وقاوم الوفد بعناد هذا التجاوز والتطاول غير الدستورى.

وعقب إعلان خطبة فاروق قامت موجة عارمة للاستعداد للاحتفال بزفافه ، وكان اختيار عروسه من غير أميرات الأسرة المالكة مدعما لأحلام وآمال الجماهير فيه ، وفى وسط هذه الهوجة دعى مجلس الإدارة للاجتماع ، وكان المتفق عليه منذ مدة أن تكون نهاية الإجازة الصيفية هى مرحلة إعداد الخطة التنفيذية لتحقيق أهداف الجمعية وأغراضها ولكن المجلس دعى دون أن يظهر لى أى استعداد أو دراسة .

واجتمع المجلس على عكس المرات السابقة لم يطلب من أحد التكلم أو عرض أى أمر من الأمور ، وتحدث افندينا عن سعادة الشعب بالمناسبة السعيدة بزواج مولاه سليل المجد والشرف وسعادته بنعمة الولاء لأحفاد باعث الأمة ومنقذها محمد على الكبير وأنه يرى أن تشترك الجمعية فى شرف الاحتفال وتأكيد الولاء ، وعليه يقترح أن يخصص رصيد الجمعية لشراء هدية الزفاف لمولانا الملك وهو إنجاز لا يعادله إنجاز ، ويمكن للجمعية أن تستأنف مسارها فيما بعد واثنى على هذا حسن أنيس باشا وأجمع الآخرون على التأييد والتهنئة بهذا التوفيق العظيم .

ورغم أن هول المفاجأة أذهلنى فإنه يبدو أن علامات الدهشة والانزعاج كانت واضحة على وجهى إلى الحد أن صويت إلىّ نظرات وإشارات التهدئة والرجاء ، ولكننى لم أتمالك نفسى فذكرت الحاضرين بصوت مرتعش أننا ملتزمون أمام المتطوعين والمتبرعين بتعهدات وأغراض محددة وأننا لا نملك أن نغفل هذا وأننا إذا اغفلناه سنفقد ثقة هؤلاء ، ولا نستطيع توقع واستمرار مساندتهم ، وذكرتهم أنى كنت واجهة الجمعية أمام هؤلاء إن إحساسى بالمسئولية بالتالى مضاعف وإنه إذا كان من الملائم لمثل هذه الجمعية ذات الأغراض الوطنية أن تشارك فى المناسبة السعيدة فلتكن مشاركتها رمزية فى حدود محترمة ولكن لا تخل بالتزاماتها وتعهداتها. وتعددت التبريرات والاعتذارات عنى وأكد البعض أن حماس الشباب وإن كان خاصية مشكورة إلا أنه لاشك إن ما أتسم به من اتزان وتعقل سيجعلنى أزن الأمور بالمقياس الصحيح بعد أن تتضح لى أبعاد الاقتراح وحكمته ، وانفض الاجتماع بخروج افندينا وحسن أنيس باشا ، وبقى معى الآخرون وأبدوا مشاركتهم لى من الأسف على تأخير المشروع ، ولكنهم أكدوا لى أن هذا الاقتراح سيزيد من فرص النجاح وإتساع دائرة الدعم والتأييد ، وأن المرجو منى عدم الاندفاع مع المثالية والتفكير الموضوعى والتفرغ لعملى فى تعويض هذا التعطيل المؤقت للمشروع ، وأن هناك ترتيبات عملية تم التفكير فيها هى التوسع الإقليمى بما يدفع العمل إلى الإمام بسرعة وأن هذا يسمى

عبئا ضخما ولكن الجميع على ثقة بأنى استطيع القيام به ، وسيقتضى ذلك امتداد العمل لضواحى القاهرة والإسكندرية وطنطا وغيرها من العواصم وأن ذلك سيقتضى بالطبع أن تتحمل الجمعية التكلفة من مكافأة ومصاريف سفر وإقامة ، وبالطبع يعد مكتب لى فى المقر ، وزاد هذا فى استفزازى وغضبي ولكني تمالكت نفسى والتزمت السكوت حتى انتهت الفضائح المنهالة حولي حتى بدا للناصحين أنه آن الأوان لإنهاء الموقف وسئلت ما رأيي فى هذا الحل ، وفاجأتهم في هدوء ولكن فى إصرار لا يتزحزح ، أنى لست فى وضع توجيه وتعديل أفكار الغير ، وعليه فإنى أقدم استقالتى من المجلس والجمعية وانهى علاقتى بهما من اليوم مع التأكيد على عدم موافقتى على انفاق أموال الجمعية لغير الغرض الذى جمعت من أجله .

وكانت هذه أول وآخر ارتباطاتى المؤسسية وهى الظاهرة التى كانت موضع التعجب والنقد من آخرين فى مراحل متعددة من حياتي الوطنية، كما كان هذا الحسم والتمرد العنيف الطابع الذى صبغ حياتى فى كل خلافاتى مع كل أشكال السلطة مما صورنى أمام الكثيرين بالعنف والتطرف والعدوان ، ولست أعرف ما إذا كان ذلك انعكاسا لعمق الصدمة وبشاعة المفاجأة وسذاجة الاندفاع وراء الشكليات والمظاهر البراقة وإحساس بالخجل القاتل من أنى خليت برفاق وثقوا فى حسن تقديرى للأمور ، ثم من ناحية أخرى فلم تكن مثل هذه التجربة أو هذا

الدرس نادرا فى الحياة وربما تعرض له كل نشط مرة ومرات ومن ثم فربما كانت هذه الخواص كلها فى شخصيتى وأن الدرس لم يفعل أكثر من تحريك الكوامن ، وإبراز الهواجس إلى مرتبة الوعى والإدراك .

ولعل افتقارى إلى مرونة الحلول الوسط والهروب من الاختيارات الاشق على النفس هى فى النهاية خلاصة لكل ما استخلصته من واقع حياة مجتمعى وما شغلنى من مشاكله وأمراضه وما تخيلت أنه احتياجاته وأولياته .

ولعل انكشاف أمر عباس حليم فى المرحلة التالية واتضاح توجهاته الفاشية ، والدور المشبوه الذى حاول القيام به فى مجال الحركة العمالية والذى حاول توظيفه لخدمة مصالحه وعلاقاته مع السراى فى أول الأمر ثم قاده نزوعه الأهوج المغرور لمغامرات ذاتية انتهازية أكد لى حصافة الحزم القاطع التى تعاملت به مع أول ظاهرة لانكشاف المستور .

والتوجه العام بالنسبة للفاشية العالمية لم يكن بعد قد تبلور داخليا ولا حتى عالميا ، ومن ثم صبغ التخبط تصرف الامبراطورية البريطانية نفسها بقيادة تشمبرلين ، وفى مصر كانت فظائع الفاشية الايطالية مشهرة فى حربها فى الحبشة وكبتها للحركة الوطنية فى ليبيا ، ولكن لأن مصدر المعلومات وموجهها كان الامبراطورية البريطانية وهى دائما مبعث شك وعدم اطمئنان الرأى العام المعارض للاستعمار البريطانى والمرحب بكل أشكال التحدى والمعاداة له .

ومن ثم كان هناك الرد التلقائى وهو أن كل عدو لبريطانيا هو أولى بالتشجيع مهما كانت دوافعه .

وكانت الجالية الإيطالية فى مصر جالية كبيرة بعد اليونان ، وكانت مثلها متمصرة وشديدة الالتحام بالمجتمع المصرى ، وتتحدث باللهجة المصرية وتحترم العادات والتقاليد المصرية ، وكانت لصيقة بحياة الشارع المصرى من حيث اشتغال أفرادها فى القطاع التجارى والبقالة والمطاعم والنشاط المهنى مثل الميكانيكى والصناعات الهندسية والتحويلية ، وكانت محل مودة ، وتفاعل على المستوى الفردى فى الاحياء الراقية والشعبية ، وكانت الميول الفاشية تنمو بينها بعد الانتصارات التى حققها موسولينى خاصة بين الطبقات العاملة والوسطى منها ، وبالذات الشباب ، ومن ثم كانت قاعدة للدعاية للفاشية قبل بداية الحرب العالمية وقبل اعتقال قياداتها وعناصرها النشطة فى المعتقل الذى أقيم عند تقاطع شارع الجلاء الآن مع المدخل إلى بولاق والزمالك .

وعلى الجانب الآخر كانت هناك تذكرة بالنواحى العسكرية والارهابية ، تمثلها عدوى التنظيمات الفاشية التى مثلتها ميليشيا القمصان الخضراء التى أقامها أحمد حسين ، واستفزز الوفد للوقوع فى نفس الانحراف بإنشاء القمصان الزرقاء وكلها كانت توجهات ، وإن جذبت اهتمام المراهقين سياسيا وفكريا ، توجه غريب على البيئة

والتقاليد والاعراف المصرية ، وبالتى موضع شك ورفض عام ، ومن ثم مؤشر وحافز على الشك فى الحركة الأم فى ايطاليا وألمانيا ، وهو الشك والرفض الذى كنت أشارك فيه عن قناعة واقتناع ، وكأغلب المواطنين لم نرض ولم نؤيد ضغوط بريطانيا لحصار الجالية الإيطالية لقناعتنا بصدق تواصل وولاء غالبيتها المتمصرة والمندمجة وإن راعينا ضرورة رقابة وعزل عناصر التطرف .

كانت مدرسة التوفيقية من المدارس المختارة للأقباط بحكم عاملين : الأول أن شبرا ابتدأت بالتوسع والنمو فى المرحلة السابقة للحرب العالمية الثانية وكانت أرضها رخيصة فمثلت نقطة جذب لصغار الطبقة المتوسطة ، وكان منهم نسبة عالية من الأقباط خاصة بعد تكدس الفجالة وتحولها التجارى ، وثانيها وأن التوفيقية ، بعكس المدارس الثانوية فى شبرا ، كانت مدرسة قديمة معروفة ، وكانت تقاليدها التعليمية مرموقة من حيث احكام العملية التعليمية والاهتمام بالنظام واختيار صغار السن ، ومن ثم كانت نسبة الأقباط فيها أعلى من المدارس الأخرى ، وكان تقسيم الطلبة فى الفصول يقضى بتجميع صغار السن المجتهدين والمنتظمين فى فصل أول من كل سنة ، وهكذا ومن ثم وصل عدد الأقباط من الطلبة إلى نصف الفصل أو ما يقاربه وفى النادر ما يزيد عنه ، وكان حظى تولى ألفة مثل هذا الفصل ، ومن ثم توطدت علاقاتى بزملائى الأقباط على مدى سنين الدراسة ، وبلغت الألفة أنى كنت أنا

وآخرون من زملائى نشاركهم فى أعيادهم ونحضر أحيانا قداس انتهاء الصوم الكبير ونشاركهم الولائم وكنت أجد أغلبهم مخلصين فى صداقاتهم ملتزمين فى علاقاتهم وتصرفهم .

وكان معتادا فى أيام هذه الأعياد أن يمتنع بعض المدرسين عن إعطاء دروس جديدة لغياب نسبة عالية من الطلبة ويصر البعض على عدم الاخلال بجداول تدريسهم ، وكنت مع زملائى نعارض مثل هؤلاء ونلح عليهم بالتأجيل وكان بعض المسلمين يزوغون . وفى هذه السنة أصدرت المدرسة منشورا بأن كل من يزوغ أو يغيب دون مبرر فى هذه الأيام سيجازى وأن الفصل الدراسى يجب أن ينتظم العمل فيه حسب النظم المعمول بها . وناقشنا المدرسين فى ذلك ووجدت منهم إصرارا على الالتزام بمنشور المدرسة .

وظنى أن هدف المدرسة كان منع الفوضى والخروج من الفصل والضوضاء التى يحدثها توقف الدروس .ومن ثم أخذ الطلبة الأقباط يتفقون مع أصدقائهم على استعارة كراريسهم بعد العودة لنقل مايفوتهم وكان منهم المجتهدون الذين شعروا بالقلق من فوات الشروح التى لا يمكن تعويضها أو لم تكن الدروس الخصوصية عرفت بعد .

وفى خلال التجمعات والمجادلات التى جمعت طلابا من أكثر من فصل خطر على بالى أن الحل الوحيد المنطقى بعد أن اتجهت الأغلبية لعدم أخذ دروس جديدة أن ننقطع عن الدراسة فى هذا اليوم جميعا

بالاتفاق بديلا للتصادم والعصيان ، وبعد حوار اتفق أن أقف ومعى اثنان أو ثلاثة من الطلبة المسلمين القياديين بجانب باب المدرسة دون أن نعترض أو نحرض أحدا ، ولكن للتأكد من إجماع الطلبة حتى لا يضار المتنعون بحيث إذا وجدنا نسبة عالية من الخارجين على الاتفاق نشير على الجميع بالدخول .

وكان معتادا أن أحد مدرسى الألعاب الرياضية ، وكانوا من ضباط الصف من احتياطى الجيش ، يراقب البوابة مع البواب للتأكد من عدم دخول عناصر غريبة أو خروج الطلبة بعد دخولهم وهو أمر كان ممنوعا منعا باتا .

وعلى أى حال كان الغياب العام من الفصـول الكبيرة ، وأظن أننا كنا فى الرابعـة الثانوية (الثقـافة) ليس فقـط ملحوظا ومزعجا للمدرسة بل إن الأمر انتشر في نفس اليوم حتى وصل إلى الوزارة ووسائل الإعلام ، ولم يكن صعبا على الإدارة أن تحدد الطلبة المشتبه فى مسئوليتهم .

وفى اليوم التالى فى الصباح وجدنا فريقا ينتظرنا من المسئولين ، واقتادنا إلى أمام حجرة الناظر ، وكان فى هياج شديد ، فاختار على ما أتذكر ستة أو سبعة وكنت على رأسهم وأبلغنا بقراره العجيب الذى أذهلنا جميعا أننا مرفوتون من المدرسة حتى يحضر كل منا ولى أمره ويقوم ولى الأمر بصفع كل منا على الخدين كما يجب معاملة أمثالنا ،

إذا كنا نظن أننا كبرنا على أن توقع المدرسة علينا جزاء بدنيا وظهر من هياجه أنه كان موضع زجر شديد من الوزارة .

وتمسك بقراره الفذ على الجميع ، ورغم أنى تفاهمت مع الوالد على التمثيلية فقد يبدو أنه نسى الاتفاق بعد وعظ وإثارة خطبة الناظر العصماء باعتبارى الزعيم فكان الكف الذى تناولته مفاجأة عنيفة لخدى .

وبالطبع كانت الولائم والحفاوة التى قوبل كل منا بها فى منزل صديقه من الأقباط بالغة الحرارة ، وإن أجمع الآباء على عتابنا على الخروج على نظام المدرسة .

وفى زماننا قد لا يعى الكثيرون أصول الأخوة والتكافل العميقة التى عبرت عن نفسها خلال ثورة ١٩١٩ رغم ما بذله الاستعمار البريطانى من تآمر وتنظيم خسيس لتفرقة الصفوف ولكننا نحن أبناء حقبة العشرينيات والثلاثينيات لم نكن فى حاجة إلى تدبير أو تمحيص للالتزام التلقائى بدواعى هذا التكافل الوطنى .

ويقى هذا نبراسا حتى أطلق علىّ «الإخوان المسلمون» فى الجامعة «زعيم الطائفة» بحكم حرارة التواصل والثقة والتعاطف التى استقرت بينى وبين مواطنين من الأقباط ولا أعرف رئيسا غيرى من المسلمين تقدمت فيهم شكوى أيام رئاستى فى قطاع الدواء بتحيزى للأقباط فى الترقية من بعض الفاشلين من المسلمين .

الباب الخامس

دروس الحرب العالمية الثانية

جاء الرد البريطاني بالاستعداد للمفاوضات مع ممثلي كل الأحزاب المصرية وترتيب التعامل مع المطالب المصرية ، السودان ومعاهدة الاستقلال ، على الوصول إلى تفاهم على المطالب البريطانية الأهم وهي الترتيبات العسكرية والانذار برد الفعل إذا فشلت المفاوضات في أواخر عهد الملك فؤاد ولم يتم توقيع المعاهدة إلا في عهد مجلس الوصاية على فاروق واعتبر الرد البريطاني في ٣٦/١٠/٢٠ نهاية للفورة الوطنية للطلبة وفئات الأمة باستقالة وزارة نسيم وعودة دستور ١٩٢٣/١١/٢٣ .

ولكن جهود أحزاب الاقليات والسراى لتأليف حكومة ائتلافية لم تنجح لاعتراض الوفد وعادت البلبلة والقلق والانشقاقات وانتهى الأمر بحل وسط هو تولى ماهر باشا رجل السراى وراعى أحزاب الاقليات الوزارة من غير الحزبيين ورأس النحاس باشا وفد المفاوضات الممثل لكل التيارات الحزبية كما أراد الانجليز .. وجرت الانتخابات يوم ٢ مايو بعد وفاة الملك فؤاد يوم ٢٨ إبريل ١٩٣٦ وأصدر مجلس الوصايا مرسوم تأليف الوزارة برئاسة زعيم الأغلبية مصطفى النحاس يوم ١٠ مايو .

وتمت الاتفاقات على بنود المعاهدة في ٢٤ يوليو ١٩٣٦ ووقعت البنود العسكرية يوم ٢٤ يوليو بقصر الزعفران ، ووقع على كامل المعاهدة في لندن في ٢٦ أغسطس من نفس العام .

ولم تكن توقعـاتنا مـن هذه المفاوضة كبيرة لا من حيث تناقض وتضـارب جبهـة الاحـزاب ولا من حيث نوم الحركة الشـعبية والطـلابية فى ظل حكومة الأغلبـية ودسـتور ١٩٢٣ وإجـازة الصـيف ولا من حيث غـيوم الحـرب العالميـة الثانيـة المتراكمـة وتصـاعد ترتيبات بريطانيا للدفـاع ضد هجمـة الفاشـية والنازية المتصـاعدة فـى أوروبا ولا من ناحيـة الفرقة التى أحدثتهـا المنافسـة الحـزبية أثنـاء الانتخابات ولا من حيـث تعـلق بقـاء حكومة الأغلبية فى الحكم بنجاح المفاوضات .

وكانت المعاهدة مجال خلاف وشكوك كبيرة فهى وإن أعلنت انتهاء الاحتلال واستقلال مصر وإنهاء الوضع الشاذ بشأن المندوب السامى البريطانى فإنها ألزمت مصر بإعطاء السفير البريطانى الأولوية والأقدمية على ممثلى الدول بصفة دائمة .

وحولت الاحتلال إلي وجود عسكرى شرعى فى وقت السلم ، واستخدام موانئ ومطارات وطرق مصر فى وقت الحرب ، ومنع أي اتفاق أو معاهدة مخالفة لارتباط الطرفين ، وفرض النجدة إذا دخل أحد الأطراف فى حرب ، ومضاعفة المساحة المسموح بقاء القوات البريطانية فيها حتى شملت كل القنـاة وسـيناء ، وحق زيادة القوات بدون حدود في حالة الحروب ، وتأجيل الجلاء عن الإسكندرية والقاهرة لسنوات بعد انتهاء إنشاء مصر للثكنات والطرق العديدة المطلوبة .

وكان البند الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية هو الوحيد الباعث على الفرح والانشراح فلا تعلم أجيال اليوم مدى المهانة التي أعطت للأجانب الاستعماريين وصعاليك وأفاقى أوربا حصانة من القانون والقضاء والرقابة الوطنية وجعلت من كل سفير وقنصل حكومة بديلة وكذلك إلغاء منصب المفتش العام البريطانى فى الجيش المصرى وإلغاء إدارة الأمن العام الأوروبية في وزارة الداخلية ، وسحب الضباط الانجليز منها ولم نكن نعرف أن اتفاقية إنهاء الامتيازات الأجنبية فى مونترو ٨ مايو ١٩٣٧ ستبقى المحاكم المختلطة لمدة اثنى عشر عاما تالية إن الضباط الانجليز فى الشرطة سيستمر وجودهم لما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

ورغم اعتراف بعض أعضاء المفاوضات بقصور أحكام المعاهدة فإن مسئولية الوفد وتعلق بقاؤه بها دفعه للمبالغة فى الدفاع عن معاهدة الاستقلال والشرف ، ومع أن التوقعات الموضوعية فى إطار السلبيات السابق بيانها لم تخرج عما تم الاتفاق عليه فإن الأحداث التالية وضغوط وتجاوزات الحرب العالمية الثانية أصابت العناصر الوطنية المستقلة بالإحباط والقنوط ، وبدأت الثقة والأمل فى القيادات الوطنية التقليدية تتآكل ، وزاد الطين بلة محاولة فاروق انتزاع شعبية لم يحلم بها آباؤه وأجداده ثم افتضاح بلاهته وانحلاله وفساده .

ومرة أخرى عاد الشارع الوطنى يجتر آماله وأحلامه من غياب وسراب الواقع المرفوض .

وكما أرست ثورة ١٩١٩ الأسس والركائز لحركة ١٩٣٥ فكل ما يمكننى تذكره أن حركة ١٩٣٥ أثارت التطلعات وبعثت الأهداف التى لم تستطع توابعها ونتائجها تحقيقها أو رى التعطش إليها ومن ثم فقد ظلت ماثلة فى الضمير الوطنى يحفزه لوازعه حتى استأنف سعيه وتوثبه إليها سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦ بمجرد إنهاء الحرب العالمية الثانية .

وكل ما أستطيع تأكيده أن ما عاناه الحس الوطنى من بلبلة بل أحيانا كثيرة من قنوط وشلل لم أحس أبدا وأنا أعايشه وأواكبه أنه راوده اليأس أو الاستسلام فى أى وقت من الأوقات ولا هو سمح للخداع أو الطغيان أن يطفئ شعلة التزامه وإصراره حتى فى أحلك لحظات أزماته المتراكمة .

وبقيت حصيلة الحركة الوطنية دائما موضع تمحيص وتقييم وانشغال لا يمل وبقيت العناية والاهتمام باستيعاب المتغيرات والمؤثرات المستجدة وما كان أكثرها وأعنفها تحتل قمة اهتماماته وتأملاته وانفعالاته فكان الشارع السياسى حيا نابضا واعيا رغم ما يبدو على السطح من ركود أو ضياع وكان الشارع الوطنى يغلى بالانشغال والتفكير والتدبير لتحقيق آماله ، وفى هذه البيئة من

الانشغال والتطلع والتأزم إزداد إلتصاقى والتحامى بالحس والتطلع الوطنى وزاد عزمى على التجاوب والتفاعل مع غاياته .

التحام بغير ميعاد

فى شهر مايو عام ١٩٤١ عقب أحداث جسام على مستوى الحرب العالمية والأوضاع الداخلية فى مصر ، كان الجيش البريطانى قد عانى هزيمة بالغة فى الصحراء الكبرى بعد تدخل الفيلق الألمانى الأفريقى بقيادة روميل ، فسقطت بنغازى فى ١٢ إبريل واحتلت السلوم داخل الأراضى المصرية فى ٢٠ مايو ، وزحفت قوات المحور إلى مرسى مطروح ، وصاحب ذلك غزو يوغوسلافيا واليونان واحتلت اثينا وجزيرة كريت على مشارف الشواطئ المصرية . وفى نفس الوقت ثار العراق بقيادة رشيد عالى الكيلانى ضد القوات البريطانية المحتلة . ولا شك أن اجتياح القوات الألمانية لبولندا وهولندا وبلجيكا ثم فرنسا اعتبارا من ٢ سبتمبر ١٩٣٩ اعطى مصداقية واقتناعا لتقدم الفيلق الألمانى بعكس التقدم السابق للقوات الايطالية فى خريف ١٩٤٠ عندما وصلت إلى السلوم وسيدى برانى وسرعان ما انهارت فى سبتمبر من نفس العام وانسحبت فلول موسولينى المتخاذلة وأخلت برقة وبنغازى .

كانت الأوضاع الداخلية تتسم بالغليان بعد إقالة وزارة الوفد ، صاحبة الأغلبية الشرعية فى ديسمبر ١٩٣٧ ، وحل البرلمان فى منافسة

على الشعبية ارتكنت فيها السراى على مؤازرة شيخ الأزهر وانشقاقات الصفوف الوفـدية ، وجاءت وزارة محمد محمود الذى أقعده المرض بعد بضعة أشهر وسقطت زعامات الوفد فى الانتخابات التى أدارتها حكومات الأقلية غير الشرعية ممثلة فى على ماهر بميوله لتدعيم توجه السراى نحو العطف على المحور ، وتعرضت للضغط البريطانى للتعاون مع المجهود الحربى والضغوط الشعبية الرافضة لعودة التحكم والاحتلال البريطانى وميول السراى للتفاهم مع المحور .

وكانت الدعاية الألمانية والايطـالية قد ركزت منذ بوادر الحرب العالمية على أن هدفها محاربة الاستعمار وأن انتصار المحور هو الضمان لتحرر الشرق الأوسط من عبودية الاستعمار ، ونددت بالديموقراطية الاستعمارية التى عانى من مهازلها الشعب المصرى الكثير تحت وطأة المندوب السامى والسراى . وشاعت الشائعات لاتجاه بريطانيا لفرض السيطرة العسكرية الكاملة على مصر تحت وطأة هزائم المرحلة الأولى من الحرب وستفرض على الجيش المصرى المشاركة وتعيد نظام السخرة أو فرض العمل الإلزامى لدعم قدراتها . وعملت الدبلوماسية الإيطالية لتأكيد تعهد إيطاليا ، بالاستجابة للمطالب المصرية بالاستقلال والحرية . واتجه حتى بعض الزعماء ، مثل اسماعيل صدقى وعلى ماهر للحفاظ على أكبر قدر من حياد مصر وعدم جرها لتبعات الانحياز .

ورغم بقاء رواسب شك فى أطماع وممارسات إيطاليا الاستعمارية فإن كشف وحشية الفاشية والنازية لم يكن قد تم ، ولم يكن أى ادعاء بريطانى قابلا للتصديق ولهذا رفض على ماهر إعلان الحرب على ألمانيا واكتفى بقطع العلاقات الدبلوماسية معها تجاوبا مع أحكام المعاهدة خاصة وقد تصاعدت الشكوك فى احتمال انتصار الحلفاء أمام جبروت جيوش هتلر المنتصرة . وبعد استقالة على ماهر لتصاعد عدم الثقة البريطانية فيه حل محله حسين سرى ، ثم حسن صبرى ، مما أدى إلى تفكك الجبهة الوطنية وانفلات اطماع السراى وتصاعد حدة الأطماع والمطالب والتحكم البريطانى وانعكس ذلك على تصاعد الغليان والتوتر والشكوك الشعبية .

وفى صباح يوم من أيام مايو عام ١٩٤١ ، وصلت إلى كلية الطب ووجدت فناءها يموج بحركة غير عـادية وبه مجموعات صغيرة من الطلبة يتحدثون فى حمـاس ، وكالعادة بأصوات مختلطة متضاربة فهمت منها أنه كانت هناك محـاولة لعمل مظاهرة ، ولكن يبدو أنها فشلت ، وفى عجلتى للحاق بمحاضرة فى التشريح ، للدكتور درى البريطانى ، لم اقترب من أى من المجموعات وأسرعت نحو المدرج ولم أكد استقر فى مكانى حتى لاحظت جوا غير عادى فى المحاضـرة وهمهمة غضب وتوتر ، والاستاذ درى الانجليزى واقف وهو يحدق فى الطلبة بنظرة فاحصة ثاقبة ، ووجه محتقن صارم ، ولكن مع تمالك

الأعصاب والبرود الانجليزى التقليدى فى هذه المرحلة التاريخية ، خاصة عند التعامل مع الخصوم أو غير الأنداد خاصة من شعوب المستعمرات . ولم استطع أن أفهم سبب الموقف أو سؤال أحد عن السبب لأنه لم يكن بجانبى أحد فى الصف الأخير وقد وصلت متأخرا عن بداية المحاضرة ولكنى قرأت على السبورة عبارة بانجليزية ركيكة على ما أتذكر تعلن الاحتجاج على ألفاظ يدعى أنها صدرت من الأستاذ المحاضر ، مؤداها أن التحرش بالامبراطورية فى وقت أزمتها مرجعه إلى أن الامبراطورية لا تستعمل الشدة والقسوة مع من تعودوا أن يساموا بالشدة والقسوة ، وأن كاتبى العبارة يحتجون بعنف على هذه الإهانة . وأخيرا تحدث الإستاذ درى الانجليزى بصوت هادئ ولكنه قاسٍ وساخر وقال إنه لن يتعرض لتفاصيل الأحداث لأن المحاضرة ليست مكانها ولكنه فقط يريد أن يدلل على المعنى الأساسى لملاحظته وإعطاء درس من الواقع والتجربة . وقال إن هذا الدرس سيظهر من الاستجابة لمطلبه ، فإنه يطلب من كاتبى العبارة الاحتجاجية على السبورة والذين لم يدونوا اسماءهم أن يقفوا ليعلنوا اسماءهم واحتجاجهم ويتحملوا مسئولية الموقف ومسبباته وهو بعد ذلك يستطيع أن يأخذ علما بالاحتجاج .

ومضت لحظات صمت وتوتر طويلة ثقيلة ، وبدأ يتلاعب على وجه الأستاذ الجامد شبح ابتسامة ساخرة متحدية قاسية ، وخيم على

الطلبة الوجوم ورأيت من الخلف رء وسا تشيح بوجهها ورء وسا تطأطئ فى أسى ، وزادت شحنة التوتر فى المدرج ولكن الهدوء والسكينة القاتلة استمرا وكان الجميع قد حبسوا أنفاسهم . وكان واضحا أن التوتر والمرارة يشترك فيهما الجميع أولئك الذين يعلمون خلفية المواجهة وأولئك الذين لا يعلمون كل التفاصيل . وكان واضحا أن الأستاذ درى هو أيضا كتلة من التوتر والتحفز رغم هدوئه الظاهر وبدا واضحا أنه يتشفى ويستعذب كل لحظة من الموقف المهين .

وأخيرا تكلم وكانت كلماته تقطر قسوة وسخرية ونبراته بطيئة واضحة وقال إن هذا هو الدرس العملي عن صحة الرسالة التى حملتها عبارته موضع ما يسمى بالاحتجاج ، وأن أولئك الذين أثاروا الأحداث وكتبوا عبارة الاحتجاج يثبتون الآن صحة حكمه على خلفياتهم وأنه للمرة الأخيرة يدعوهم للوقوف فى شجاعة ووضوح لمجابهة مسئوليتهم إن كانوا أهلا لها .

وفى الواقع أنى لا أتذكر الآن ولم أستطع أن أتذكر عقب الأحداث ما الذى دار فى ذهنى ، والذى أنا متأكد منه أن ذهنى رفض فى هذه الدقائق منطق الحسابات والتقدير للمبررات والموانع ، ووجدت نفسى أغلق كراس المحاضرة بهدوء غريب وأقف بتؤدة وأنزل درجات المدرج بنفس التؤدة نحو الأستاذ درى ، وكنت معروفا ومشهورا بالتحفظ والهدوء والحزم وكان أسلوبى للتعامل مع الزملاء

والمدرسين هو الاحترام المتبادل . وعليه لم أكن حتى هذا اليوم من الشخصيات العامة أو القادة المرموقين لجماهير الكلية رغم تاريخى القديم ، ولكنى مازلت أتذكر موجة الصخب التى اجتاحت المدرج أثناء نزولى المتأنى ، وكان النداء الغالب هو قولهم «كله يا أبو جلال» ، وكان أبو جلال وهو اسم بلدى (مركز شربين) واسم عائلتى هو الاسم الشائع عنى بين المعارف خاصة الذين صاحبونى فى دراستى الثانوية فى حى شبرا (مدرسة التوفيقية) لا أظن أن «كله» أو «افترسه» بالمعنى المقصود كانت تحمل أى مدلول سياسى ، فلم يكن معروفا عنى أى تطرف سياسى أو ميل للعنف ولكنى أظنه كان يعكس اقتناع زملائى بما يعرفونه عنى أكثر من التزام بقدر من الجدية والصرامة فى التعامل العام .

ولا أتذكر التغييرات التى طرأت على وجه الاستاذ درى حتى وصولى ، وربما لم ألحظها خلال انشغالى بانفعالاتى وفى الحقيقة اننى لم أره أو أر الفصل إلا من خلال غمامة خلال هذه المرحلة .

ووقفت أمام الأستاذ فى هدوء لا أعرف سببه أو مبرره ، ولكن فى إصرار وتحد واضح مبعثه الاقتناع والثقة وليس الغضب وكان هذا مبعث دهشتى .

وكان واضحا أن الأستاذ لم يفقد توازنه وإن كان قد اختلطت معالم من المفاجأة والتوجس فى وجهه .

وبعد نظرة فاحصة لوجهي حتى هدأ صخب المدرج سألني في هدوء عما إذا كنت أنا كاتب هذه العبارة على السبورة ، وفي هدوء ووضوح نفيت ذلك فعادت شبه ابتسامة إلى وجهه وسأل لماذا إذن تنزل إلىّ كبديل للمسئولين عنها ، ومرة أخرى أجبته بهدوء ووضوح : ذلك لأني آسف أني لم أكتبها بنفسي لأني لم أكن موجودا . ومن الطبيعي أن موجة من الصخب اجتاحت المدرج كان فيها تشجيع ، وكان فيها إفراغ لتوتر مكبوت ، وكان فيها تحد لخصم عنيد كاد يعتصر غالي العزة ، ولكنه صخب أيضا اختلط بهياج الشباب وفكاهة مصر التي تعالج بها الأفراح والأتراح وعادت صيحات «كله يا أبو جلال» تتعالى .

ولابد أن الأستاذ دري لاحظ عدم رضا في التفاتي إلى المدرج لأنه انتظر حتى هدأت الضجة إلي حد ما ووجه القول لي : أظنك تتفق معي أنه لا مجال لاستئناف الحوار في المدرج وقد يكون من الأنسب استكماله في مكتبي .

وفي مكتبه سمعت تفاصيل القصة لأول مرة وثبت لي فيما بعد دقتها فقد دخل الكلية في الصباح الباكر على عادته ، ولكنه وجد تجمعات من الطلبة في مناقشات صاخبة ، والبعض يحاول إسماع صوته للجميع ، ثم بدأت بعض الهتافات رددها البعض وهم ينظرون إليه، وسأل بعض الطلبة عن معنى الهتاف وهو يعلم أخبار معارك الصحراء الشرقية السيئة فترجمت إليه على أنها دعوة لروميل ليتقدم إلى

الأمام وتحية لهزيمة الاستعمار . وأنه فعلا علق للطلبة الذين تجمعوا حوله وهو يسأل عن الترجمة بما لا يخرج عن مضمون عبارة الاحتجاج على السبورة من اعتياد الجمهور على الشدة في المعاملة وانفلات زمامه لأن الأمبراطورية لا تعامله بالشدة المعتادة ، وحاول توسيع أبعاد الخلاف تحت ستار أنه يسره أن تتاح فرصة لحوار موضوعي ومنطقي لتوضيح المواقف ، بعد أن أبدى إعجابه واقتناعه بموقفي وأسلوبي وأردت أولا تصفية هذه المحاولة المفتعلة لتفادي لب الموضوع فسألته ما هي مبررات إعجابه هذا فأفاد بأني امتلك الشجاعة ليس فقط لتحمل مسئوليات مواقفي ولكن أيضا مواقف الآخرين ، وكل ذلك بهدوء وتفكير . فسألته سؤالا ماذا يفعل الحمار إذا جذبت ذيله ، ولما حاول التهرب أجبته في الغالب يرفس الجاذب ، فلماذا تعتبر سيادتكم استعدادي للرفس علامة على التحضر في حين أن الزملاء الذين لجأوا لأسلوب متحضر بتسجيل صامت لاحتجاجهم على السبورة غير متحضرين ، وأجبت أنا على السؤال بأن ذلك لأني أقل تشربا للمفهوم الحضاري العريق وأكثرهم تأثرا بالرد الانعكاسي العنيف الذي يمثل المنطلق الغربي الانجليزي هو بمقياس آخر شامل أقل حضارة لأنه غريزي . وابدى تتبعا للمنطق وتحفظا على النتائج بإصراره على شجب موقف أصحاب الاحتجاج .

وانتقل إلى المضمون السياسى للخلاف وعما إذا كانت المطالبة بتقدم رومل تعبر عن وعى وإدراك لجسامة المصائر التى هى فى الميزان وعما إذا كان التوقيت هو أنبل توقيت وبريطانيا فى سلسلة من المحن المصيرية .

ورفضت المناقشة فى رذائل ونواقص الفاشية ، وذكرته أن البدائل الأفضل لم تكن موضع مقاصد السياسة البريطانية فى مصر سواء كانت المبرر الأول لطرد نابليون أو حماية الخديو والدائنين ، أو القضاء على الثورات الشعبية العرابية وثورة ١٩١٩ وعليه فمن السذاجة محاولة الاقناع بأغراض بريطانيا النبيلة لحماية مصر من الفاشية ، أما عن التوقيت فإنه منطق يثير دهشتى فهل كان توقيت بريطانيا أيام الثورة العرابية أو سنة ١٩١٩ توقيتا متميزا بنبل واضح أم أنه يدعى أن بريطانيا بعد انتصارها فى هذه الحرب ستتحول سياساتها الخارجية إلى مباراة للكريكيت تتقرر فيها الأصول حسب قواعد النبل والأخلاق . وألا يرى هو أنه من التخلف والغباء أن نلتزم نحن وشعوب المستعمرات بقواعد لعب لا تمت بصلة إلى واقع الممارسة العالمية فى شىء .

وانتهى الحوار بالشكر والتقدير منه واعتباره أن ملاحظاته لم يكن مقصودا بها الشعب المصرى ككل ، وأنه الآن مقتنع أن انفعاله من تصرفات مع بعض الأفراد دفعته لتخطى حدود المنطق ، وأنه يكن كل

التقدير والاحترام لحضارة مصر العريقة وعلى استعداد للاعتذار عن الانطباع الخـاطىء الذى أعطاه ، فأصررت على أن الاعتذار يجب أن يقدم للطلبة فى مدرجهـم ولم يبد مانعا إذا توفر جو الحوار والموضوعية .

وخرجت لأجد تحركات واسعة فى الكلية وكان تيار قد لجأ إلى العميد الاستاذ النابغة سـليمان عـزمى وأصـروا على أن أذهب لملاقاته ، وكان رجلا بقدر نبوغه وتميزه فى العلم والخلق على درجة كبيرة من السذاجة السياسية كما ستظهر تجاربى معه فيما بعد ، وقابلته وأنا مازلت أكن له كل حب واحترام وتقـدير ، ووجدت عنده تصورا أنى زعيم للطلبة وحـاولت جاهدا أن احيطه بتسلسل الأحداث ولست متأكداً أنه أصـغى إلىّ كثيرا وكان همه أن الأحـداث لا يجب أن تتحول إلى أزمة .

وكان طبيعيا أن يمتد الحوار والنقاش حول الأحداث فى الكلية وكان طبيعيا أن يمتد بعض هذا الحوار إلى أبعاد أوسع من هذه الحادثة بالذات وبتناول الأحداث العالمية والقومية وكان طبيعيا أن أكون مرجعا فى بعض هذه الحوارات .

وكانت هناك ظاهرتان رئيسيتان لفتتا نظرى أولاهما أن القيادات السياسية التقليدية ، ممثلة فى الأحزاب وممثليها ، لم تكن مؤهلة أو

معدة لتزعم بلورة مواقف قومية مؤثرة وأن الرأى العام المتنور بدأ يحس بهذا التخلخل .

والظاهرة الثانية أننا جميعا كنا معبئين بإحساس وطنى متأجج ولكن بدا أن أيا منا لم يكن يعرف الإجابة بل حتى الأسئلة نفسها عن أين نوجـه وكيف نعبـىء هذا الرصيد للتعامل مع مجهولات المرحلة والمستقبل ، بل إنه كان أدعى للأسى أن أغلبنا لم يكن شديد التفاؤل بأننا كوطن سنستطيع ذلك أو حتى سنحاوله بعزم وقدرة .

الباب السادس

نحو فكر وطنى

جبهة الأحرار والديمقراطية

انشغل بالى انشغالا كبيراً بدروس هذه التجربة ، ورغم ضغوط دراسة الطب المكثفة فقد أمضيت الشهرين التاليين أصارع خاطراً ملحا أن الانتماء والأصالة الوطنية ليسا كافيين لمجابهة أعباء العمل الوطنى فى المرحلة الحاضرة ، وأنه حتى التراث الوطنى لثورة ١٩١٩ (الاستقلال التام أو الموت الزؤام) والذى كنت أعتبر نفسى واحدا من ورثته ومريديه لم يعد ملائما للإجابة عن التحديات البالغة الخطورة التى تجتاح العالم وتجتاح المجتمع المصرى ..

وشغلت نفسى فى هذه المرحلة بالإطلاع على كل المجلات السياسية البريطانية التى كانت تصل مصر وبعض الأمريكية التى كانت تصل إلى يدى وسعيت للوصول إلى المؤلفات بما فيها ما تصدره الاستعلامات البريطانية بل والمحورية التى كانت متاحة حتى دخول إيطاليا الحرب ١٩٤٠ ، وأدمنت متابعة كل الإذاعات الأجنبية بالعربية والانجليزية ليس فقط متابعة للأخبار ، لكن للتحليلات والدراسات . وعنيت بمتابعة حصيلة المكتبة المصرية والمحاضرات العلمية والفنية المتاحة بصرف النظر عن توجهاتها الفكرية طالما أنها اتسمت بطابع الدراسات والمنهج العلمى . وبالطبع لم يدخل فى مجال اهتمامى أى من النشاطات الحزبية لافتقارها إلى هذه الخواص والمعايير . وعنيت أن أسمع لكل دارس صاحب فكر ناقلا كان أو مبتكرا ليس فقط فى البعد السياسى والوطنى ولكن أيضا فى البعد الاقتصادى والحضارى

وعاش معى هذا الالتزام حتى يومنا هذا حتى أصبح سمة من سماتى الراسخة فتشعبت اهتماماتى حتى تعذر تخصصى فحشرت فى مجال خبراء السياسة والاستراتيجية والاقتصاد والعلوم على المستويين الوطنى والدولى .

وعليه لم يأت شتاء ١٩٤١ إلا وقد تبلور فى ذهنى توجه محدد وبادرت إلى وضعه موضع التنفيذ ومازلت بعد ٥٥ عاما مثابرا على جعله هدفى الأول فى دروب الوطنية .

وكان هذا الخاطر هو أن الاحتياج الأكثر إلحاحا والأبعد أثرا الذى استطيع أن أجند جهودى لسده هو مساعدة الآخرين على التكاتف للبحث عن فكر جديد يفى بمتطلبات الوطنية الأساسية .

وقد بدأت بعقد لقاءات مع مجموعة من الشباب المتعلم وكان اختيارهم على أسس محددة أولا النضوج الشخصى والذهنى ، وثانيها الانشغال بالاهتمامات العامة ، وثالثها عدم التبعية لمنحى أيديولوجى أو حزبى معين.

وعقدنا أول اجتماع فى خريف ١٩٤١ فى جزيرة الشاى بحديقة الحيوان وكان اقتراحى لقاءات دورية تأخذ منحى دراسى وتحليلى بتناول القضايا الوطنية الأساسية والأحداث العالمية والمدارس السياسية . على أن نتجنب التبحر النظرى ولكن نركز على الجوانب

التى لها اتصال مباشر أو انعكاسات مهمة على القضايا الوطنية ، فالهدف النهائى أن نصيغ فكرا وطنيا موضوعيا ومعاصرا يصبح أن يكون دليلا للعمل الوطنى فى المرحلة التالية .. وكان أعضـــاء هذه المجموعة مختلفى الانتماءات الاجتماعية من الاقطــاعية ذات الروابط مع أحزاب السراى والأقليات إلى الطبــقة المتوسـطة الناشئة ذات الجذور الريفية ورغم أن أغلبـهم كان من كليـة الطـب فقـد كان منهم من هم في كليات متنوعة .

ولم تكن هذه المجموعة تنظيما سـياسيا حتى بداية الحـركة الوطنية سنة ١٩٤٥ وبالتالى لم تكن فى أى وقـت حـركة سـرية ولم يكن لها تخطيط تنظيمى يمثل مسـتويات فى القيـادة أو المسـئولية ، ولم يكن لها اسـم حتى ١٩٤٢ عنـدما ظهرت الحاجة للإشارة إليها بغير مجموعة عصام جلال ، فاخترنا لها اسـم «جبهـة الاحـرار الديمقراطيين» ولست أعرف مدى التوفيق فى اختيـار الاسم ولكنى أتذكر المناقشات التى بررت هذا الاختيار فجبهـة فى نظرنا فى هذا الوقت كانت تعـبر عن التقاء مختلف التوجـهات السياسية والفكرية تحـت لواء واحد مشترك هو الالتزام الوطـنى ، والأحرار لم نقصـد التعـبير بـها عن توجه ليبرالى ولكن قصـدنا بالأحـرار السـاعين للتحرر الفكرى والاسـتقلال وامتـلاك ناصية المصير الوطنى من المغتصبين الاجانب والمصريين ، والديمقـراطية لم يقصـد بها مدرسة

الفكر السياسي الغربي ولكن قصد بها تأكيد المشاركة الوطنية المتكافئة والمؤمنة بكل فئات الشعب .

وكان طبيعياً أن الممارسة أدخلت تحويرات عدة على مر الأيام ففكرة تنقل مكان الاجتماع أصبحت استثناء وليس قاعدة وأصبح المكان المضاد هو منزلي في ٥٦ شارع شبرا وهو منزل قديم من مخلفات عهد الخديو توفيق ذو حجر ضخم كان يسمح بجمع كراسي المنزل كل مغرب يوم خميس باستضافة ما قد يصل إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين شخصا ، ولم نكن نقدم مشروبات أو خلافه ، وإعداد مادة اللقاء بدلا من أن تكون دورية استقرت تدريجيا أن تكون مسئوليتي الشخصية ، وكذلك إدارة الحوار حتى عندما يكلف عضو آخر فكان مطلوبا أن أدعم عرضه وأكمله . وبالتدريج تحولت الحلقة المغلقة من ثماني إلى ١٢ عضوا ، إلى حلقة مفتوحة يدعى إليها الأصدقاء وباختيار أو مسئولية أي عضو ثم تطورت لدعوة المعارف ومعارف المعارف ، وبحكم عدم انتظام الحضور فرضت على أعضاء الحركة الأساسيين غرامة مالية على المتأخرين والغائبين كانت مصدر الدخل الرئيسي لأنه لم تكن هناك اشتراكات .

ثم انتقلنا لعمل جلسات في الضواحي لإعداد الطلبة المستجدين تحدث فيها عدد محدود من أعضاء المجموعة ومرة أخرى بتدعيم واستكمال مني شخصيا .

وبعد استقرار وجود المجموعة واستمرار نشاطها بدأ الاحتكاك بالتيارات السياسية العاملة أما بحضور ممثليها للقاءات تعقدها جماعات مثل الإخوان المسلمين أو دار الأبحاث الماركسية أو طلب بعض الأعضاء بدعوة أفراد من هذه المجموعات لحضور بعض جلساتنا . وكان من أوائل المجموعات التى تقابلنا معها الإخوان المسلمين لوجود وجود واضح لهم فى الشارع الوطنى ، وأتذكر أن اللقاء معهم لم يكن فيه أى توجه نحو صدام أو اختلاف ، وإن كان واضحا خلاف التوجه والأولويات ولكن الانطباع العام لهذه اللقاءات كان القبول المتبادل لجدية الطرف الآخر وجدوى بل ووجوب الحوار معه باعتبار أن أدوارهم مكملة ولم نضع مصر الفتاة فى برنامج الاحتكاك لعدم قبول توجههم الفاشى وقمصانه الخضراء وتذبذبهم السياسى والدينى كما بدا لنا فى هذه المرحلة .

وعلى العكس وجدنا فى الإخوان المسلمين بعض العناصر الملتزمة والجدية والمستقيمة رغم تقديرنا أن جموعهم الكبيرة كان الكثيرون منهم بعيدين كل البعد عن الإلمام والوعى بأبعاد القضايا الوطنية والعالمية ولا يبدو أن جهد الجماعة متوجه لعلاج هذا القصور .

وكان الشباب الوفدى ينفرد بين شباب الأحزاب بمصداقية إلتزامه الوطنى وفاعلية حركته واستعداده لتحمل المسئولية ، لكن

جهوده واتجاهاته شتتتها انقسامات قياداته وإنغماسها فى المعارك الحزبية .

ولم يكن للحركة الماركسية وجود محسوس فى الشارع الوطنى سنة ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ولكن كان هناك مثقفون بارزون يلعبون دورا حيويا فى إقامة الجسور بين الفكر العالمى والفكر الوطنى وكانوا محل إقبالنا وتقديرنا .

وفى ١٩٤٢ بدأ وجود حلقات تنظيمية يسارية مغلقة على رصيف الشارع الوطنى ، وأتذكر أن التعامل معها لم يظهر له أى مبرر إلا ١٩٤٤ ، وكان دافعه حب الاستطلاع وتقييم مستقبل فاعليتها ، وأتذكر أن انطباعات هذه اللقاءات الأولى كانت سلبية .

وأصل هذه الجماعات فى الفئة الوسيطة التى نقلت الفكر الماركسى عن الحركات الماركسية الأوروبية من فلول الهاربين من الاجتياح النازى لفرنسا وبولندا واليونان والذى تركز على أغنياء اليهود الموسرين والمتفرنجين الذين مثلوا السند المالى للاحتكارات الاستعمارية والاقطاعية ، بعكس رواد الفكر الاشتراكى الوطنيين الذين عكسوا حس وتطلعات الشارع الوطنى ، ولهذا كانت هذه النزعة الماركسية مدعاة لشكوك كل من تربى فى دروب الشارع الوطنى ، والأسلوب السرى كان أسلوبا عازلا ليس فقط للمشاركة الجماهيرية ولكنه كان أيضا حائلا على أعين هذه القيادات أكد

غربتها وعدم صواب أو مصداقية التحامها بالشارع الوطنى بصرف النظر عن أمانة مقصدها أو عدمه .

وعليه فأعترف أن النظرة الناقصة والمتشككة حكمت انطباعنا عن هذه الخلقات منذ مرحلة مبكرة فى وجودها فى الشارع الوطنى ، وزاد من هذا الانطباع ما بدا من تناقض موقفها من قضية الديمقراطية والذاتية الوطنية وعدم مصداقية إخلاصها فى الالتزام بها من منطلق إيمانها بديكتاتورية الحزب كممثل لديكتاتورية الطبقة العاملة العالمية ، وهو ما كان موضع رفضنا ومعارضتنا فى أكبر المراحل الذاتية الوطنية خاصة وأن أشكالها التنظيمية وتناقضاتها الصبيانية الإباحية بينت عمق هذا الانطباع .

وبدأت نوعية الحاضرين تدخل عليها تنوعات ، فبدأ بعض صغار التجار من منطقة شبرا من المتعلمين يحضرون الاجتماعات بناء على دعوة معارفهم ، وكذلك بدأ بعض العمال من ذوى الاهتمامات النقابية يظهرون فى هذه الاجتماعات ، ولأننا كنا نتبع برنامجا منهجيا يتناوب بين القضايا الوطنية والاهتمامات العالمية فاعتقد أن مدى الاستفادة من الناحية التعليمية كان محدودا بحكم تفاوت المستويات وعدم اتصال الحضور والمتابعة بالنسبة للغالبية ، ولكن الواضح أن هذا اللون من الانفتاح الفكرى كان يتجاوب مع الرغبة العامة والاحتياج الغالب .

وكانت تجربة فرض حكومة الوفد على السراى فى ٤ فبراير ١٩٤٢ بعد حصار عابدين وانذار الملك بتنحيته عن الحكم بمثابة صدمة بالغة تبعت مسار الحرب العالمية ضد مصلحة بريطانيا وبالتالى سلسلة من الأزمات فى العلاقات المصرية البريطانية ، وازدياد حدة وطأة الحرب الاقتصادية والاجتماعية على الشعب المصرى ، كما كان له أثر بعيد على مشاغل الشارع الوطنى ومن ثم انعكس على مسار حلقتنا .

وقد شاركنا سائر المثقفين فى محنة الأسى والحيرة ، فمن ناحية لم يكن حكم السراى ولا الغزل القائم بين هذا الحكم والفاشية والنازية ، التى بدأت تتضح طبيعتها العنصرية الدكتاتورية التوسعية ، مما لا يصح تأييده أو الدفاع عنه . ومن الواضح أن دافعنا للتشفى والتطلع لانهيار التسلط الاستعمارى البريطانى كان منحى منطقيا ومشروعا ، ولكن التساؤلات والتحفظات حول جدارة ومصداقية البديل المفترض وهو تحالف السراى والفاشية كانت الشكوك تتصاعد وتتراكم حوله خاصة وأن شهر عسل شعبية الملك الفتى فاروق البرىء الوسيم التى ذاعت فى أواخر الثلاثينيات قد انهارت وانفضحت سذاجتها ، ورسخ الاقتناع بأن دور السراى التاريخى لم يتغير ولن تتغير أهدافه ومراميه من عزل واضطهاد القوى الوطنية الشعبية والتواطؤ مع القوى الدخيلة المغتصبة .

. ومع كل هذا كان الحصار العسكرى لعابدين وإنذار الملك بالعزل بمعرفة المندوب السامى البريطانى وقائد الجيش البريطانى فى مصر بمثابة صفعة للكرامة والعزة الوطنية مهما كانت أسباب الخلافات الداخلية حتى وإن طالب الاستعمار بتسليم الحكم لحزب الأغلبية .

وكانت الانقسامات فى صفوف الوفد والشكوك المتزايدة عن تآكل صلابته الثورية وطهارته السياسية تراود البعض ، ويغذيها جهد منظم ومكثف من كل العناصر المعارضة له . كان وصول الوفد على حراب الانجليز التى استقرت وظيفتها التاريخية على إزالة الوفد وهدم قاعدته الدستورية فرصة ذهبية لاذكاء نار الشك والمعارضة . والحقيقة أن كثافة وجود القوات البريطانية وحلفائهم ، واتساع دائرة سيطرتها العسكرية على كل مرافق الحياة ، ودورهم البارز فى إحكام حلقة الأزمة الاقتصادية التى تزداد ضغوطها على كل فئات الشعب ما عدا أغنياء الحرب من مقاولى قوة الاحتلال وتجار السوق السوداء لم يكن يدع مجالا للتعامل المنطقى الهادىء مع الأحداث .

ومن ثم فإن الحصيلة النهائية بالنسبة لأعداد غير قليلة فى الشارع الوطنى كانت الغضب والشك فى جميع أطراف الأحداث ، وتصور كثير منا أن هذه كانت بداية النهاية لجدوى ومصداقية كل المؤسسات السياسية ، مما يحتم السعى الحثيث نحو البدائل حتى

وإن كان أفراد كثيرون من المنضوين تحت لواءات هذه المؤسسة لا يشك فى وطنيتهم وقدرتهم على العطاء ولكن فى أطر مؤسسات وتوازنات وتوجهات سياسية جديدة تتجاوب مع المتغيرات الجارية .

وعليه فقد احتفظ البعض بثقتهم وأملهم فى شخص النحاس وإن تصاعد الشك فى صلاحية مؤسسته السياسية وقيادته لها .

ولم تجد النخبة المعارضة بدا من استمرار تعلقها بشخص أحمد ماهر وزملائه كأفضل البدائل للقيادة الوفدية غير المقبولة .

ومن ناحية أخرى كانت هذه الأحداث تمثل دعوة مفتوحة لكل التوجهات الجديدة غير الحزبية من يمينية ودينية ويسارية لتتصارع على ملء الفراغ السياسى الذى لا شك أن هذه الأحداث أرست أركانه وبقيت الظاهرة الثابتة فى الشارع الوطنى لأعوام طوال أفلحت ثورة عبد الناصر فى ملئه لسنوات قليلة ولكنه عاد ليبقى السمة الحاكمة للمنظمة السياسية المصرية المعاصرة حتى يومنا هذا .

ولم يخرج موقفنا فى مجموعتنا عن هذا الانفعال ، وربما زاد إيماننا بالدور الذى اخترناه لأنفسنا وهو البحث وطرح فكر وطنى جديد ، وربما ازداد اقتناعنا بضرورة وجدوى جهودنا ، وعبرنا عن هذا التجديد ببداية تدارس إطلاق اسم على المجموعة انتهى بالاتفاق على «جبهة الأحرار الديمقراطيين» كما سبق وبينت ، ثم تبعه قرار إصدار

بيان بأبعاد اهتماماتنا وصدر الكتيب مطبوعا على البالوظة تحت عنوان «وطنى» ، وللأسف فقدت كل نسخى منه خلال الاعتقال ، من نهاية ١٩٤٧ حتى أوائل ١٩٤٩ ، ولكن لأننى كنت مؤلفه بتكليف من زملائى ، فأتذكر أن توجهاته العامة كانت تدور حول متطلبات التحرير فى ضوء المتغيرات العالمية والداخلية ، وطبيعة المؤسسات الوطنية المناسبة التى ترتكن لكوادر ورواد جماهيرية مرتبطة وممثلة للتجمعات الوطنية المكافحة وتهميش دور التنافسات والمزايدات لمحترفى التنافس على السلطة وضرب تآمرهم مع القوى الدخيلة من السراى والاستعمار .

وفى إطار البلبلة والقنوط أذكر أننا ركزنا على إحياء الثقة والعزة الوطنية والأمل بشكل مكثف ، وبالغنا فى عدم مسئولية الجموع الوطنية على الأخطاء والجرائم التى ارتكبت فى حق الوطن ، وحملنا كامل مسئولياتها للقوى الدخيلة والمتواطنين من المستفيدين .

ومن ثم عكس هذا البيـان المفصل طبيعة الوطنية التحررية للمجموعة ، وعدم التزامها أو اتفاقها على أى منحى إيديولوجى ، وحدد توجهاتها والتزامها بلعب دور فعال فى قيادة حركة التحرير والتجديد وتكثيف الجهود نحو هذه الغاية توقعا لإنتهاء الحرب العالمية وإرساء نظام عالمى جديد .

ولعل ذكرياتى عن تطور العلاقات داخل الجماعة أو ما سمى الجبهة فيما هو يدعو إلى الوقوف عنده ، ليس من منطلق تأثيره على مسار

نشاطها فى المرحلة التالية هى وغيرها من الجماعات المستجدة فقط ، ولكن أيضا من حيث انعكاساته على نمو شخصيتى السياسية ، ونضوج خبرتى الجماهيرية ، فلقد سبق أن أكدت أن فهمى كان مرتكزا على تكاتف مجموعة من الأنداد فى المسئولية والسلطة وأننا لهذا لم نعتمد إلا حدا أدنى من التشكيل التنظيمى كاختيار رئيس لكل جلسة وتبادل مسئولية التحضير والتقديم ، ولكن بالتدريج نما فى الجماعة اتجاه اظننى لم أخطط له ، ولكننى وجدت ضرورة للتجاوب معه . فقد كان الأعضاء يحبـوننى بقدر متزايد من التقدير والعطف والمحبة كان مبعث سعــادتى ، وانتهى أن يكون مبعـث فخرى وامتنانى ولكنه لم يزل شكوكى فى أنى لا أستحقه ولم أصل بعد إلى مستوى تحمل تبعاته وتكرر تعبيرى عن هذه القناعة لكل الأعضاء اصروا عليه ، ومن ثم بالتدريج أصبحت المتحدث الأساسى المتوقع والمطلوب وأصبحت مساهماتى تكتسب مصداقية ومرجعية تلقائية زادت من توجسى من المسئولية وتبعاتها .

ولكن على المسـتوى الشخصى كان لهذا التقـدير والالتفاف الحميم أثر بالغ على نضوجى من حيث مضاعفة الجهد والعناية للتجاوب مـع الثقـة والتأييد، وازدياد ارتبـاطى والتزامى بهـذه الكوادر المخلصة والمتجـردة من الدوافـع الذاتيـة وهكذا ثبـت لـى هو دائما المدين للقاعدة .

ولم تكن الجمـاعة تعد بنفوذ أو تحقيق أطماع شخصية ، لا من حيث مكانتها ولا امكانياتها ومع ذلك كان انفعال وانشغال المتعاونين معها صادقا وحارا ، وهي ظاهرة لم تكن مقصورة على هذه الجماعة بل على جمهرة الشباب المشتغل بالعمل الوطنى أو المعنى بمساره على تفاوت توجهاتها ومشاريبها . ولم تكن الأوضاع مبشرة بحلول حاسمة ولا نتائج سريعة ، ولم يقلل ذلك فى عزم وإصرار هذه الجموع ، ولقد عبرت عن عزائى للأجيال الجديدة في مراحل تالية فى السبعينات والثمانينات والتسعينات ، وعبرت عن ذلك حتى فى الدول المتقدمة أن حرمت أجيالهم من مدرسة القناعة والإصرار والأمل وبوتقة المشاركة والممارسة وأظن أن جيلى كان أسعد حظا وأوفر فرصة من هؤلاء المحرومين .

الباب السابع

اختراق الحركة الوطنية لصفوف الجيش

مضت سنوات ١٩٤٠ ، ١٩٤٢ بين انكسار القوات البريطانية وتراجعها وتصاعد ضغوطها لتعبئة الموارد والقدرات المصرية وإدارة السياسة المصرية لحساب المجهود الحربى ، وبين مقاومة مختلف التوجهات السياسية لهذه الضغوط وتنامى الرأى العام المعارض لتسليم المقود والإمكانيات لبريطانيا ، والإصرار على الحياد فى إطار الالتزام بالحد الأدنى لأحكام معاهدة ١٩٣٦ ، فيما عدا السعديين الذين نادوا بإعلان مصر الحرب على ايطاليا ومشاركة الجيش المصرى فى الدفاع عن أراضيه إذا ما اخترقتها قوات المحور ، ورغم تحالفهم مع السراى فى سياستها لإبعاد الوفد عن الحكم . وعزز الرفض لدخول الحرب الشك الواسع الانتشار فى احتمال انتصار بريطانيا فى مرحلة الهزائم المتكررة بعد اجتياح حلفائها فى أوروبا وتكرار انكسار جيوشها على حدود مصر أمام إيطاليا فى خريف ١٩٤٠ وروميل فى ربيع ١٩٤١ وفى أواخر ١٩٤١ ضاعفت بريطانيا حشودها وجهودها وتم استرداد طبرق وبنغازى .

وقد صاحب هذا التكثيف للجهود البريطانية تضاعف مستوى الغلاء واختفاء السلع الأساسية حتى المنسوجات الشعبية والزيت والسكر وقل الخبز وشاع أنه إضافة لتوقف التجارة الخارجية نظراً للحصار البحرى فإن احتياجات الأعداد الضخمة من القوات المتحالفة

تأخذ الأولوية على حساب الاحتياجات الأساسية للشعب الذى لم يكن متوجها لقبول تحمل الأعباء دفاعا عن الإمبراطورية الاستعمارية ومثل الشعب البريطانى الذى عانى من نفس المصاعب وزاد الضنك لأن جهود الحكومة لإدارة أزمة التموين افتقرت إلى الكفاءة والأمانة وحسن التخطيط مما شجع على نمو السوق السوداء ونهب أغنياء الحرب ومتعهدى الجيش البريطانى للموارد الشحيحة ، وعجزت موارد الدولة عن أن توفر دعما مؤثراً من خلال إعانة غلاء المعيشة التى لم تصل على أى حال إلا إلى نسبة محدودة من السكان . وزاد الشعور بالرفض وعدم الاستقرار عندما عاود رومل هجومه الناجح فى يناير ١٩٤٢ ، وقدمت وزارة حسين سرى استقالتها بعد أزمة قطع العلاقات مع حكومة فيشى فى فرنسا بناء على طلب بريطانيا ومعارضة صدقى والملك رغم تأييد المندوب السامى لحسين سرى وترتب على ذلك محاصرة عابدين وفرض حكومة الأغلبية برئاسة النحاس الذى رفض محاولة السراى وأحزاب الأقليات إقامة حكومة ائتلافية .

ولا شك فى أن وصول الوفد إلى كرسى الحكم هذه المرة بدا لنا فى الشارع الوطنى مناقضا للمدلول الثورى التراثى لسنة ١٩١٩ كعدو الاستعمار الأصيل والراكب لموجة التأييد الوطنى لطرد الاستعمار .

وعليه كان الوفد موضع اختبار وترقب ، حتى من أولئك الذين وجدوا في التخلص من حكومات السراى المشبوهة بالتواطؤ مع الفاشية أو العمالة للسراى تصويبا مطلوبا للمسار .

ومع ذلك فإن حكومات السراى أرست علامات على الطريق ، فبعد الاجتياح الألمانى لبولندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا اكتفت حكومة على ماهر بقطع العلاقات مع ألمانيا النازية ، ورفضت التفسيرات الواسعة لأحكام معاهدة ١٩٣٦ ، ولم تعلن الحرب أو تقبل المشاركة فى المجهود الحربى واكتفت بإعلان الطوارىء وفرض الرقابة على الصحف والسماح للقوات البريطانية باستخدام الموانىء والمواصلات .

وفى أغسطس ١٩٣٩ عين الفريق عزيز المصرى رئيسا عاما لأركان الجيش المصرى ، وهو بطل عسكرى معروف له دور قيادى فى صفوف القوات العثمانية العربية التى قاومت الغزو الإيطالى لليبيا . وأنشىء الجيش المرابط بعيداً عن النفوذ البريطانى بقيادة أحد أبطال المقاومة الإسلامية العربية العثمانية .

ومن ثم وطدت القيادات الوطنية القومية المعادية للاستعمار أقدامها لأول مرة فى مراكز القوة العسكرية المصرية فمنذ الثورة العرابية والاحتلال البريطانى قبل نصف قرن واستكمل التحول بإيكال وزارة الدفاع إلى صالح حرب باشا ذى النزعة الوطنية الإسلامية .

وقاومت المندوبية السامية هذا التوجه وتصاعدت ضغوطها حتى منح عزيز المصرى إجازة إجبارية مرتين بعد ظهور التفاف الضباط المصريين حوله ، وتدعيمه الحثيث للتوجهات الاستقلالية والوطنية بينهم ، وأخيرا أجبر على ماهر باشا على إحالته إلى الاستيداع بعد مرور عام واحد فى أغسطس ١٩٤٠ ، ورغم ما كان مشاعا من تواطؤ عزيز المصرى فى مؤامرات الاتصال بين المحور والسراى ، وتحبيذه لخلق توجهات مماثلة بين بعض المخاطرين من صغار الضباط فإن تاريخ هذه القيادات ومصداقية التزاماتها الوطنية والقومية ، والعداء والشكوك المتبادلة بينها وبين بريطانيا كانت كفيلة بنشر شعور عام من التأييد والتعاطف معها فى الشارع الوطنى ، بصرف النظر عن مدى الاقتناع بتوجهاتها السياسية . والحقيقة أن الرأى العام كان فى تعطش لأنماط ومثل بطولية وطنية تتعلق بها الأبصار والآمال وكان هذا التعطش هو ركيزة شعبية جمال عبد الناصر فيما بعد .

ولم تقدر بريطانيا أن هناك خطورة لأن تمثل هذه العناصر نواة لحركة ثورية وطنية على منوال ١٩١٩ لافتقار هذه العناصر للارتباطات الجماهيرية والمصداقية السياسية ، ومن ثم زادت حملتها على كل التوجهات المعرقلة للمجهود الحربى . ورغم ذلك فعند دخول ايطاليا الحرب فى يونيو ١٩٤٠ اكتفى على ماهر بقطع العلاقات معها تأكيدا

لاشاعة التفاهم بين إيطاليا والسراى ودوره في ذلك، وصدرت الأوامر للجنود المصريين في الصحراء الغربية بعدم اطلاق النار على الايطاليين ما لم يهاجموهم.

وقد صاحب الهجوم الايطالى الذى وصل الى السلوم زيادة التنسيق مع حكومة حسن صبرى التى جاءت فى أعقاب استقالة على ماهر بعد تدهور علاقته مع بريطانيا، وازداد الهياج والتوتر الشعبى وقامت مظاهرات صاخبة وترددت الشائعات عن تدخل بريطانى وشيك . وأيد السعديون بزعامة أحمد ماهر دخول مصر الحرب وقدموا استقالتهم لعكس التوجه العام السائد فالتهب الشارع الوطنى والحربى حينئذ.

واستمرت الأزمة الى وزارة حسين سرى فى نوفمبر ١٩٤٠ بعد وفاة حسن صبرى المفاجئة فى البرلمان.

وازدادت البلبلة والهياج مع تذبذب الأحوال العسكرية على الجبهة المصرية من هجوم بريطانيا فى ديسمبر سنة ١٩٤٠ ثم الهجوم الألمانى فى ربيع ١٩٤١ ورد القوات البريطانية الى مرسى مطروح . والذى صاحب تضاعف الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والمعاشية وزيادة وطأة الوجود البريطانى بعناصره الاسترالية والنيوزيلندية والجنوب افريقية والهندية وشتات القوى الهاربة من الاجتياح النازى لأوروبا ، وكان لابد أن يصحب ذلك من استفزاز وتحد للحكومة والأحاسيس الوطنية، واحتلال المبانى وإقامة الأسوار الشائكة داخل المدن وعربدة الجنود.

السكارى والمواخير والتهتك، والمشاركة المشهورة والمعروفة لضباط القاعدة البريطانية فى نشاط السوق السوداء وتحالفهم مع أغنياء الحرب والمفسدين والمستغلين.

وتصاعدت نشاطات العناصر الوطنية المتآمرة ضد المحور وإن لم تخرج من كونها اندفاعات مراهقة تميزت بالمغامرة والمقامرة الرومانسية، ولم تمثل فى أى وقت تمركزا له كيانه أو قاعدته فى الشارع الوطنى أو القوات المسلحة .

وتأتى عملية القبض على عزيز المصرى فى مايو ١٩٤١، وكان مازال على صلة بمريديه المحدودين منذ إحالته للاستيداع فى العام السابق بتهمة محاولة استخدام طائرة للهرب للحاق بالقوات الالمانية على الجبهة ، وعطبت طائرته وفشل فى الوصول الى نقطة التقاطه التى كلف بها ضابط نمساوى قديم له خبرة واسعة بالصحراء الغربية من خلال اقامته فى مصر واشتراكه فى المسح الجغرافى مع الجمعية الملكية الجغرافية المصرية وتخطيط لطائرتين المانيتين تنطلقا من كريت لالتقاط عزيز المصرى من طريق الواحات ، وفشل عزيز المصرى فى الوصول الى نقطة الالتقاط مع الطيار النمساوى يوم ٧ يونيو ، وحاول عزيز المصرى الاختفاء إلا انه تم القبض عليه واعتقاله بمعرفة المخابرات البريطانية ، وبذا تخلصت بريطانيا من أحد مراكز الاتصال المهمة مع المحور وانتقمت للمعارضة

الشديدة التى مارسها عزيز المصرى ضد مشاركة القوات المصرية للمجهود الحربى البريطانى ومحاولته لتحديث تسليح وتدريب القوات وخاصة القوات الجوية التى دعمها البريطانيون وكثفوا تموينها بقطع الغيار والذخيرة.

ولأول مرة سنة ١٩٤٢ سمعنا فى الدهاليز السرية للشارع الوطنى عن ضابط شاب اسمه أنور السادات من حوارى وتلاميذ عزيز المصرى وله نفس توجهاته في التعامل مع المحور ، وإن زاد عليه توجهاته للمغامرة والمقامرة ، وسمعنا عن اتصالاته وتعاونه مع جاسوسين ألمانيين وصلا عن طريق رحلة شاقة عبر الصحراء الغربية ومعهم جهاز إرسال للتجسس ، وهما أبلر وساند سندت اللذان أقاما أول اتصال به وقد اعترف السادات فيما بعد باصلاحه وتشغيله لجهاز اللاسلكى المعطل بعد أن صبغ العملية بصبغة روائية مغامرية خيالية كشأنه دائما حتى نهاية حياته، وعلى أى حال قبض البريطانيون على الجاسوسين ووضع السادات تحت الحراسة فى ميس الضباط فى معسكره دليلا على هامشية دوره وضآلته رغم ادعائه بعد مصادرة كتب ومطبوعات نازية كانت معه.

وكان للجبهة اتصال داخل القوات المسلحة وكانت مصادرنا لا تعتمد على الشائعات التى كانت تجتاح الشارع المصرى ولكننا كنا نستطيع تمحيص الأمور عن طريق هذه الاتصالات.

وليس هناك شك فى أن عزيز المصرى كان له اعزاز وتقدير واسع النطاق بين صغار الضباط ، ولكن لم تتح له الفرصة لتوثيق علاقاته إلا مع عدد محدود جدا منهم وكان طبيعياً ان يغلب عليهم الطابع الوطنى والمغامرى ، ومع ذلك كان عزيز رمزاً لتوجهات وطنية قومية وصاحب ثقل داخل القوات المسلحة وخارجها رغم افتقاره للحنكة السياسية اللازمة لقيادة انقلاب عسكرى.

وخلال ١٩٤٢ استمر نشاط الجبهة على نفس النمط ورغم أن التركيز كان أكثر على الطلاب والشباب المتعلم من الفئات الاخرى إلا انه ظهرت ضرورة لتطوير نشاط منفصل لمجموعة جديدة من المنضمين فرضها الشارع الوطنى علينا.

كان العماد الفنى للجيش فى هذا الوقت هم خريجى مدرسة الفنون والصنائع بالعباسية، وكانت مدرسة فنية فوق المتوسطة مشهورة بخبرة خريجيها العملية والتطبيقية فى مختلف التخصصات الهندسية، وكانت تلقى كل عناية خاصة من حيث إعداد مدرسيها واستكمال تجهيزاتها . ورغم الدور الحيوى الذى كان ضباط الصف من خريجيها يقومون به فى ورش وأسلحة الجيش الميكانيكية، فإنهم كأفراد دائما فى حالة من عدم الاستقرار والتحفز والغضب لإصرار قيادات الجيش على عدم إدخالهم فى سلك الضباط بحكم عدم دخولهم للكلية الحربية، والتى كان يخضع الاختيار فيها الى معايير اجتماعية وطبقية وسياسية، ومما زاد

من تذمرهم ان بعض رؤسائهم من الضباط كانوا من الدفعات الاستثنائية التى دخلت الكلية فى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ بالثقافة العامة و دون الحصول على شهادة إكمال الدراسة الثانوية ولم يخضع اختيارهم لنفس المعايير الدقيقة الاجتماعية والسياسية وهى الدفعة التى انتمى إليها كثير من الضباط الأحرار فيما بعد.

وقد ابتدأ الاتصال بهم بحضور واحد منهم ثم انضمام آخر وكان واضحا انفعالهم بالقضايا الوطنية التى نتعامل معها ، ولكن عزوف أحدهم عن المنحنى التحليلى الذى نتبعه ، وفى ختام أحد اللقاءات بقى العضوان وطلبا النقاش المنفرد معى فى مشكلتهم ، وكانوا قد كونوا فيما بينهم رابطة تتولى عرض مشكلتهم والسعى لايجاد حل لها.

وقد تبين انهم يشعرون بالحاجة للمشورة وتبادل الآراء بالنسبة لمشكلتهم ، وإنهم تواقون من خلال علاقاتهم المتشعبة فى الجيش المصرى وتعاملهم مع القوات البريطانية إلى ان يكون لهم عطاء وطنى، واقترحوا أن اسلوب عملنا العلنى والمفتوح ليس مناسبا لهم ، وأن كثيرا من زملائهم الذين سمعوا بنشاطنا يودون المشاركة ولكنهم يعتبرون الاشتراك فى اجتماعات علنية ومفتوحة فيه مخاطرة واقترحوا أن تكون لهم حلقة خاصة بهم يجتمعون معى فقط فيها، ونتعامل مع مشاكلهم المهنية وتطلعاتهم الوطنية ، وأفهمونى أن الجيش مثل الشارع الوطنى

يغلى بالانفعـال والحيرة ، وأن حلقات الضباط وصف الضباط وميساتهم عبارة عن ندوات تلقـائية أو حلقات جدال لا ينتهى ، تفتقد كلها الى التنظيم والاتجاه ، وأن الاحـزاب والجماعة ليس لها وجود ملموس بين هذه الصفوف ، وأن الصحوة التى أوجدها عزيز المصرى وصالح حرب وعزام على رأس القوات ، أذكت الشـعور الوطنى ولكنها لم تبلور اتجاها أو ترسى أساسا لمدرسة ولم تنظم صفوفا وان الاحتكاك بالقوات البريطانية زادها اشتعالا ، وبعد تفكير ملى وافقت أن يكون لهم لقاء خاص فى أيام متغيرة من الاسبوع ولايزيد عدد المشتركين على ٥ أفراد ، ومع ذلك من يجد منهم رغبة وكفاءة فى الاشتراك فى اللقاءات العـامة فله ذلك ، وإنهم ليسوا مطالبين بحشد كل زملائهم للاشـتراك فى اللقاءات الخاصة ولكن عليهم التركيز على العناصر القيادية والمتحمسـة والنابهـة .

والحقيقة اننى اكتشـفت عناصر ممتازة من خلال هذه الحلقة تميز بعضها بتوقد ذهنى ولمساحة فكرية تفوق شباب الجامعة ، وتميز البعض الاخر بتـوجه عملى موضـوعى ، وفى بداية ١٩٤٣ ظهرت بين العناصر غير ذات التبلور الفكرى علامات القلق ، وكان واضحا خضوعهم لمؤثرات جديدة ، وكان ما يضمرونه لى من إعزاز وولاء والتفـاف مبررا أن أثير معهم تساؤلى عن تردد ونغمة اقتنـاعهم بعـدم جدوى التغـيير عن طريق الفكر الجديد ، وإن السلاح لابد وأن يلعب دورا حاسما فى

التغيير ولم يكن هذا هو توجه كل المجموعة ولكن كان واضحا أن أعدادا متزايدة منها يتجه نحو ذلك .

وفهمت منهم أن هناك تحركات جديدة وسط بعض الضباط، بعضهم يدعون التلمذة لعزيز المصرى، وبعضهم ذو توجه وطنى تقليدى، وأن العامل المشترك بين هذه الفئات هو إيمانها بدور ريادى للقوات المسلحة لإحداث التغيير، وأن هذه العناصر تفتقر إلى الفكر والاتجاه الواعى، ومن ثم فوجود السلاح فى أيديها يمكن أن يكون دعما للتوجه الوطنى ولكنه يمكن أن يكون محفزا للإنحراف والضياع، وان احساسهم بأنهم مقتنعون بدور السلاح فى التغيير وإنما مقرون بالوعى والفكر وأن مسئوليتنا وقدرتنا على إعطاء هذا الغطاء هى بدون منافس لطهارتنا السياسية وتجردنا من الإنحيازات الايديولوجية والسلطوية . وكان واضحا أن بعض هذه العناصر جذبها هذا الاتجاه وكان هذا التوجه مخالفا للتوجه الأساسى الذى انطلق منه تفكيرى فى حشد المجموعة ومخالفا للأهداف وأساليب العمل التى أسست عليها جبهة الأحرار الديموقراطيين ، ولكن مطلبهم المتواضع والمنطقى من وجهة نظرهم كان من الصعب رفضه فكل ما طلبوه أن أتقابل مقابلة سرية مع رئيس أهم هذه المجموعات من تلاميذ عزيز المصرى ، وأن يجرى حوار معه للتعاون فى حضورهم ، وأنهم واثقون، من حوارهم مع هذه المجموعات ، أن توجهنا الفكرى هو المقبول والغالب.

ورغم تفضيلي لعدم ذكر الأسماء فلأن اسم المرحوم المتزعم لهذا الاتجاه في مجموعتنا والذى تم اللقاء فى منزله فى ساحل روض الفرج معروف ومسجل في أحداث المرحلة فأنا أبدأ بتحديد اسمه وهو المرحوم عبد القادر طه.

لم يكن عبد القادر طه من ذوى الميول الفكرية من المجموعة الذين كنت أتطلع ان يلعبوا دوراً قياديا فى إطار توجهاتنا المتفق عليها ولكنه كان شخصية محبوبة وجذابة ، ويمكن أن يكون أدق وصف لانطباعي عنه في هذه المرحلة باللغة الدارجة انه كان جدع وابن بلد ، كان كريما وشديد الولاء لأصدقائه وأقدر على الاقدام وتحمل المسئولية ، ولكنه كان شديد الاقتناع بأن نجاح الفكر لا يكفى صوابه ونضوجه ولكن قدرته على التحكم والتوجيه فى القوة المؤثرة الفعالة ، وكان يولينى شخصيا قدرا مبالغا فيه من الاعجاب والايمان والاقتناع ، وكان موضع تقدير وثقة زملائه على المستوى الوطنى والخلقى.

وعليه تمت الموافقة على عقد الاجتماع المشار إليه على ألا يحضره من الطرف الآخر أكثر من شخصين يشترط ان يكونا من أعلى مراتب القيادة وبشرط ألا يعرف اسمى أو صفتى ولا يحضر من جانبنا غيرى أنا والمعروفين لهم من أعضاء الجبهة ، وان يتفق على اجتماعين متتاليين يخصص الأول لتعريف كل طرف لتوجهاته وأهدافه

ويخصص الثانى لطرح انماط التعاون التى يرى كل طرف إنها مناسبة له بعد استيعاب وتقدير كل طرف لمدى توافق اتفاق الطرف الآخر لتوجهاته هو وأهدافه.. ولاتمام التقييم طرح لاول مرة الاحتياج لاختيار اسم مستعار للاشارة اليَّ ، واتفق الحاضرون على اختيار اسم «المعلم». والطريف انه عندما ناقشت الاقتراح مع الحاضرين فهمت أن المقصود هو ليس المعني اللغوى للفظ أى المعلم بمعنى المدرس، ولكن المقصود به المعنى الشعبي بمعنى أن المعلم هو شيخ المجموعة أو الفريق، وسيعود هذا الاسم ليطرح نفسه سنة ١٩٤٥ ـ ٤٦ كاختيار الاصدقاء من عمال شبرا الخيمة واتحاد النقابات الاهلية للعمال الذى اسعدنى وشرفنى توجيههم من خلال الحركة الوطنية.

وتم اللقاء الأول فى مغرب أحد الأيام فى منزل عبدالقادر طه الضيق وكان المتفق عليه أن أصل مبكرا عن الميعاد زيادة فى الحيطة ، وحضر الضابطان الممثلان للمجموعة فى الميعاد ، وطلبت منهم تعريفى بتوجهاتهم وأهدافهم أولا باعتبار إنهم سمعوا من زملائى نبذة عن توجهاتنا وأهدافنا وانفتاح اجتماعاتنا التى يمكن أن يدعو إليها مستقبلا، وكان حديثهم مشتعلا وطنية وتطلعا نحو تحرير الوطن وطعنا فى القيادات الحزبية وتمثيلية الاستقلال والديمقراطية التى يمارسونها مع الاستعمار والسراى . وكان حديثهم عن الملك واضح

البلبلة والتشويش فمن ناحية كانوا واعين لدور السراى التآمرى التاريخى ، ومن ناحية كانوا ثائرين على حصار سراى عابدين وفرض السياسات والنحاس على رمز مصر وهو الملك ، وكانوا ملمين بانحرافاته وآثامه ولكن بدا غضبهم الأكبر موجها لبطانته الفاسدة والانتهازيين الملتفين حول عرشه ، ولم يكونوا على اقتناع بأن تقاليد الاحزاب وعلى رأسها الوفد من المنافسة على الدساتير والانتخابات والمفاوضة مجدية أو يمكن الاطئمنان الى نتائجها وكان اقتناعهم بالدور الفعال للعناصر الوطنية فى الجيش كبيرا ، وكان إعجابهم بعزيز المصرى، باعتباره رمزا لتراث قومى ووطنى تاريخى ، وباعتباره قيادة معادية للاستعمار صلبة ومقتحمة ، وباعتباره بؤرة تجمع يمكن أن تتجمع حولها الصفوف واضحا.

ولما تساءلت عن رؤياهم لما يجب أن يكون عليه الحال بعد عزل الأحزاب بتراثها الدستورى الانتخابى، على فرض نجاح الحركة فى طرد الاستعمار وتحقيق الاستقلال استغرقنا وقتا طويلا لبلورة أفكارهم التى كان من الواضح إنها لم تكن مستكملة الدراسة ، ولا متبلورة وأتذكر أن أوضح ما قاله كبيرهم ، وأتذكر أن زميله خاطبه بـ «عبدالمنعم» كان تلخيصه للوضع، أن نظام المستبد العادل هو القادر على حشد صفوف أغلبية الشعب الفقيرة الجاهلة ، وأخذ الوكالة عنها لتحقيق مصالحها والوصول بها الى العزة والكرامة والعدالة.

وعرضت عليهم حسب طلبهم اساسيات توجهاتنا وأولها انه مع اقتناعنا أن التوجهات والمؤسسات وأساليب التعامل التقليدية الموروثة وإن كانت قد فقدت الملاءمة بالنسبة للمتغيرات ، فليس معنى هذا أن المنحى الدستورى والديمقراطى يسقط بسقوط ممتهنيه ، بل إننا نعتبر التغيير هو غاية لارساء القواعد الصحيحة للحكم الدستورى والديمقراطى وأن مشاكل المجتمع المعقدة السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لايمكن ان تعالج بخواطر تلقائية ، وانطباعات ذاتية غير مدروسة ، ونحن إن لم نصل بعد إلى الإلمام بالأبعاد التى تؤهلنا لطرح برنامج متكامل للتعامل مع هذه الاساسيات فإننا وصلنا الى اقتناع أن الاستعارة والتقليد والنقل من الماضى أو الحاضر المعاصر لايمكن أن تكون اختيارا منطقيا أو موضوعيا ومن ثم فنحن لا نكتفى بالدراسة ولكن نقيم قنوات حوار مع كل التيارات الملتزمة وكل المدارس المتعددة ، وفى نهاية المطاف نرى ان الحكم والاختيار لابد وأن يكون حصيلة مشاركة وتفاعل أكبر للقطاعات الجماهيرية صاحبة الحق والمصلحة فى المشاركة وكان الحوار التالى لهذه العروض خاليا من الصدام ولكنه بدأ ايضا مفتقرا إلى الاستيعاب والتركيز ، وانتهى اللقاء بالاتفاق الوفاقى على تحديد لقاء ثان .

وكان طبيعيا أن يعقب هذا اللقاء حوار حار بين أفراد مجموعتنا وبالطبع كان المنظمون للاجتماع متحمسين لما تصوروه نجاحا كبيرا حيث وضح تفوقنا وسيطرتنا الفكرية وحيث وضحت جدية الطرف الآخر وقدرته على التحرك والفاعلية ، وانه ليس من المعقول اشتراط استيعابهم والتفافهم حول توجهاتنا الفكرية ، المهم هو اقتناعهم الواضح والأكيد وتسليمهم بتفوق هذا الفكر توجها وعمقا واحاطة وأن العمل فى المجال العسكرى لا يقوم على التفاعل والمشاركة ولكنه يقوم على قبول القيادة والالتزام بتوجيهاتها.

وكنت صريحا وواضحا على مدى أكثر من لقاء فى قلقى وتخوفى ، فالاتجاه الوطنى الخالى من المضمون السياسى والاجتماعى المدروس كان مدعاة من وجهة نظرى للقلق ، خاصة لمن يضع أصبعه على الزناد وهو مقترن بتوجه عفوى للاستخفاف والعداء للحكم الدستورى والديمقراطية واعتناق فكرة الوصاية على الجماهير بمعرفة المستبد العادل . وكان فى تقديرى أن هذا هو أضمن الطرق الى الديكتاتورية.

وبينت للزملاء أن طبيعة الانقلابات العسكرية تدعم هذا التوجه تلقائيا ما لم يكن للتحرك منذ البداية فكر سياسى متكامل عميق الجذور الديمقراطية وبينت أن حركات الانقلاب العسكرى لاتضيق فرص التفاعل بينها وبين الجماهير الخارجة عن إطارها عند نجاحها فقط بل

تضيق فرص الحوار والتفاعل بين عناصرها نفسها بحكم تشكيلها السلطوى وأسلوب عملها العسكرى ، ومن ثم لابد من تحقيق الضمان الاساسى وهو ارساء الأسس الملائمة للتوجه السياسى بحيث تحكم التشكيل والحركة .

وتخوف المؤيدون للاندماج من أن أضيع فرصة ذهبية إذ إنى كمفكر عازف عن الامساك بالسلاح ، وأن الفكر مهما كان عمقه وصوابه لن يحرك موات المجتمع .

وكان واضحا لى أن أغلبهم مصر ومتلهف على الإلتحام مع التيار الأجدى فاعلية وتأثيرا والأقرب إلى خبراتهم ومفاهيمهم مع تمنياتهم الحارة الصادقة أن يتزاوج هذا مع كيفية التعامل الفكرى السياسى التى تمتعوا بها فى صفوف الجبهة فى المرحلة السابقة وعليه فقد ذهبت للقاء الثانى وأنا أتوجس خيفة ، والواقع أن الطرف الآخر زاد الطين بلة لأنه فاجأنا فى أول اجتماع باقتراح مختصر ومحدد يبدو أنه أعد لكسب اقتناع زملائى .

فقد بدأوا بعرض تصورهم لأسلوب التعاون ، فأكدوا أنهم يرون العمل على ضم كل صفوف العناصر الوطنية تحت لواء واحد يتزعمه الزعيم الوحيد القادر على لم صفوف الجيش والمؤتمن على أمانة قيادته ، وهو عزيز المصرى ، وكان مازال تحت الاعتقال ، وأنهم تدارسوا الطرح الفكرى الذى قدمناه، واقتنعوا أن حركتهم فى حاجة

ماسة إلى مضمون فكرى سياسى ، ومتحدث قادر على مخاطبة القطاع المدنى ومن ثم فهم يرون فى جماعتنا نواة تكمل هذا النقص ، وأن شخصية المعلم الناضجة وقدراته الواضحة تؤهله للواجهة المعبرة عن هذا الفكر ، فهم إذن يرون أن يكون المعلم المستشار السياسى للقيادة العسكرية ، وتعالت صيحات الاستحسان من زملائى . وعليه فلم أكن أشعر أن حديثى سيكون مجديا ولكنى رأيت من واجبى المحاولة ، فأوضحت لهم أنى أرى أن التعاون والتكامل بين الطرفين أمر مرغوب فيه ويمكن أن يكون مجديا للعمل الوطنى ، ولكن لأننا فى بداية الطريق ، ولم تتبلور توجهاتنا الفكرية والسياسية مع اختلاف طبيعة عمل كل منا ومجاله وكذلك كفاءاته فقد يكون الأنسب استمرار كل مجموعة فى مجال عملها على أن نقيم مجموعات دراسية مشتركة تتعامل مع بلورة فكر مشترك بالنسبة للمشاغل الوطنية المختلفة تحرريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعالميا ، ويمكن أن تحكم هذا الجهد المشترك لجنة عليا للتنسيق لا يكفى أن تنسق الجهد الدراسى ولكن يمكن أن تنسق التفاعل مع الأحداث والمتغيرات وأن تنامى هذا التفاعل لا شك سيؤدى إلى الأسس الراسخة للتوحد مستقبلا .

ولم يقابل رأيى بالترحيب وأفهمت أن إلحاح العمل ومشاغله فى مجال المجابهة المسلحة لا يدع فائض جهد لمثل هذا الانشغال ، وأن

مهمتى مع المثقفين هى تغذية هذا التحرك العسكرى بالفكر السياسى الذى يستعجل وصوله لأهدافه ولا يعرقل تقدمه .

لم نسمع فى هـذه المرحلة عن تنظيم الضباط الأحرار الذى ادعى أنور السادات كما لو أنه نظم صفوفهم فى أثناء غياب جمال عبد الناصر فى السودان . كل ما سمعناه عن أنور السادات وعن مخاطراته بالاتصال بجواسيس المحور وعملائهم المحليين لم يكن مدعاة للقناعة أو للتقدير ، وبقى النشاط السياسى من الجيش فى هذه المرحلة وحتى حرب فلسطين مجرد متابعة جادة لنبض الشارع المصرى فى إطار تحركات محدودة ومتعددة على نمط الأمثلة التى لمسناها ، ولكن على أى حال ليست مهمة هـذه الذكريات الشخصية التأريخ للمرحلة ، ولكن كما تكرر التأكيد هى إضافة ممارسات ومشاهدات عابر سبيل لدروب الوطنية يأمل من منطلق المعايشة والمشاركة الإيجابية أن تنقل إلى الأجيال العصرية حس الحركة وحقيقة دوافعها .

ومن خلال الاتصالات الشخصية التى استمرت بشكل متقطع ولكنها توسعت كانت لنا احتكاكات تالية .

كانت فئة الضباط الذين التحقوا بالكلية الحربية بعد ١٩٣٦ أو ما تبعها من تنمية قوة الجيش وتوجهه نحو التخلص من القيادة والوصاية البريطانية تختلف اجتماعيا وسياسيا عن الفئات التقليدية

ذات الارتباطات الطبقية العليا وذيول الفلول العثمانية والمملوكية التى مثلت عماد الملكية فى مصر ، ومن ثم ليس من المستبعد أن ضباط هذه الدفعات ١٩٣٦ – ١٩٣٩ قامت بينهم لقاءات وتبادل أفكار كلما سنحت الفرصة ، وقد حاول أنور السادات أن يصور الخدمة المشتركة مع جمال عبد الناصر فى معسكر منقباد ١٩٣٨ على أنها مولد تنظيم الضباط الأحرار ، ربما تأكيدا لدوره البطولى الذى شغل خاطره طوال حياته . ولا يستقيم هذا الادعاء مع صورة التحركات الوطنية كما لمسناها فى الشارع الوطنى والسابق عرضها إذا كان الحديث عن التنظيم المتبلور وتوجهاته التحررية المعادية للاستعمار والملك والأحزاب الذى قاد إنفجار ١٩٥٢ . ومما لا شك فيه كما بينا أنه بعد نشوب الحرب العالمية الثانية وما صاحبها من تعرض أمن البلاد لمخاطر وتردى الحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى مصر أن كثيرين من أبناء الشعب المتعلمين فى الجيش كان يشغلهم ويثير همومهم مجرى الأحداث ولا شك أن تجمعاتهم كانت تتبادل الرأى ، ويستحيل تفادى تقليب الرأى حول المخاوف والمخاطر المحيطة ، ولاشك فى أن خواطر هذه التفاعلات لم تكن ثابتة ولا مستقرة لا سياسيا ولا تنظيميا ولكن لا شك أيضا أنها مثلت خلفية غذت ونمت الشكل المستقر تنظيميا وسياسيا الذى أفرزته حرب فلسطين ١٩٤٨ والذى نمت فيه النزعة المعادية للملك وفساده وفحشه .

ولعل كل الحركات السرية لابد من أن تكون مجالا خصبا لتصورات وتخيلات من كانوا على علاقة بها ، ولا شك فى أن حوافز وأطماع المراحل التـالية بل وبلبلتها واختلاط أمورها لابد من أن تطلق للخيال والتصور عنانه .

فلا شك فى أن ثورة ١٩١٩ تولى قيادتها وتوجيهها تلامذة متأثرون بالشيخ محمد عبده الذى كان هو تلميذا ومريداً للإفغانى ، ولا شك فى أن سعد زغلول والشعراوى وبللوم وغيرهم من قادة ١٩١٩ كانوا على علاقات وبينهم حوارات سابقة للحرب العالمية الأولى وخلال أحداثها الجسام ، وكل هذه التيارات أرست الأساس وغذت التيار الذى تفاعل مع التحدى التاريخى المحدد عند نهاية الحرب العالمية الأولى ومفاوضات تنظيم توازنات القوى العالمية وتصفية التركات ، وهى التى بلورت توجهات الثورة ومهدت لبلورة تنظيمها .

ومن ثم فلا يمكـن أن أدعى أن أول جمع للشباب فى حديقة «الحيوان سنة ١٩٤٢» كان بداية للتحرك الوطنى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ لا تنظيميا ولا فكريا .

وكان عدم اشـتغال الضباط بالسياسة وتأكيدا لتبعيته وولائه للسراى ، كما كانت سيطرة الانجليز الفعلية على الجيش بعد مقتل السردار تتجه نفس الاتجاه من حيث تحصينه ضد المشاركة فى التيارات الوطنية . ومن ثم كان الجيش أرضا بكرا من الناحية

السياسية تحيطها الأسوار وتقيدها الأغلال سياسيا عند اشتعال الحرب العالمية الثانية ، وإن استحال كبت انتمائه وانشغال رجاله بالهموم الوطنية .

ولعل عزيز المصرى الذى أوضحنا مدى شعبيته والتفاف كل التجمعات حوله على اعتباره رمزا ونبراسا ومرشدا خير تعبير على قدر الفوران الوطنى المكبوت داخل الجيش .

تلقى عزيز المصرى تعليمه فى الجيش العثمانى ، واشترك فى تكوين الجمعيات السرية العربية المؤيدة لتركيا قبل الحرب العالمية الأولى وشارك فى الدفاع مع القوات العثمانية للغزو الإيطالى لليبيا سنة ١٩١١ ثم ناصر الثورة العربية المطالبة بالاستقلال العربى عن الامبراطورية العثمانية والمتعاونة مع بريطانيا . ثم سافر إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى والتى يبدو أن علاقاتها التحالفية مع تركيا خلال الحرب العالمية الأولى ، وتوحد علاقاتها نمت فيه ميولا نحوها .

ثم ظل منبوذا فى مصر التى عاد إليها بعد نجاح ثورة ١٩١٩ وفى سائر الدول العربية . حتى اختاره على ماهر كمرافق للملك فاروق ١٩٣٥ رغم بغض الملك فؤاد له عند سفر فاروق لاستكمال دراسته فى بريطانيا وبالطبع لم يعمر طويلا فى هذا المنصب حتى عينه على ماهر رئيسا للأركان ١٩٣٩ فبذل الجهد فى تنظيم واعداد الجيش وتزكية

روح الاستقلالية عن الانجليز وتدعيم توجه على ماهر والسراى المتعاطف مع ايطاليا وألمانيا الذى انتهى باحالته للاستيداع فى محاولة هربه إلى روميل واعتقاله .

فوجئت بطلب لقاء حديث من هذه الجماعة العسكرية حمله إلى تلامذتى القــدامى مع التأكيد أن اللقاء لا يتعلق بالأمور التى لم يتم الاتفاق عليها . وفى هذا اللقاء تركز الحديث عن احداث ٤ فبراير ١٩٤٢ والالتزام الوطنى بالانتقام من الانجليز والنحاس . وفهمت أن الانتقام من الانجليز يحتاج إلى وقت وتدبير واستعداد ولكن الانتقام من النحاس أمر عاجل وكان التلميح واضحا أن الجماعات العسكرية ليس من اسلوبها قيادة حركة جماهيرية لإسقاط شعبية النحاس ولكن الانتقام ينصب على شخصه بالأدوات المتاحة لهم مما جعلنى استنتج أن هناك تآمرا على اغتياله ، وبالطبع كان واجبا علىّ أن أوضح لهم أن دروس هذا الحدث أعمق وأخطر من مجرد امتهان لكرامة رموز حاكمة ، وأن إفلاس المؤسسات السياسية جميعا بدأ من السراى إلى أحزاب الأقليات ، إلى الأحزاب الدسـتورية وطغيان الأطماع والصراعات الذاتية على الاعتبـارات الوطـنية ، والتى يعبر عنها التحالف مع مختلف القوى الاستعمارية سواء كانت ايطاليا أو ألمـانيا أو بريطـانيا ، إضافة للمخاطر التى يتعرض لها مسـتقبل المشـاركة الشعـبية ، والديمقراطية لا يأتى بها اغتيـال أو تفجـير ، وأظن أن تردى الأحداث

قد بين لهم أن المنحى الذى طرحته عليهم هو الضمان الوحيد لتحقيق المصالح الوطنية .

وعلى عكس اللقاءات السابقة انتهى هذا اللقاء بغير ما انتهت به اللقاءات السابقة من تقدير وإعجاب ، فكانت نظراتهم تعبيرا عن شجبهم لهذا التخاذل وأظن أيضا الجبن . وقد وقعت فعلا محاولات لاغتيال النحاس باشا وادعى حتى بعض رجال انفجار ١٩٥٢ أنهم هم المدبرون لها .

وبعد هذا اللقاء ترامى إلينا قيام تنظيم الحرس الحديدى الذى نظمه يوسف رشاد ، أحد بطانة فاروق الفاسدة ، وترامى إلينا انضمام بعض أفراد التجمعات الوطنية في الجيش ، وقيل إن أنور السادات كان على علاقة بهذا ، وأظنه قد أيد هذا الادعاء فى حواديته المسلية التى أغرقنا فيها صحافة وتليفزيونا فى فترة حكمه ، والذى أعرفه أن لقاء آخر قد رتب معى وكانت أول مرة أقابل فيها مصطفى صدقى ، ويبدو أنه كان على علاقة وثيقة بعبد القادر طه فى هذه المرحلة ، وكان حديثه ساذجا وصريحا بأن أى تحرك وطنى يهاجم الملك الرمز الوطنى فى هذه الظروف الخطيرة لابد من أن يكون موضع مساءلة عنيفة ليس فقط من السلطة ، ولكن من الوطنيين المخلصين فى القوات المسلحة . ولم تكن جبهتنا لها مواقف صريحة فى مهاجمة الملك ، وحتى بعد افتضاح فساده الشخصى لم تشغلنا هذه القضية إلا بالقدر الذى تعكس فيه

فساد وإفلاس النظام كله . ولم يكن لنا بعد تأثير فى الشارع الوطنى ومن ثم فالذى فهمته أن هذه الرسالة ليست موجهة لى أصلا ولكنها موجهة إلى الحركة الوطنية من خلالى .

وكان ردى عليه أن هؤلاء الوطنيين الذين يتحدث عنهم احرار فى اختيار اهتماماتهم ، ولكن عليهم ألا يعزلوا أنفسهم عن التيار الراسخ للحركة الوطنية ومشاغلها بالاستقلال والديمقراطية الدستورية والسيادة الشعبية وأننا كتلامذة فى هذه المدرسة لا يشغلنا إلا أولياتها ثم لاحظت فى رفق أن لغة التهديد لا تهز أو تحيد بأبناء هذه المدرسة ولذكرى الصداقة فإن عبد القادر طه ثار وانزعج وأكد أنه لا يمكن أن يكون طرفا فى تهديد معلمه عصام جلال ولا نصيرا لمن يحاول ذلك أو يتصور جدوى ذلك وتأكد انطباعى بتشرذم وتخبط هذه المجموعات وانقساماتها وانقطعت اتصالاتى بهذه الحركات .

وحتى بداية التحرك الوطنى ١٩٤٥ لم يترام إلى سمعنا شىء عن الضباط الأحرار أو جمال عبد الناصر ، وقد يرجع هذا إما لعدم ولادة هذا التنظيم ، أو انعدام تفاعله مع الحركة الوطنية العامة ، فلم يكن شىء يخفى علينا مما يجرى فى دروب الشارع الوطنى فى هذه المرحلة .

الباب الثامن

الجـــــــذور

ورغم أنى كنت أمضى السنة الدراسية فى المدينة منذ سن الثالثة فى مدارس الرهبان الفرنسية فى المنصورة أولا ثم طنطا فإن طبيعة حياة الطبقة الوسطى فى ذلك الوقت لم تتح لى معايشة المدينة خارج إطار الأسرة والمدرسة ، وكان هذا الزمن هو زمن الخدم والحشم وكانوا هم أو هن الذين يديرون الأسرة ويحملون أعباءها وأعباء الصغار ، وكان اشتراك الصغار فى جلسات الكبار من الزوار غير مقبول والخروج إلى الخارج فى غير مصاحبة الأهل أو الخدم غير مسموح وعليه فانطباعى عن الحياة خارج إطار المدرسة والأسرة يبدو شحيحا من ثم كانت أجازة الصيف التى نمضيها فى القرية كل صيف النافذة المفتوحة التى استطعت أن أطل منها على المجتمع الأكبر وأتفهم ما يحكم علاقاته وتفاعلاته من مفاهيم وقواعد .

ولهذا كانت أولى ذكرياتى الواضحة عن العودة إلى القرية (أبو جلال مركز شربين) بعد انتهاء الدراسة لتمضية إجازة الصيف ولابد من أن ذلك كان بين ١٩٢٥ - ١٩٢٦ ، ومازلت أتذكر بوضوح الشعور المبهر بصفاء الجو والمساحة المنطلقة إلى الأفق والسماء الصافية والمتلألئة بالنجوم فى المساء ، وكنت أحس أنى عدت إلى عالم آخر متسع رائق منطلق أخضر يافع نام . وكان همى الأول السماح لى بالانطلاق خارج القرية لاستوعب كل هذه المتغيرات وأرى وأسمع الماء المتدفق من الساقية والدواب البطيئة الصبورة وهى تنظر إلى

بعيـونها الحالمة وكأنها تنظر من خلالى إلى أبعاد ومعان وأشياء لا أراها ولا أفهمها .

وكانت القرية فى تلك الأيام منعزلة تماما ، نصل إليها من محطة السكة الحديد فى عربة حنطور إذا أسعدنا وجود السيدات أو على حمير، وشمالها كانت البرارى والسيحات وهى سهول جرداء غير مزروعة تمتد حتى سواحل البحر الأبيض وتغمر بمياه الفيضان فى الصيف فتحط بها أسراب الطيور الرحل الآتية من الشمال فى مطلع الخريف والشتاء وتتكاثر فيها الأسماك فتكون مورد غذاء سمين .

وكانت الحياة فى القـرية خاملة هـائلة يبعث فيها الحياة صوت المؤذن للدعـوة للصـلاة أو وصـول تاجـر جـائل يحمـل بضـاعة على حمـار أو حضـور زوار كان ينتشـر خـبر وصـولهم إلى القـرية كلـها قبـل وصـولهم إلى مضـيفهم ، وبعد صـلاة المغرب وعودة جماعات الفلاحين فى الحقول ومعهم طوابير مواشـيهم ومحـاريثهم وفئوسـهم ينبـعث بريق نار الحطب من كل المساكن ورائحة الطعام الشهى من بعضها وكانت الرائحـة تؤيد معـلومات معـروفة للجمـيع زائر أو مناسبة سـعيدة أو حزينة ، ومع الخـروج من الجـامع بعـد صـلاة العشاء يتجه الكبار إلى المضيفـة التى أوقدت فيها الفـوانيس أو الكلوب فيما بعد ويتجه أيضا غير الكبار من الفلاحين الذين لهم طلب أو مشكلة أو خلافات .

لم نكن نحن الصغار تجذبنا المضيفة إلا إذا وصلت لسمعنا أصوات شجار أو خلاف فكنا ندور حولها لنسترق السمع لحساب فضولنا ولحساب فضول الأمهات والعمات والأخوات فى المنازل المنعزلة عن المضيفة ، وفى سن مبكرة جدا اكتشفت متعة أسرة المضيفة واكتشفت أن اللعب على جسر الترعة أو الدوران حول المواقد بدخانها الكاتم للأنفاس لتلقى كبد دجاجة أو «أبورى» طازج خارج من فرن الخبيز هى دوران على هامش حياة القرية ، وكان غريبا لى أن الكبار قبلوا هذا الشذوذ منى برحابة صدر وبساطة أكثر من أقرانى الصغار ربما لهدوئى الدائم وربما لأنى كنت الوحيد الملحق بمدارس أجنبية ومن ثم أحوج للاحتضان والانتماء ، وقد استغرقت وقتا لاخترق غموض البساطة البادية فى حياة المضيفة وافهم مراتبها المعقدة والتى تعكس قيمها التلقائية فللطين والملكية مراتب ، وللأصل والنسب مراتب والسن مراتب ، وللعلم الذى يفهمونه (الدين) والذى لا يفهمونه مراتب وللخلق والاجتهاد مراتب بل وللقوة والبأس مراتب .

وكان أهل العلم يصلون المضيفة بأخبار العالم الخارجى ابتداء من محطة السكة الحديد حتى القارات الخمس باستقراء جريدة اليوم ويعلق بذاكرتى أكثرهم اعتزازا بأداء هذا الدور أحمد أفندى الذى كان يكثر من تذكيرنا بمؤهلاته (ساقط ابتدائية) وكان

استقراء الجرائد يعنى تشكيل الخبر أو التعليق حسب مفهوم وأهواء القارئ مما يستدعى التعليق والاضافة من السامعين ، وأذكر فيما بعد عندما نشر خبر عزم النحاس باشا على الزواج كيف اسهب أحمد أفندى فى سهرة كاملة ويدون أى مرجع أو مستند أدلته على أن زوجة النحاس باشا المقبلة هى أجمل سيدة فى مصر وعلى نهاية السهرة وصل إلى أنها أجمل سيدة فى العالم إضافة إلى أنها أكثرهم من أصالة وأرفعهن نسبا .

وكان الاتجاه العام بعيدا عن المناظرة والمصادمة وكانت تكفى ابتسامة أو هزة رأس أو نظرة للتعريف بقدر تقدير السامعين أو استهانتهم بما يقال ، وكانت هناك سماحة يبديها الكبار نحو جهل واندفاع الصغار .

وكنت أمضى النهار بحره وذبابه فى القراءة وكان نهمى فى القراءة يجعل الحصول على مادة للقراءة معضلة وكان حل هذه المشكلة هو الذى صبغ حياتى الفكرية طوال عمرى ، فقد قرأت كتب مدارس الزراعة والتجارة والثانوية والجامعة من مختلف الكليات وأنا مازلت طالب ابتدائى وبقيت حتى أيام كهولتى متعدد الاختصاص على مستوى مهنتى وعلى مستوى وطنى وعلى مستوى النشاط العالمى الذى استغرق جزءا كبيرا من سنين رجولتى وكهولتى ، وشكرا لأعمامى وأبناء أعمامى الذين استغنوا عن كتبهم بعد كل امتحان وربما قبله باتساع

مداركي ظهرت لى بالتدريج القيود والحدود التى تحكم تفكير المضيفة ، وخطأ المعلومات ونقصها وعدم الألمام بكثير من الأبعاد والمؤثرات والمسببات والنتائج ، ولكنى لم أجد أبدا وازعا للاستعلاء على منطق وقيم المضيفة ولا مبررا للنظر عبر هذه القيود والحدود لتسلسل وتكامل منطقها مع حصيلة بعيدة القدر من التجارب والممارسات الموروثة والمتراكمة والتى كثيرا ما بهرنى وصولها إلى لب وأصل النتائج والحقائق عن غير طريق التحليل الموضوعى المنهجى الذى تسلط على ذهنى وقتها الاعجاب والإيمان به كحصيلة لهذه القراءات المستفيضة ، ويقى درس المضيفة معى طوال حياتى فمازلت أسير التحليل الموضوعى المنهجى وربما أحد غلاة المبشرين به بين تلامذتى واقرانى ولكن مازلت احتفظ بالتقدير والاجلال والقناعة باختلاف المناحى والطرق طالما أنها تعكس أصالة فى الخبرة والممارسة والالتزام بالاصول والتراث والمعايير والقيم .

وكان موقف المضيفة من الاستعمار مثار اهتمامى وأول ذكريات طفولتى فى الرابعة أو الخامسة هو حديث والدتى عن عدم رضاء جدى لوالدى رأس القرية ومالك أرضها على اصرارها على الحاقى بمدرسة فرنسية فى المنصورة فى سن الثالثة ثم فى طنطا بعد ذلك .

وحسب فهمى كان اعتراضه أن المدرسة ستعلمنى عادات ومفاهيم «الخواجات» ولا أظنه كان منطلقا فى ذلك من عدم تقدير للعلم الحديث

بدليل ارساله لابن له لفرنسا وآخر لألمانيا فيما بعد ولكنئ أظن وقد امتدت به الحياة حتى بلغت الثانية عشرة أنه كان يعكس اقتناعه وانتماءه إلى منطلقه ومنهجه الذى يعكس ذاتيته وأصالته ومن ثم أسعده انتقالى إلى المدارس العربية فى سن الثامنة وهو القرار الذى اتخذه والدى من منطلق وطنى كما فهمت منه .

ولقد شاهدت فيما بعد قدر انبهاره بالقدرات والنظم الأجنبية وقدر إدراكه لفاعليتها وسطوتها ولكنه وكبار المضيفة جميعا كانوا فى وفاق واقتناع واكتفاء ذاتى بمنطلقاتهم وقيمهم وأصولهم وتراثهم بما أعطاهم الحصانة بل المناعة ضد أى مركب نقص أو تداع ذاتى أو رفض لجذورهم ورغبة فى الاستعارة للبدائل.

ولست أعرف كم كان لهم فى ذلك من فضل وكم كان لحضارتهم واستمراريتهم وجذورهم التاريخية والحضارية والدينية من فضل ولكنى فى أسفارى المستمرة رأيت هذه الظاهرة أو بعض معالمها فقط فى المجتمعات ذات الأصول الحضارية المتكاملة والمستمرة مثل مصر والصين ، ذات الجذور البعيدة الغور وطالما حدثت المفكرين والسياسيين فى بريطانيا وسائر الدول الغربية عنها .

وكان رفض الاستعمار بديهية غير قابلة للفحص فى المضيفة وكان الفخر بالانتفاضات الوطنية العرابية ومصطفى كامل وثورة ١٩١٩ أيضا من المسلمات ، والقرية على عزلتها لم تشترك اشتراكا جماعيا

فى هذه الأحداث ، ولكن كان هناك أفراد لهم اسهامات محدودة كأن اشتركوا فى قطع شريط السكة الحديد أو اخترقوا حصار الجنود البريطانيين على مداخل المنصورة أو حضروا واقعة إطلاق لرصاصهم وكان هؤلاء ومنهم والدى شديدى الفخر بتجاربهم وكانوا عادة أكثر الناس حماسا فى شجب الاستعمار وينظر إليهم كأصحاب خبرة ومعرفة فى شئونه .

ومع ذلك كانت هناك موضوعية فى تقدير فضائل الإدارات والإنشاءات والنظم الاستعمارية ، بقدر من الحيدة والعدالة كثيرا ما أثار عجبى وأحيانا غضبى فى هذه السن المبكرة ، وكانت هناك قصص عن خبرة واجتهاد ونظام مسئول بريطانى معين أو جهاز بذاته دون موافقة على انحيازه لأهداف وأغراض وطنه المخالفة لأغراضنا ، وإعجاب كريم بولائهم لوطنهم ومرارة وغضب لانتهاك بلادهم لحقوق وطننا .

وكان هناك قبول بدا لى أحيانا أنه تعايش أكثر منه قبولا لواقع السلطة كتعايشهم مع حر الصيف وجفاف التحاريق ، فلم يكن هناك ولاء للملكية ولكن لم يبد لى توقع أو تطلع لزوالها ، وكانت القرية فى مجموعها وفدية قلة عن حماس وقلة عن مجاراة ، وغالبية كأفضل اختيار متاح أو أشد أساليب التعبير عن الرفض المعروفة وأقرب فرص المشاركة ، ولكن هذا الانتماء كان له مده

وجزره حسب ركود أو تحرك العمل السياسي ، وبالطبع كان أشد اشتعالا عند الانتخابات .

وكانت المواقف عند الانتخابات تبدو باعثة على الحيرة لتعدد الاعتبارات الحاكمة فبالاضافة إلى الانتماء الحزبى كان هناك اتجاه رأس العائلة ووجوب اتباع خط عائلى واحد ، ثم كانت هناك العلاقات الأسرية مع المرشحين ومع بعض زعماء الأحزاب ، ومواقف الأسر والعائلات والقرى المجاورة ، وكان لكل هذا وزن كبير .

وكان من مساوئ ومحاسن الانتخابات دخول السلطة فى حياة القرية ، فاتجاه المضيفة فى الأساس هو سد كل منفذ ممكن للسلطة فى حياة القرية ، وكل خلاف أو حادث أو إجراء كانت كل الجهود تتضافر للتعامل معه ذاتيا دون دخول السلطة ، ولكن الانتخابات كان لها وضع آخر يفتح منافذ للسلطة والسلطة البديلة إلى القرية ويفتح منافذ القرية عليهما ، وكان هدف المضيفة الخروج من هذه المعمعة بأفضل النتائج أى أقل الخسائر والعودة إلى عزلتها القديمة ، ولم يكن فى قريتنا بالذات تطلع لمشاركة وارتباط أو توثب إلى طموح فى هذا المجال ، ولعل هذا يعكس عزلتها الجغرافية وتركيبتها الاجتماعية فى هذا الوقت لضآلة الفئة المتعلمة والمتوسطة ، ولكن انفعال المضيفة والقرية بالأحداث القومية كحل البرلمان أو تزييف

الانتخابات أو المظاهرات والاضطرابات فى القاهرة والمدن الكبرى كان تلقائيا ومثار دورة من الحركة والانفعال.

ومنذ فجر وعيى لم أحس أن القرية بمعزل عن مجريات الأمور فى المجتمع الكبير ، سواء كانت أزمة الدستور أو المفاوضات مع الانجليز أو قضية السودان ، أو امتداد الاستعمار الايطالى فى ليبيا والحبشة . وكان كل حدث موضع متابعة وانفعال وكان هناك دائما اصحاب الآراء والتحليلات التى بدا لى بعضها ، كطفل مستمع ، يفتقر الى التسلسل أو المنطق ولكن كنت انصت فى صمت لها وللأخرى التى تبدو أكثر إقناعا أو تتعدى حدود معرفتى أو إدراكى ولكنى كنت أسجل بينى وبين نفسى ما أتصور أنى أدركه مما غفل على المتكلم أو اعلمه مما يجهل ولم أكن احس بدافع للظهور أو التظاهر . وكان اسهامى النادر موضع تقدير وتشجيع من أهلى ومن الحاضرين واسبغوا علىّ إدعاء تميز وتفوق منذ سن مبكرة كان أول دعامات ثقتى بنفسى التى اعانتنى فى كل مراحل حياتى وربما ايضا دفعتنى الى طريق الصعاب فى اغلب هذه المراحل .

وكان للوقار والتعقل (ولا أقصد العقل) مكانة ومنزلة ، ورغم أنه لكل جلسة ومجلس ، بما فيها المصطبة والمضيفة والمندرة ظرفاؤها الذين تسعى إليهم وتستدعيهم ويؤسف على غيابهم ، فقد كان الوقار والهدوء والتعقل والتأدب فى الحركة والقول معيار الرجولة والأصالة ، وليس

معنى هذا أن المرح لم يكن موضع إقبال وطلب ، ولكن كان هناك احترام وتقدير غريزى لتناول كل انعطافات التعامل بترحها ومرحها بوقار وتعقل سواء كان وقار الشيخوخة أو الخبرة أو التعقل أو العقل أو التطبع . ومع ذلك لم يكن هناك تعصب أو أنفه من الهزر ما لم يبعد عن حدود المقام والمكانة والموضوع . ولاشك فإن لهذه القيم اثرا كان كبيرا على اتجاهى وشخصيتى فى سن مبكرة فالتزمت بمظاهر الوقار والتعقل والجدية منذ سن مبكرة جدا بل لعلى بالغت فيها الى حد التعصب فلم اجتهد فقط جهدا مضنيا فى آلتطبع بها الى حد لم يكن مطلوبا ولا مألوفا بل تباعدت عن المرح والهزر إلى حد أرهق أقرانى ورفاقى وإن لم يزعزع ثقتهم وتقديرهم ولكن حرمنى وحرمهم متعة المباسطة والإنطلاق وصاحبنى هذا التقيد حتى أصبح طبعا وضع لعلاقاتى بالكبار ابتداء من أبى ومعلمى وأخوانى وأصدقائى ومعاصرى حدودا وقيودا كتلك التى استقرأت من هذه القيم بالتزامها مع نفسى ، ولا أذكر فى يفوعتى أو شبابى انطلاقى فى قهقهة أو مزاح إلاّ غفلة وانفلاتا سرعان ما يغالبنى اقتناعى وتطبعى على الانتفاضة منها أو عنها .

ولعل مبالغتى عكست رغبتى المبكرة في التمثيل والامتثال بما استشففته من معايير وقيم بدت لى أنها كنه الأصالة والأصول فى مجتمعى ، ولعلى لم أع فى هذه السن أنه فى مجتمعى القروى وشبه

القبلى هذا بأصوله المستقرة عبر مئات الأجيال لم تكن هذه القيم تطبعا أو اجتهادا ، ولكنها عكست واقعا اجتماعيا جعل الشيخ هو رب الأسرة والقرية والقبيلة ، عليه مسئوليتها وفى يده ما تملكه من مقدراتها ، وكان وقاره وجديته وتعقله انعكاسا حتميا لكهولته وتجاربه وركيزة لشبكة الارتباطات الأسرية أو القبلية التى تدور حوله ويدور حولها استقرار وامتداد مجتمعه ، وإن المرح والفكاهة بل والهزل هى أيضا دعامة أصيلة فى حياة العزلة والشظف وليست انجرافا أو شذوذا .

وكان جدى نموذجا تاريخيا لهذا النمط ورغم أن يسر حاله فى فجر طفولتى وطغيان شخصيته وامتداد آثار الحضر على أولاده لم يجعل منهم صنوا له فى نمطه فيبدو أن هذا الانفراد له ولأترابه جعله أكثر إفعاما وجاذبية.

وكانت جدتى لوالدتى فى المدينة طنطا الوجه الآخر لهذه العملة وإن عكست وقارها وجديتها المبالغة ظلالا من الأنفة والاعتزاز والقناعة العمياء بآخر مراتب الأصالة لعل جدى لوالدى فى القرية (أبو جلال) كان ناجحا إلى حد خارق فى حجبها تحت طبقات من البساطة والتواضع البالغ والنفور الغريزى من التأثر أو التطبع بآثار العصر والحضر رغم عدم الرفض والقناعة بالحتمية .

والحقيقة أن الأمثلة كانت متعددة فى كبير فقهاء القرية وكبراء فلاحيها بل علافيها وعمالها .

والحقيقة أن ما كان جذابا فى هذه الأنماط لم يكن مجرد مظهرها وقارا كان أو جدية أو هزرا ولكن ما كان خلف هذا المظهر من نضوج ليس فقط هو نضوج الأيام ولكنه نضوج يوحى بأنه يتخطى ما قبل أيامه ورجاحة تتخطى حدود خبرته وتغوص إلى ما بعد الحكمة المسموعة أو المدونة التى تلمست وجودها فى الكتاب أو المدرسة وانسجام وسلام مع النفس والأرض والسماء أعمق من ألفة التفهم والمعرفة وإن كان أقل قابلية منها إلى السبر والتحديد .

ولقد بقى هذا الانطباع وهذه القناعة ، أو لأكن أمينا مع نفسى ، هذا الظن ثم الإيمان معى حتى مراحل رجولتى وأسفارى وترحالى فى أركان الدنيا ، وافتقرت إلى هذه الأنماط فى الدول الحديثة التى عشت وتعايشت مع مجتمعاتها سنين طوالا ولم يراودنى الظن أو يعاودنى الانطباع إلا فى تلال اسكتلندا حيث أصول قبائلها وعشائرها القديمة وأركان الهند بشعوبها ودياناتها ولغاتها التى تتحدى الإحاطة ، وراودنى فى كل مرة الخاطر أن الامبراطورية البريطانية جثمت على أنفاس هذه الشعوب أجيالا ومن قبلها حملوا اثقالا وضغوطا ولكن الاصالة والنضوج امتدت جذورها فى أعماق الأغوار ربما بمنأى عن العاديات العابرة ورغم إركام الجهل وقيود العجز .

وكثيرا ما حاولت أن أصور هذا البعد فى النضوج والأصالة والعراقة والانسجام مع كنه الحياة إلى عشرات الاجتماعات من مختلف المراتب الفكرية والحضارية حتى محاورتها فى الدول المتقدمة التى أمضيت السنين فى معايشتها تعلما وحوارا ، وكنت أعلم أن ما أتحدث عنه يصعب تصويره لأنه يصعب تحديده ولكنى من ممارستى الطويلة مع هذه المجتمعات كنت أحس أن تنبيهها إلى بعد من الحضارة لم تمتد بها جذورها إلى أغواره وأن ادراكهم ووعيهم وتقديرهم لهذا العمق الحضارى فيه أداء لدين إنسانى لخيرهم وخيرنا .

ولعل هذا الإدراك كان أساس اقتناعى وإيمانى ليس بنفسى فقط ولا بقريتى ولكن بوطنى ، وهو اقتناع وإيمان لم يوهن منهما تروى الاحداث وما تولده من ضيق أو يأس أو حيرة أو أسى ، فلم تراودنى حاجة مع طول تقلب الأيام وتلبد الغيوم إلى إحياء لقناعة أو إيمان بهذه الأصول . ولم يدهشنى فى شيخوختى أن يستوقفنى سيد لم أتذكره ولا أذكر الآن اسم أو أين قابلته ليسألنى عما إذا كانت الأحداث قد زعزعت ماناديت به منذ عقود من إيمان بهذا الشعب وتفاؤل بمستقبله، ولكن حز فى نفسى أن أجده فى حاجة إلى الأطمئنان وتأكيد الثقة والأمل وكان الدين أصلا حاكما من أصول حياة القرية ، ولكنه كان دينا فطريا لا افتعال ولا اصطناع فيه . وكان على عكس مرحلة تالية يبدو كما لو كان طبعا لا فضل ولا مجالدة فيه . ومن

حيث هو طبع لم يكن متعنتا أو مكبلا بل كان يسرا متسامحا بل أحيانا مفرطا وأحيانا مبهما ومغلوطا .

وكان المرجع الدينى الشيخ جبر عريف الكتاب رجل كبير السن أبيض اللحية تخرج على يديه من يعرف الكتابة والقراءة من الرجال وأولادهم وحتى فى سنى المبكرة كان واضحا أن علمه لا يخرج عن حفظ النصوص ومعرفة معانى ألفاظها وهو لم يتطلع أو يدع لنفسه دوراً أو فضلا أكثر من ذلك وبالتالى كان تلميذاً منصتا ومتقبلا لكل من عنده أو يدعى علما خارج حدوده ومن ثم لم يكن له نفوذ أو تأثير ثقافى خاصة وقد خرجت أجيال جديدة إلى مناهل العلم والتجربة خارج نطاق القرية ، ولم يقلل ذلك من الاعتزاز به لسماحته وبساطته حتى على المتعلمين وكنت أمر بالكتاب لأتابع ترديده للآيات بنغمته الرتيبة وترديد الأطفال كل مقطع وراءه ، وما يكتبه الأطفال على لوحاتهم تقليدا لكتابته ، وكان الإقبال مرتبطا بمواسم الزراعة ومشاغلها ولما كانت الإجازة تمتد إلى موسم جنى القطن فإن موسم مقاومة آفات الزراعة والجنى يوقف الدراسة ، ولكن هذه المواسم لم تكن تكدر الشيخ جبر لأنها تعده بحسن الجزاء ، فلم يكن أجر التعليم فى الأغلب يدفع نقدا إلاَّ من الاعيان والتجار ، أما الفلاحون فكانوا يؤدونه قدرا من الذرة أو القمح أو الأرز أو حتى البيض ، وما تيسر وكذلك كان القارىء الشيخ محمود يتناول أجره ، وحلاق الصحة الذى يحلق الذقون والرءوس

ويداوى الأمراض ويجرى ما تيسر من جراحات وكان لكل من هؤلاء خراج معلوم من مالك القرية ورأسها جدى الحاج شربينى أبو جلال ومن كل المستنفعين كل قدر استطاعته . ولم أحس أن هناك من درس وخطط كل هذه النظم والعلاقات ولا دونها ولكنها كانت أوضاعا تلقائية موروثة ومقبولة من الجميع وحتى الفلكة للمقصرين من أطفال الكتاب ، لم يبد لى أنها موضع شكوك أو عدم قبول ، وإن كانت مشاهداتى بينت لى أن الشيخ جبر كان يستخدمها بأسلوبه الثابت من التسامح واللين لإحداث ضجة أكثر من الألم . وكانت القوانين واللوائح والنظم الحكومية ينظر إليها كعوامل دخيلة من عالم خارجى لا فكاك منه ولكن أيضا لا ارتباط به أو تواصل معه وأحداث القرية يحكمها قانون هو قرار الجد المتشاور دائما مع عقلاء القرية . ولم تكن القرية عمديّة بعد بل كانت ملحقة بكفر مجاور عمدته خالى ولم يكن له دور إلا إذا لزم إبلاغ المركز فيما ندر من جرائم أو مخالفات من أغراب ولم أفهم أولا أن سلطة رب الأسرة ومالك القرية لم تكن مطلقة إلا بعد الجلوس إلى جلسة المضيفة مرات ومرات واتضح فى أن الارتكاز الأصيل للنظام والعلاقات هو العرف والعادات والأصول فكثير من المسائل كانت تحل بعد الاتفاق على ما هو احكام العرف والعادات والأصول فى شأنها وكان القرار لا حاجة له إلا فى التغلب على تصادم الشخصيات والمشارب ، ويبدو أن قرار الرئيس كان دائما فى حاجة إلى مصادقة وإجماع العقلاء ، ولكن يبدو

أنه كان بينهم جميعا تجاوب فكرى غير مسموع لأنه لم تكن هناك صعوبة فى الوصول إلى المصادقة التلقائية وبدا له فيما بعد أن استشفاف غياب المصادقة سببها عدم الافصاح عن القرار أو تكليف كبير بالمصالحة بين المختلفين بإيحاءات معلقة . وبدا أن الفلاحين لم يكن لهم دور فى هذه المنظـومة ولكن بدا فيما بعد أن هذا غير دقيق وأن الفلاح الفصـيح ليس مجرد حكاية مـن حكايات التـاريخ ، ولكن ظاهرة راسخة فى البنيان وبدا لى أن الفلاح الفصيح ليس بالضرورة أكثر نفورا من أقرانه ، ولكنـه كثيرا ما يكون اكثر تطورا وأطلق لسانا وكان يبدو على سطح القرية كما لو أن دور النساء كان غائبا ولكن الانصات فى البيت الكبير لزوجات الابناء المتعددين وما يرددونه عن الدور الكبير لزوجة الحاج ولم اسمع منها صراحة إصرارا على تدخل أو تأثير وما التقطته أذناى من أقـوال متناثرة من ندوة النساء حول فرن الخبيز فى الصباح الباكر أكد لى أن انفراد الرجال هو مظهرا أكثر منه واقعا .

كانت علاقتى بالقرية فيها بعض التناقضات فكنت أنا الوحيد بين أطفال الاسرة الذى يتعلم فى مدرسة الخواجات والوحيد الذى لا يطرح ملابس المدينة ويعود إلى ملابس القرية وعاداتها فى الأكل والانطلاق بمجرد العودة إلى القرية ، ولعل عزوفى الغريزى عن المرح والصخب كان أيضا مؤشرا على المخالفة والغرابة ومن ثم فكانت المعاملة المتميزة

فى الرعاية والعطف عكسا لتفرد والدتى الحضرى وتعليمها الاجنبى فلا تعكس فقط تقديرا للتمييز ولكنه اعتراف بالاختلاف ولم أكن أنا أحس بهذا الاختلاف على ما أتذكر من حيث الانتماء والاصول ، ولكن كان يراودنى الظن أن هناك تسيبا فى الرقابة والرعاية تبدو فى شح ما حصله أبناء عمومتى من انتظام وتحضر (بمعنى عادات الحضر) بعودتهم للبيئة الأم ، وكنت أعجب لماذا يتحمل آباؤهم أعباء الغربة وتكلفتها إذا لم يصروا على الاستفادة بعائدها . وفى مرحلة تالية عندما لم يوفق أو يعتنى بعضهم أو أغلبهم بدراسته ، وأخذ آباؤهم يتحدثون معى فى رقابتهم ونضجهم فلم أخجل من أن أذكرهم بمسئوليتهم فى قصور الرقابة والرعاية . والحقيقة أن والدتى ووالدى لم يقصرا أبدا فى هذا المجال فوالدتى كانت الوحيدة ابنة المدينة وهى أيضا متعلمة فى مُدرسة الراهبات وكانت معتزة بذلك كل الاعتزاز ولم تسمح للقرية وأهلها أن تنسيها أو تنسى هذا الفضل الكبير ، وكان والدى رغم غيابه عن حياتنا فى المدينة ، ما عدا زياراته الدورية لانشغاله بالزراعة ، شديد التطلع والطموح لابنائه أن يشقوا طريقا بارزا فى العالم الكبير ، وكان رغم تعليمه غير المستكمل على علم بواقع عصره ومتطلباته وفى انسجام مع المدينة والقرية بتلقائية واعتداد . ومن ثم كانت البيئة المنزلية محفزا على التحصيل والتحضر وإن كان والدى على عكس والدتى ، كان معينا إلى أكبر حد ألا أتنكر

لأصولى وجذورى الريفية التى كان يعتز بها على كل الاعتزاز ولا يخجل من نواحى قصورها .

ولا أستطيع أن استرجع ذكريات الطفولة فى القرية فى العشـرينيات وأوائل الثلاثينيات دون أن أقـف عند الانقلاب الذى اجتاح حياتها فى الأزمة الاقتصـادية العـالمية فى أوائل الثلاثينيات .

وأذكر جيدا مرحلة الرخاء التى عقبت الحرب العالمية الأولى وأذكر بعض مظاهرها السـاذجة فكان السمك يستحضر فى زكائب ليغترف كل فوق احتياجه المنطـقى والبطيخ الذى كان يعشقه جدى يجىء فى مراكب ويخزن تحت السرير وكان ثمن القطن المرتفع يحصل من المرابين اليهود وعملائهم من اليونان والشوام قبل الجنى والشجر مازال أخضر لم يزهر ولا أتذكر أن هذا الرغد استخدم فى إنشاء أو استثمار إلا شراء مزيد من الطين وكان المرابون يجزلون الإقراض بفوائد وإضافات خيالية وكان الإنفاق يعكس بدائية المجتمع وقصور تطلعاته على مطالب الحياة البـدائية من مأكل وملبـس ومجاراة ، وأذكر السيارة التى لم يرض أبدا جدى عن استخدمها بدلا من الحنطور العزيز وسائقها اليونانى حيث لم يكن التعامل مع الآلة قد شاع فى مجتمع الريف ، وأذكر صدمة وفاجعـة الأزمة الاقتصادية العالمية وانهيار أسعار القطن وانهيار الاقتصاد الريفى كله معه ، والعجز عن سداد الديون وفوائدها والحجز والحراسة لحساب البنوك التى عملت

الدولة على تدخلها لتفادى خراب كثير من الاسر وضياع أملاكها والاملاق والضنك الذى حط على ملاك القرية ومن ثم على فلاحيهم وحشمهم الذين لم تصرف أجورهم والقلق واليأس الذى شمل نظرتنا للواقع والمستقبل اذكر الجنيه الذى اشتريت به جاكتة مستوردة من تشيكوسلوفاكيا وأختلت بها لسنوات ، وأذكر السير يوميا من شبرا إلى دار الكتب فى أول صيف لى فى القاهرة بعد الابتدائية واذكر فوق كل هذا عمال الترحيلة الذين يحضرهم المقاولون لمقاومة دودة القطن ومعهم زادهم من خبز الاذرة والبصل ونومهم تحت الأشجار فى الحقول لمدة شهر أو أكثر وأذكر أنهم رجال وصبية وفتيات لم يكن يسترهم إلا جلباب بالٍ واذكر عصا الخولى تلهب ظهورهم كلما عثر الفريزة على علامة من بعض فراش الدودة فى أشجار الصف الذى يفحصونه وأذكر فى غياب والدى وتطوعى للمساهمة إصرارى على البحث عن بديل لعصى الخولى وعرضى للقروش القليلة التى اقتصدتها كمكافأة لمن لا يترك علامات دون جمعها وأذكر غناء العمال لى عند حضورى تحية لعطفى وأذكر ثورة الخولى خوفا على المحصول من الضياع وأذكر ضياع أغلب المحصول الذى لم يكن للقروش ولا العصا أن تنقذه ، وأذكر وجود الأطفال منهم اللماحة والجميلة قبل أن تطحنهم قسوة الحياة وشظفها وحرمانهم من كل نعمها وأذكر إحساسى الدفين بعدم عدالة الدنيا وظلمها وأنا أرى صبية تتألق فى عيونهم علامات الذكاء والنجابة

وفتيات اسبغ الله عليهم قسمات الرشاقة والجمال تكبلهم جميعا أغلال الجهل والعوز والحرمان والمستقبل المغلق . وكم عاودنى الفكر أن منهم من هو بالقطع اكثر ملكات منى وأقرانى لو أتيحت لهم نصف فرصنا ومميزاتنا . وفى الحقيقة إن شكوكى المبكرة بعدم عدالة الحياة بدأت حتى فى أيام الرخاء فى العشرينات فى الوقت الذى كان جدى يلتزم بتوزيع عطايا العيد من الأقمشة والمأكولات على كل الأسر غير الميسرة العاملة فى حقوله وعلى كل أسر بنات العائلة المتزوجات خارج حدود القرية ولم أرى فى ذلك ولا فى عادة التكافل فى الأفراح والمياتم التى تلزم كل منزل بإخراج صنية من المأكولات المتميزة للمعزين أو المحتفلين بالأفراح وإستضافة بعض الغرباء للمبيت حسب الامكانيات ولا النصيب الأجزل الذى يتحمله جدى فى هذا المجال إلى الحد أنى تساءلت عن عدالة امتلاك جدى لكل الأرض مما أثار التعجب والاستغراب من كل السامعين .

ولقد علمتنى الأيام الطويلة فيما بعد أن صفة أصيلة من صفات الحياة هى عدم العدالة بالمعيار الشخصى الخلقى فربما لزم أن نقيم عدالتها بمعيار أوسع رقعـة زمنية ومكانية وانسانية ، وعلى أى حال فإن تعميم الحكم من الجزئيات إلى الكليات طريق مضمون الشطط والخلل . فتركيز الملكية فى أيدى كبار الـملاك كان ظاهرة واضحة السلبية فى هذا الزمان من أبعادها الاقتصادية والسياسية . وبالقطع

كان هناك اقطاع يقصر بطغيانه الاقتصادى والسياسى المعدمين وقد شاهدت بعض مظاهره فى اقطاعيات ورثة النظام العثمانى والملوكى حيث كان تراث أفندينا السيد والفلاح المسود يخدم ويدعم الممارسات الاقتصادية والسياسية والإدارية والنظامية بكل شدة وقسوة إلى حد الانتقاص والإهدار للقيم الإنسانية لغالبية المصريين وأحسست بالمشاهدة المقارنة الفجوة بين هذا النمط والنمط الذى عايشته فى قريتى أبو جلال ولم أفهم الفرق الشاسع فى جنورهم التاريخية وبالتالى معاييرهم القيمية . وفى مرحلة تالية بعد التحول الناصرى وما فجعنى من استئصال كل القيم القديمة السلبية والايجابية والفشل المروع فى إحلال قيم بديلة لها مصداقيتها وتأصلها راودنى الحنين إلى قيم شجبتها فى صغرى وافتقدت ركيزة تقبيل يد الجد فى المضيفة واستوعبت مدلولها القبلى كرباط للجماعة واحتياجها لقيم راسخة تحترم السن والخبرة وفضل الرعاية والحفاظ على معايير للحقوق والواجبات وتسمح بالتفرقة بين الأفراد ولكنها تؤكد التزام كل الأفراد بالمجموعة والأصول والاتصال . وفى ظنى أن المبررات التاريخية لهذا النمط كانت قد استنزفت أغراضها وفى ظنى أن المدارس الفكرية الحديثة مثل الاشتراكية هدفت فى الأساس إلى إرساء منظومات متكاملة بديلة . والذى أعرفه من المعايشة والمشاركة على مدى أحقاب ابعاد القارات أن المدارسة الفكرية وممارستها التطبيقية

لا تؤصل ولا ترسخ منظومات القيم ، ويبدو أن كل ما تستطيعه هو إزالة العقبات أمام بعضها وإقامتها أمام أخرى . وفى النهاية لا غنى عن التجربة والمعاناة الاجتماعية وتفاعل تناقضاتها لإرساء جذور النبتة الملائمة . وكل ما أعرفه أن مرحلة الانتقال هذه لا تقل قسوة ولا عبثا عن مرحلة الجمود مع القديم البالى وأن حملت فى طياتها بارقة الأمل ووعد بالتقدم .

الباب التاسع

التردى والقنوط
بداية الحركة الوطنية
١٩٤٣ - ١٩٤٤

انتهت حوادث ٤ فبراير ١٩٤٢ بعودة الوفد تحت ظروف قاسية عسكرية واقتصادية واجتماعية .

وخلال فبراير سنة ١٩٤٢ واصل روميل تقدمه وسقطت بير حكيم وطبرق باندحار بريطانيا فى يونيو وأسر ٢٥ ألفا من جنودها ، ودخلت قوات رومل حدود مصر يوم ٢٥ يونيو واحتلت السلوم ، وسقطت مرسى مطروح يوم ٢٩ يونيو وبدأ حصار العلمين ، ووصلت القوات الألمانية على بعد مائة كيلو متر من الاسكندرية ، وهجم الناس على البنوك ، وعلى رأسهم الأجانب لسحب أرصدتهم ، وحاولوا الهروب إلى فلسطين ودبرت لهم القوات البريطانية قطارا خاصا ، وأخذت البعثات الأجنبية الدبلوماسية تحرق مستنداتها وتصاعدت أعمدة الدخان ، واكتظت الطرق الصحراوية للشرق بالسيارات الهاربة نحو فلسطين وسوريا ولبنان محملة بكل شرازم الأجانب والمستمصرين . وتجاوبا مع فزع القيادة البريطانية نحى النحاس باشا عبد الرحمن عزام عن قيادة الجيش المرابط وبالتالى تمت تصفية عصبة على ماهر الذى بقى معتقلا للتفاهم مع المحور منذ ١٨ أبريل من نفس العام .

واجتاحت شائعات جر القوات المصرية إلى أتون المعركة وتبين أن إعلان بريطانيا عن استمرار المقاومة إلى آخر المدى تتضمن خططا لانتقال القاعدة والقيادة إلى شرق قناة السويس وفلسطين وإقامة حكومة المنفى من الملك والوزارة إذا لم تصمد العلمين أو

تسربت قوات المحور للاسكندرية أو الدلتا . وتردد أن الملك والوزارة لا تقبل فكرة الانتقال وزادت المخاوف والشكوك عما يمكن أن تفعله بريطانيا لتفادى قيام حكم شرعى موال أو متعاطف مع المحور والانعكاسات الخطيرة على العالم العربى والشرق الأوسط والأقصى لمثل هذا التطور .

وزاد نشاط الطابور الخامس وانطلقت أصواته علنية وضاعف الانجليز والحكومة المصرية من اجراءات الأمن واحكام قبضتها بدرجة مكثفة ولكنها لم تبعث على الأطمئنان ، وإن زادت من الشكوك والاستفزاز رغم الحملة الواسعة على المهيجين والعملاء ومروجى الإشاعات والتى اتسمت بالعنف والقسوة فى أحيان كثيرة ، وكلف الجيش بدعم الشرطة فى المحافظة على النظام وألقى القبض على المشكوك فيهم وتعاملت معهم المحاكم العسكرية ، واعتقل النبيل عباس حليم وأغلق نادى السيارات الملكى ، ولكن تحت ظروف المرحلة لم يكن هذا موضع الترحيب المتوقع من الحركة الوطنية الأصيلة رغم ما أحاط بهؤلاء من شكوك بعدم الولاء الوطنى والتواطؤ الفاشى .

وعليه فحتى بداية الهجوم البريطانى المضاد ضد قوات المحور فى أكتوبر ١٩٤٢ فقد ادعت المعارضة أن النحاس انحاز انحيازا لبريطانيا حسب أحكام المعاهدة التى وقعها فى محنتها ودفاعها عن الديموقراطية كما تدعى ، وكانت مهمة النحاس كبيرة فى حماية مستقبل

الديموقراطية الوطنية من طغيان الفاشية دون ترسيخ سطوة الاستعمار البريطانى البغيض وارتباطه الأصيل بأعداء الحركة الشعبية وتحقق انتصار العلمين واستعيدت برقة وبنغازى قبل نهاية ديسمبر ١٩٤٢ بقيادة مونتجمرى للجيش الثامن الكامل التدعيم .

وتأكدت نهاية أحلام المحور فى شمال إفريقيا بنزول الحلفاء فى غرب العالم العربى الاطلنطى فى ٨ نوفمبر ١٩٤٣ وختمت المغامرة بسقوط طرابلس وبنزرت وتونس ليتلاقى فكا الكماشة ويبدأ اعداد القاهرة لمهاجمة ايطاليا والجبهة الجنوبية الضعيفة للمحور على الشواطىء الشمالية للبحر الأبيض المتوسط واقتنع الشارع الوطنى بأن هذا التحول يمثل منعطفا جذريا فى مسار الحرب العالمية ، وأكد هذا الاقتناع الصمود البطولى ونقطة التحول الأولى لموسكو ولينتجراد وستالينجراد والقرم أمام الاجتياح الرهيب الألمانى ودخول الولايات المتحدة للحرب وبداية حشد قواها فى بريطانيا التى عانت الوحدة والحصار والضرب لأول مرة فى التاريخ العسكرى بالصواريخ ولا شك أن صمود الشعب البريطانى فى هذه المرحلة أعاد بعض الاعتبار بعد الهزائم النكراء فى أوربا .

ورغم أن بداية وضوح الرؤية على المستوى العالمى قد ازال عنصرا من عناصر البلبلة فى صفوف جبهتنا فإن تصاعد ارتباك

الجبهة الداخلية وتضارب أحداثها كان مدعاة لتضاعف مخاوفنا وقنوطنا ، وتآكلت ثقتنا في قدرة المؤسسات السياسية القائمة على مجابهة تحدى المعركة المتصلة مع الاستعمار البريطانى التى بدأت خطوطها تتضح بعد استرداد الأسد البريطانى المتخن بالجروح وتصاعد احتمالات التحديـات عقب تغير التوازنات الاستراتيجية بعد انتهاء الحرب .

كان لعنف التغيرات على الساحة العالمية انعكاسات سلبية على الساحة الداخلية بعيدة الغور وإذا كانت سنة ١٩٤٣ المنعطف الحاسم في مسار الحرب العالمية فإن هذه المرحلة أكدت انحباس المؤسسات السياسية فى خندق منافساتها ومزايداتها التقليدية الموروثة فافتقارها إلى الوعى والقدرة للتعامل مع المتغيرات الخطيرة القادمة فالهجوم على الوفد الذى وصل إلى الحكم على «أسنة رماح الانجليزى» كان النداء الغالب والملح للمعارضة بكل فئاتها وتحميل الوفد مسئولية الغلاء الفاحش والأزمة الوطنية الحادة واستسلامه للتدخل البريطانى عن طريق مركز الشرق الأوسط الذى انشأوه كان محل نقد ومساطة . كذلك كان العنف والسيطرة التى مورست فى مرحلة الهزيمة فى أوائل ١٩٤٢ والتى صعدت موجات الكراهية والرفض ضد قوى الاحتلال التى استمرت بعد ذلك .

والحقيقة إن حدة الأزمة الاقتصادية واحتكار بريطانيا لقنوات التجارة المصرية مع الخارج بررت للوفد تعيين مستشار اقتصادى ومالى بريطانى هو باكستر ، وكان ذلك صدمة حتى لأنصار الوفد الذين تربوا على معاداته للتدخل الأجنبى ولم تكن السراى أقل فاعلية فى الاصطياد فى الماء العكر ليس فقط انتقاما من مهانة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ولكن ردا على محاولات النحاس إعادة احتكاره للشعبية وسحب بساطها من تحت أقدام السراى ..

وتصاعدت حدة الخلافات بين السراى والوفد على اقتسام السلطة وإصرار الملك على استعادة التجاوزات التى مارسها والده الملك فؤاد ، والتى كانت سبب أزمته مع الوفد ١٩٣٧ الذى دافع عن الحق الدستورى لممارسة الأغلبية لسلطة الحكم حتى تعيين كبار موظفى السراى وليس الملك الذى يملك ولا يحكم ، وفجرت استقالة شيخ الأزهر المراغى هذه الأزمة بشكل عنيف خاصة وقد كان الشيخ طرفا فى صدام ١٩٣٧ ، وإصرار الوفد على عدم أحقية الملك فى تعيين شيخ الأزهر ، واتخذ الخلاف مظاهر علنية تجلت فى تسابق الملك والنحاس على استغلال المشاكل للنيل من الطرف الآخر مثل وباء الملاريا فى الصعيد والمصادمات الحادة مع المعارضة فى البرلمان على صفحات الصحف والاجتماعات .

والحقيقة أن ارتكاز الملك على أحزاب المعارضة كان أكثر فاعلية بعد خروج أعدائه التقليديين الأساسيين مع الخلفاء للنحاس عمليا وتزعمهم للحملات ضده والتشهير والمبالغة في أخطار الوفد وانحرافاته ، فقد خرج النقراشى وأحمد ماهر فى سنة ١٩٣٧ وأنشأوا حزب السعديين الذى لاحظنا الدور الرئيسى الذى لعبه فى حكم الأقليات منذ هذا التاريخ ، وفى سنة ١٩٤٢ خرج مكرم عبيد الذى كان على رأس المتصدين للسعديين وصاحبت خروجه معركة دموية من التشهير والتجريح اعتبارا من مايو سنة ١٩٤٢ فى بداية مصاعب الوفد من مرحلة الهزيمة العسكرية ، وانشغل مكرم أو النحاس فى مرحلة الخطر الداهم بالكتاب الأسود والمعركة الشخصية الدموية التى خاضها مع الكتلة الوفدية التى أنشأها فى مرحلة كانت الهموم والمخاوف العالمية والمحلية الشغل الشاغل لكل وطنى عاقل متزن ، وهكذا بدا الميدان كما لو كان ميدان صراع بين كلاب مسعورة أكثر من ميدان خلاف بين قيادات وطنية مسئولة ، وأفلح كل طرف ليس فى الدفاع عن موقفه ، وإثبات مسئوليته وطهارته ولكنه أفلح فى تأكيد انحراف وفقدان الطرف الآخر للأهلية ومبررات الثقة ، وانتقل هذا الجو للشارع السياسى بحيث أصبحت لغته هي لغة التشهير والتجريح وتحميل مسئوليات كل المشاكل للأطراف المعادية ، والحقيقة أن أطراف المعركة جميعا تميزوا بالإصرار والتحفز والحقد الدفين ولم يكن النحاس أقل اقبالا على المجابهة

والنزال . وكان هجوم مكرم عبيد هو أول جارح لنزاهة وطهارة النحاس وتم طرده من البرلمان في ١٢ يوليو بعد أن استغل منبره في التجريح والتشهير بالنحاس وبطانته . وحاولت كل الأطراف ، وخلال حدة عنف المتغيرات العالمية ، إدخال الأطراف الأجنبية فى هذه المهازل المأساوية بمختلف الطرق إلى حد تقدم المعارضة بإجماعها بطعون إلي الزعماء العالميين الذين اجتمعوا فى ميناهاوس فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٤٣ وهم روزفلت وتشرشل وشأن شايشنج الصينى بإدانة ماحقة للنظام القائم تحت ستار المطالبة بحقوق مصر .

وعاد مكرم لإصدار إتهام جديد للنحاس فى عام ١٩٤٤ فى ملحق الكتاب الأسود الذى أصبح انجيل المعارضة بتفريطه فى الحقوق الوطنية لصالح الاحتلال ، واستغل زعماء المعارضة ذلك فى تشكيل ما أدعو أنه جبهة وطنية وحملوا بريطانيا أوزار كل مشاكل وأخطاء وتجاوزات المرحلة العسكرية ساعين إلى إحراج بريطانيا واغتصاب دور الوفد التقليدى وإثبات خيانته للأمانة الوطنية وإقناع بريطانيا بعدم فاعليته فى حماية الاستقرار وتدعيم جهود الحرب ضد المحور الذى مالأ عدد منهم إطماعه فى المراحل السابقة بل وتصاعدت مطالبهم بالتشكيك فى معاهدة ١٩٣٦ والحفز على إلغائها وتحميل الوفد مسئولية قيودها .. وبدا أن المعارضة تعبئ القوى الوطنية بل والدول الخارجية لخوض معركة مزدوجة ضد العملاء المتواطئين من الوفديين برئاسة

النحاس باشا ومن خلالها الضغط على الاحتلال للعودة للمشاركة التقليدية مع السراى وأحزاب المعارضة .

وكان هذا التحرك يمثل تحديا جادا لمحاولته ركوب موجة متصاعدة ومتزايدة فى الشارع الوطنى طالما اغفلتها المؤسسات السياسية جميعا بإعادة التركيز على أولويات الكفاح الوطنى وتحقيق الاستقلال والتخلص من الاستعمار قبل أن تضع الحرب أوزارها ويستقر النفوذ والتسلط الاستعمارى وترسخ أركانه ، ومن ثم مثل هذا الهجوم محاولة ماكرة لسد فجوة شاسعة بين المعارضة والقوى الوطنية المتأججة والتى عمها اليأس والقنوط من كل المؤسسات السياسية بما فيها المعارضة بتاريخها غير المرموق والوفد الجريح والذى لم تجد محاولاته فى معالجة أزمة الطبقات المتعلمة وتوجهاته الاشتراكية وخطته الخمسية للمشروعات الكبرى والتى كانت أول خطط التنمية ولا محاولاته المجوجة للتصالح مع الملك أو التهادن . رغم سفور تحدى الملك بتعطيل أعمال الحكومة والامتناع عن استقبال الوزراء وإبقاء منصب شيخ الأزهر شاغرا وتعطيل المراسيم .

وكان الوفد قد استنفد أغراضه بالنسبة لبريطانيا المنتصرة ولم يعد المجهود الحربى فى حاجة إلى دعمه الجماهيرى وكان أحمد ماهر رئيس السعديين قد طالت مطالبته بإعلان الحرب على دول المحور وهو الأمر الذى لا يقبل به الوفد ، وفى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ انتهز فاروق التأييد

السياسى من إجماع المعارضة وعدم معارضة بريطانيا وبلبلة القاعدة الوفدية من حملات التشهير والتجريح الفرصة المناسبة لإقالة النحاس وحكومته وتضاعف اتجاهه نحو احتكار السلطة وإطلاق العنان لاتجاهاته الانحلالية الفاسدة سياسيا وخلقيا .

وكان انعكاس كل هذه المحن والمعاناة على الحركة الوطنية انعكاسا مركبا فمن ناحية كانت ضغوط الأحداث العالمية وإفلاس المؤسسات السياسية حافزا لتكثيف الجهود غير الحزبية لملء الفراغ والاستجابة لتطلعات وحاجة الجماهير ومن ناحية أخرى استفادة على هذه التجمعات من أزمة الثقة وتصاعد الشكوك فى صلاحية القيادات التقليدية والهياكل المؤسسية . وكان تصاعد الأحداث يبقى الشارع الوطنى فى حالة غليان دائما وتصاعد الأزمات يشيع التوتر والترقب وتفجر المتغيرات العالمية يزيد الاقتناع بجسامة التحديات وتراكم المصاعب على طريق الحركة الوطنية المستقبلية .

وبدا للكثيرين فى الشارع الوطنى أنه كيفما كان منعطف الأحداث العالمية فلابد أن أيا من التغييرات لا يبشر بالخير للآمال الوطنية ولا أى من إدعاءات أو دعوات العمالقة المتصارعين يمكن الارتكان إليها أو الوثوق بها.ومن ثم فكان الانعكاس الطبيعى يزيد الشارع الوطنى حفزا وتوترا .

ولم تجد ادعاءات ومزايدات المؤسسات السياسية صدى أو مصداقية بين غالبية عابرى الشارع الوطنى ، وإن بقيت فرقهم ولجانهم وشبابهم وصحافتهم تلح على الرأى وتحاصر الأسماع دون تجاوب أو انفعال كما لو كانت أصوات عالم غريب آخر لولا اسهامه فى عناء ومعاناة الشارع الوطنى .

بداية التحرك الوطنى
١٩٤٥ - ١٩٤٦

مع بداية ١٩٤٤ انعكس الغليان والتحفز فى الشارع الوطنى على نشاط جبهة الأحرار الديمقراطيين (جاد) وشاع النقد والتأفف من توجهاتنا الدراسية والفكرية ، وزاد الإلحاح على تحرك عملى فى الحقل الوطنى وكانت أعمال الجبهة تتقدم تقدما بطيئا ومحدودا من الناحية العددية رغم تحقيقها تأثيرا أدعى للرضا وطنيا وفكريا لقاعدة أوسع وأقل انتظاما . وكان نمط العمل لم يتغير فقد التزمنا بالعمل العلنى المفتوح بين المثقفين والعناصر الواعية صغار التجار والعمال المتنورين واستمرت الاجتماعات الدورية فى منزلى فى يوم الخميس يحضرها الأعضاء ومدعوون منتقون ، ولكن اقتضى ضيق المكان اعتبارا من ١٩٤٣ البحث عن صيغ مكملة وقد تحدثت عن الحلقة المغلقة لرجال القوات المسلحة وما انتهى إليه أمرها بعد عرض الوحدة من بعض الجماعات العسكرية المتأثرة بفكر عزيز المصرى والذى انتهى بانضمام

مجموعة من أعضائنا إليهم ومن ثم تقلصت هذه الحلقة وإن استمر اللقاء الدورى معهم وحتى مع بعض العناصر التى انفصلت من الجبهة وتحول مجهودنا فى هذا المجال ليس إلى التوسع فى تنظيم مجموعات داخل القوات العسكرية ، ولكن بطرح تصور وطنى وإطار فكرى يعمل زملاؤنا على نشره بين المجموعات العسكرية النشطة بما يؤكد تصحيح مسارها السياسى والتحام توجهاتها الوطنية مع الجبهة المدنية ، وأظن أن هؤلاء الزملاء بذلوا جهدا موفقا حتى جاء ت حرب فلسطين التى قلبت توجهات وموازين العمل فى القوات المسلحة .

واقتضى تطور العمل محاولة تنظيم أعضائنا وتحركهم على المستوى الجغرافى ومن ثم بدأت مجموعات منهم فى الاسكندرية والعباسية وشبرا الخيمة تعقد اجتماعاتها فى ضوء التزام قياداتها بحضور اللقاءات الدورية المركزية وإطار اشتراك المجموعة المركزية فى لقاءاتهم الموسعة . وتمت محاولة فى طنطا وبعض أحياء القاهرة الأخرى .

وكانت هذه المجموعات الفرعية غير منتظمة المسار ومتذبذبة التقدم وقد اقتضى الأمر أن أتابع شخصيا مجموعة الإسكندرية بحكم صعوبة حضور قياداتهم للاجتماع المركزى الدورى حيث إن موارد الجماعة كانت شبه منعدمة فإضافة إلى الاشتراك الرمزى الذى لم يتعد عشرة

قروش كان المورد الآخر هو غرامات التأخير والتخلف عن الانتظام فى الاجتماعات .

وقد حققت مجموعة اسكندرية نجاحا مشجعا فى مبدأ نشاطها إلى الحد الذى بدا معها أنها قد تنافس المجموعة المركزية ولكنها كانت تعانى مصاعب واحباط دورى يعكس مشاغل قياداتها مثل الوفاة العائلية والامتحانات وفقدان مكان ممتاز للاجتماع لتغير ظروف أصحابه إلخ .....

وفى المجموعات الأخرى ظهرت صعوبة غير متوقعة مثل خطر انحراف المجموعة ودخولها فى توجهات حزبية أو دينية أو مغامرية إذا ما تعدى التوسع القدرة القيادية المتاحة للمجموعة وكمحاولة لمعالجة هذا كلفت بكتابة كتيب طبع منه المئات على البالوظة بمعرفة الأعضاء وقررنا أن يكون عنوانه «وطنى» وحاولنا طرح منظور لواقع القضية الوطنية فى إطار المتغيرات العالمية والداخلية وإبراز محدودية فاعلية المؤسسات السياسية القائمة والحاجة إلى فكر سياسى وطنى جديد يولده التفاعل والمشاركة الشعبية اللذان ركزنا على انهما مفتاح الانطلاقة الوطنية القادمة ومن ثم دعونا إلى عزل المؤسسات السياسية القائمة والانتقال بالمسئولية إلى التفاعلات الشعبية والفكر الجديد المنبثق فيها وبالغنا فى التأكيد لتوفر الظروف والامكانيات

لتحقيق ذلك ، ودعونا إلى بداية التعبئة الشعبية فى حلقات ذات فكر وطنى مفتوح .

ونتيجة لضغوط الغليان والتحفز تحول نشاطنا من الدراسة والتحليل السياسى إلى مناقشة خطة العمل والحركة ، وقد تمت بداية المناقشة على نفس الأسلوب التقليدى لـ «جاد» أى الاجتماعات المفتوحة ولكن سرعان ما تبين أن الأمر يحتاج لتركيز واستمرارية وقدر من الحيطة لا توفره هذه اللقاءات . ومن ثم رأينا أنه مع استمرار هذه اللقاءات المفتوحة وإسهاماتها تتكون مجموعة من الأعضاء الأكثر مواظبة والتزاما والأطول خبرة للعمل على بلورة مجموعات الافكار المتناثرة فى مفهوم استراتيجى متكامل وكانت الحرب العالمية الثانية قد أرست المفاهيم عن الأطر الاستراتيجية والخطط التكتيكية بين كل المتعلمين .

ولكن حتى هذا التحول فى التوجه لم يشف غليل المتحمسين وكان إصرارهم على الحركة يؤدى إلى طفرات فكرية متطرفة مثل التحول إلى حركة مقاومة مسلحة للقوات العسكرية البريطانية أو الهجوم المركز ليس فقط على المؤسسات السياسية التقليدية بل والتوجهات الجديدة اليمينية واليسارية الدخيلة ولحسن الحظ أنه على هذا البعد الزمنى من منشأ الجبهة «جاد» كان قد تولد قدر كبير من المصداقية والتقدير بينى وبين الأعضاء وكان الأعضاء القدامى يغزون هذا التوجه فى الجدد

ومن ثم أمكن للحـوار الهادئ البناء احتواء هذه الطفرات ليس بالضرورة للاختلاف معها سياسيا ، ولكن من منطلق أنها تحيد بنا عن أولويات التزاماتنا الوطنيـة وتقـلل فـرص قيادتنا للتحرك وتعبئة مشاركة شعبية شاملة وانتهت هذه المرحلة من النقاش والحوار الملتهب فى أوائل ١٩٤٤ إلى الاتفـاق أن أقـوم أنا شـخصيا بصياغة استراتيجية العمل بشكل متبلور ومبسـط يستطيع أن يكون دليل عمل فى المرحلة القادمة .

لعل أكثر المؤرخين لهذه المرحلة دقة وأمانة الدكتور طارق البشرى فى كتابه «الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢» قد عالج مشكلة تأريخ الحركة الشيوعية فى مصر بتحفظين موضوعيين هما فى الحقيقة يعبران عن مشكلة التأريخ لكل الحركات غير الحزبية فى هذه المرحلة أولهما أن القائمين على تنظيم هذه الحركات لم ينشروا مذكراتهم وإن الاعتماد على المرجع الأجنبى الوحيد المتاح لا يخلو من الذلل ، والتحفظ الأخير أن توفر المادة (التاريخية المستقاة من المطبوعات العلمية واللقاءات الشخصية) بالنسبة لتنظيم معين أكثر من غيره يترك الانطباع بأنه كان التنظيم الأساسى .

ولم يكن غريبا وهو يعمل تحت وطأة هذه القيود أنه يؤرخ لبدء الحركة الوطنية ١٩٤٥ - ١٩٤٦ باجتماعات ملاعب كلية الطب وتشكيل اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى وتنظيم انتخابات اللجان

التنفيذية والوطنية فى الكليات والمعاهد والمدارس دون أن يذكر الجهة القائمة عليها ولا شخصية رئاستها .

والحقيقة أنى تعرضت إلى إلحاح شديد من قادة الفكر والبحث للأجيال التالية لجيل الثلاثينيات لأدون ذكرياتى عن هذه المرحلة لانطباعاتهم الموروثة عن دورى البارز فى توجيه هذه الأحداث ، ومنهم قادة وباحثون وصحفيون وأعداد كبيرة من الشباب تسمع عن الحركة وعني قصصا وإشاعات وحواديت ويقلقها شح المعلومات وفتح المجال أمام المزايدة والإدعاء . وأظن أنى قصرت فى حق هذه الحركة لمدة نصف قرن ، وأظن أن سبب ذلك ، وليس مبرره ، أنى شغلت نفسى بالفكر والتنوير أكثر مما شغلت نفسى بالتدوين والتسجيل وأنى متحدث أكثر ما أكون كاتبا وأن ظروف نشأتى ، والتى حتمت ركوب موجات الطفرات الفكرية فى العديد من التخصصات العلوم الطبية والدراسات الاستراتيجية والتنمية الاقتصادية والسياسية العلمية والتكنولوچية حتى احتللت المناصب البارزة والمميزة على الصعيد الدولى ، استغرقت كل جهدى ووقتى ، كما استنفر تركيزى النفور المتبادل بينى وبين كل أشكال السلطة منذ عهد الملك فؤاد حتى يومنا هذا دون هدنة أو استراحة امتداد هذا النفور إلى علاقاتى بالسلطة الدولية خلال نشاطى فى بريطانيا حتى عودتى لمصر ١٩٥٦ بعد مغادرتى للوطن فى ١٩٥٠ ثم على المحافل الدولية والأمم المتحدة التى استغرقت مني وقتا

وجهدا مضنيا من ١٩٦٥ حتى ١٩٩٥ . وأملى أن يفسح الله الوقت للاضافة التى تثرى فهم الأجيال التالية والمعاصرة لإحدى فصول الحركة الوطنية وحركة التحرير العالمى المهمة من ١٩٣٥ حتى ١٩٩٥ التى عايشتها وتفاعلت معها متعلما ومعلما على قدر جهدى واستطاعتى .

وكان الإطار الاستراتيجى الذى طرحته على المجموعة ١٩٤٤ بلورة مبسطة لمجموع التوجهات التى أفرزتها تجاربنا ومشاهداتنا واستيعابنا للمتغيرات الوطنية والعالمية ولكنه أيضا كان تعبيرا عن تشخيصنا لعناصر القوة وعوامل القصور فى الشارع الوطنى ، والذى أحب أن أؤكده وسأزيد شرحه مع تتبع الأحداث أنى كنت واعيا للقصور والمخاطر التى يقصر هذا التصور عن استيعابها لكنى لم أكن أدرى مخرجا من هذه المخاطر . وعندما تفجرت الحركة الوطنية فبراير ١٩٤٦ بما تخطى توقعاتنا وقدراتنا على تنظيمها ، ثم تداعت أحداثها بما تخطى القدرة على ملاحقتها ثم قصر الجهد والترتيبات على إبقاء الجذوة وشعاعها ١٩٤٧ لم يكن ذلك موضع استغرابى ومفاجأتى بقدر ما كان موضع أساى وكمدى ومن ثم فأنا لم اختلف مع الناقدين من الصفوف التالية فى تشخيصهم لهذا التصور ، وان اختلفت معهم فى تفسيره فبعضهم رأي أنه فشل فى تعميق جذور اللجان الوطنية للعمال والطلبة (وقليلون يتذكرون أننا أضفنا الموظفين إلى التحالف

بعد أحداث ٤ مارس ١٩٤٦ يوم الحداد ومذابح الاسكندرية وإنفجارات الأقاليم) بحيث تكون لها قواعد جماهيرية راسخة على مستوى تجمعات الطلبة والعمال والموظفين والفلاحين ، وكثيرون رأوا أن التجمع المتنافر فى القوى السياسية المتعارضة كان مصدر خلل وضعف يحتم التفكك والانهيار وبعضهم ذهب إلى أن الحرص على تفادى الخلافات الأيديولوچية والمذهبية كان تجريدا للحركة من انتماء وإلتفاف فئوى محتمل على الأقل ..

وبالطبع فمن منطلق التقييم النظرى والمكتبى لكل من هذه الانتقادات وجاهتها ولكن اهتمامى فى ذلك الوقت لم يكن البحث عن أن أكمل التصورات النظرية ولا أحكم الحبكات الفكرية ، ولكن كان تشخيص واستقراء الواقع المتاح والتطور المحتمل . وكان الاستقراء والتشخيص يجرى فى جو من البلبلة والضغوط واليأس وفى ظروف تزعزع ثقة واضمحلال أمل . ولعل شغلى الشاغل كان إحياء هذه الثقة وبعث هذا الأمل كمنطلق لتحرك وطنى ، لم تراودنى أبدا الأوهام أن مردوده وثمراته دانية وقريبة . وفى الحقيقة أن الخطأ الأكبر فى التصور الاستراتيجى بدا لى حينئذ أنه يعانى من المبالغة فى التفاؤل ومبالغة فى توقع الفرص وليس قصورا فى الإعداد لها واستغلالها . ولعل القضية فى النهاية أننى ركزت على الارتكان على استيعاب ما استقر فى وجدانى أن التعايش الحثيث مع نبض الشارع الوطنى والتمازج مع

نزعاته ومشاريه وأحلامه ومخاوفه واقدامه وتقاعسه ووعيه وبلبلته ثم التزامه وانصرافه هى الركيزة الأساسية الأجدر بالعناية والتركيز . ولعل هذا التوجه كان سببا لمبالغتى بالاستخفاف بكل التيارات المذهبية التى لا ترتكز إلى مثل هذه الخبرة والاستيعاب وعلى أى كان تصورى أن التحرك فى المرحلة الآتية ١٩٤٥ يرتكز على الأسس الآتية .

وكانت الفكرة الأساسية أن مرحلة الجبهة الوطنية بين المؤسسات الحزبية التقليدية غير كافية لتحمل أعباء المرحلة ومن ثم يجب أن تنتقل القيادة إلى الجبهة الشعبية .

وكان مفهوم الجبهة الشعبية فى رأيى ليس عزلا للقيادات الحزبية ولا إخلاء الساحة من تنظيماتها ولكن كسر احتكارها لقيادة الحركة الوطنية ، واجبارها على العودة إلى القاعدة الشعبية ليس كتنظيمات حزبية ، ولكن كعناصر قيادية ميدانية فى المعاهد والمصانع والدواوين والأحياء والقرى . وكانت مرحلة التركيز على المعركة الوطنية فى توجهى تقتضى قصر أغراض ومبادئ الجبهة الشعبية على أساسيات أهداف التحرر الوطنى ومنع التناقضات المذهبية والتوجهات السياسية من تفرقة الصفوف وبالتالى الدفع ببعض القوى نحو المعسكر المعادى للتحرر الوطنى ، وكان مبدأ المشاركة الشعبية من تقديرى واستمرار رقابتها وتحكمها في التوجيه على ما فيه من مخاطر وصعوبات هو

أضمن الضمانات وأمنع الحمايات ، ومن ثم يصبح الحكم الشعبى والرقابة الشعبية هو معيار المصداقية والثقة المتجددة فى الإنطلاقة الوطنية .

وعليه كانت الخطوة الأولى هى الدعوة لانتخاب شعبى للجان شعبية وطنية ميدانية فى كل المواقع وكل المستويات والإصرار على مشاركة كل القوى السياسية فى هذا الجهد مع ضمان الرقابة والمتابعة الشعبية الديمقراطية وعدم المجابهة مع اللجان والتنظيمات الحزبية ، ولكن التحريض والحفز علي مشاركتها وتقدم كوادرها للاختبار والتقييم الجماهيرى وخضوعهم لمعايير ومحاسبة الأفراد «المستقلين» وهو الاسم الضعيف الذى اخترته للعناصر غير المنظمة والذى عرفت أنا به وعرف به أغلب جنود الحركة الوطنية ٤٥ - ٤٦ ومن ثم تولدت عن هذا المفهوم ضرورات قبول القيادات الحزبية لهذا التوجه وتفادى التحدى والحروب الجانبية حوله .

وكان المستوى التالى للتحرك هو العمل علي تكوين قواعد مشتركة على مستوى القطاعات هى اللجان التنفيذية للعمال والطلبة والموظفين .. إلخ أو الاتحادات النقابية إذا وجدت .

وان قمة الحركة هى اللجنة الوطنية المشتركة لهذه التنظيمات القطاعية ومن ثم فلم يكن يلزم تحييد القيادات الحزبية الوطنية بل كان يلزم أيضا تعاون أو على الأقل عدم مقاومة القيادات الحزبية على

مستوى المواقع والقطاعات مع العمل على تفادى توجهها لخلق أجنحة متضاربة متنافرة مهما كانت الصعوبات وإتاحة مساحة للمنافسة على غير الإساسيات الوطنية .

أما خطة التحرك فكانت فى تصورى مبنية على مبدأ التصعيد المتدرج والتفاعل مع استجابة الجماهير وإطلاق أكبر قدر من المرونة على التنظيم والحركة والتيقظ للفرص واستغلال الايجابيات.

ولم يكن هناك تقليل من شأن الصعوبات والعقبات المتوقعة والتى بدت منذ أول مرحلة الدعوة إلى مرحلة التنفيذ فى ملاعب كلية القصر العينى والتى سأوردها فى مواضعها.

وبدأنا فى الدعوة والترويج لهذه الأفكار، وكان تصورى أن أول اتجاهات الدعوة والترويج يجب أن تتجه للعناصر غير المنظمة باعتبارها صاحبة المصلحة فى المشاركة والندية وبإعتبار أن العناصر المنظمة لا حافز لها لقبول المشاركة عن غير تجنيد وضم الوطنيين تحت لوائها وقيادتها، والحقيقة أن جهود أعضاء «جاد» لم تحقق أى تقدم محسوس خلال ١٩٤٤ ، بل إن عدم المبالاة الجماهيرى والمقاومة أصابت العناصر الضعيفة بالإحباط وفقدان الثقة.

واستمرت التحركات والغليان فى المواقع تلقائيا وغير منتظم أو متصل ولا تتاح له فرص القيادة أو التوجيه عن غير اللجان الحزبية أو المنظمة مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة وبعض العناصر اليسارية

المبتدئة فى مناطق محددة رغم التوجه العام للغالبية المستقلة لعدم التجاوب ولا الثقة فى هذه الكيانات.

ولعل هذا هو أول توضيح لتحركات معروفة ومسجلة تاريخيا ولكن غير معروفة أصولها ولا المسئولون عنها بحكم بعض القواعد التى قام عليها التصور الاستراتيجى الذى طرحته جبهة الأحرار الديمقراطيين «جاد» .

فمن هذه القواعد ألا تدعى الجبهة أو قيادتها حق الملكية لأى توجه يمكن الاتفاق عليه مع القوى الوطنية ولا تحاول بل تتجنب الانفراد بتطلعات قيادية أو مكاسب دعائية ، وكل مايحق لها أدعاؤه والتصدى له هو الدعوة للالتقاء والاتفاق وتصديها لمسئولية حفز المستقلين على المشاركة وحماية فرصهم فى ممارسة هذا الحق.

وأظن أن هذا الالتزام كان عنصرا مهما فيما حققته اقتراحاتنا من نجاح فلم يحصل مثلاً وأنا مؤسس ورئيس اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى أن وقعت قرارات باسم عصام الدين جلال رغم الإجماع الذى تمتعت به الرئاستان ولم يحصل وأنا رئيس اللجنة الوطنية للعمال والطلبة أن وقعت أيا من قراراتها باسمى إلا مرة أو مرتين فى أولى مراحل عملها وقبل أن يتدعم وقعها ويعم الاعتراف بها رغم أنى كنت دائما رئيسا للجنة الصياغة أو المكلف بها. وحتى بعد حوادث ٢١ فبراير وسعى الحكومة فى الفصل بين العمال والطلبة ، ومن ثم أوقفنا بشكل

عام إصدار القرارات باسم اللجنة الوطنية للعمال والطلبة واتخذنا الترتيب بإصدار القرارات باسم اللجنة التنفيذية العليا للطلبة التى كانت بمثابة إحدى ركائز اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ورغم ان جوهر هذه القرارات كان معدا بمعرفة اللجنة الوطنية ومعتمدا بمعرفة تنظيماتها الاكثر شمولا بما فيها العمالية والموظفين فقد أمكننى الاقناع بأن تبقى القيادات الوطنية الفعالة فى الصفوف الخلفية رغم ما أبداه البعض من تخوف من انفلات مقود المسار إلى أيدى بعض التيارات المتنازعة فى الجامعة أو بعض العناصر الانتهازية ذات التطلعات الشخصية وهو خطر كان ماثلاً ، وهذه السياسة هى التى أبقت رئاسة اللجنة الوطنية فى يدى رغم المحاولات الغريبة التى اشتركت فيها عناصر من الإخوان المسلمين والتنظيمات الشيوعية لاغتصابها من يدى كما سيجىء بعد وأظنها من المرات النادرة التى تحالف فيها هذان التياران على أمر من الأمور.

وفى أوائل ١٩٤٥ مع اشتداد التناحر الحزبى وحملات الانقسامات والتجريح والمزايدات على تولى قيادة العمل الوطنى والمواقف غير المقنعة فى إثبات جدارة كل طرف حزبى بتسلم مقود المفاوضات ومقاومة الاحتلال وعزل خصومه.

وما صاحب ذلك من تفشى اليأس والقنوط والغليان فى دروب الشارع الوطنى ، استمرت المحاولة لتخطى كل هذه البلبلة والضغوط

واسـتقراء واسـتخراج عزيمة للتحـرك الشعبى الهادف مرتكزا الى تحفز وتدافع الوطنيين خاصـة فى أوسـاط الطلبة ، ولكن استمر الفشل فى بلورة الاتجاه والالتقـاء عند خطة عمل ووضع أسس لتنظيم الصفوف وخلال اجازة الصيف تعددت الحوارات والدراسات لمحاولة الخروج من هذا المأزق وطرحت حلول بطولية كتصعيد المجابهة مع القوى الحزبية جميعا أو تصعيد المجابهة مع قـوى الاحتـلال ولم تسـتطع الدراسة ان تتبين توافـر الامكانيات لتحـقيق أى من تلك التوجهات.

وفى النهاية طرحت مفهومى ان الموقف يحتاج فعلا إلى الإقدام على خطوة اقتحامية غير تقليدية ولكن لتحقيق هدف مختلف هو طرح قيادة ميدانية بديلة تحوز الثقة والقبول من الأغلبية غير المنظمة ولكنها تبقى الباب مفتوحا ومرحبا بالقوى المنظمة ، وانه لما كان قدر من الحماية لازما لتطبيق مثـل هـذا التخطيط فيـجب أن يكون مقصورا على الطلبة فقط فى المرحلة الأولى بحكم قيام تحرك وطنى نشط فى هذا المجال وبحكم اتجاه كل الحكومات إلى تفـادى أساليب البطش مع الطلبة ما أمكن لعلاقاتهم الاجتمـاعية وتأثيرهـم التاريخى الوطنى على الرأى العام .

واقترحت أن يكون التمهيد لطرح القيادة البديلة بهذا الأسلوب بالتركيز على أكثر أبعاد المطالب الوطنية قبولاً واجماعاً وهو الجلاء

والمشاركة الشعبية وتفادى المفاوضات والمعاهدات فى هذه المرحلة تجنبا للمعارك الجانبية، من ثم فاقتراحى هو بداية طرح نقاش موضوعى منهجى لهذه الأبعاد مفتوح لكل الأطراف يهدف الى تجميع قاعدة تكون أداة لطرح القيادة البديلة وفى نهاية المطاف بدا كما لو كان ليس هناك بديل ذو جدوى لهذا الاتفاق رغم أن اصحاب التوجهات البطولية رأوا لأسباب لم تكن واضحة لى ان فى هذا الاقتراح مخاطر أكثر من مخاطر المجابهة مع الأحزاب أو قوات الاحتلال مع استمرار الاعتماد على المنحى الفكرى لتأكيد القيادة وهو منحى لم يكونوا مقتنعين به . ومع ذلك فى غياب بديل تم الاتفاق على بداية الإعداد لهذا التخطيط واقترحت أن أول تجربة ستكون إلقاء سلسلة محاضرات فى كلية طب القاهرة التى أنتمى إليها ولى دور فى اتحاد طلبتها ، وأن كل العناصر عليها الدعوة لهذا اللقاء على مستويات كل الكليات والمعاهد والمدارس ، وقامت اعتراضات على استحالة قبول إدارة الجامعة ولا قوات الأمن لمثل هذه المحاولة خاصة إذا كان مدعوا إليها الطلبة بصفة عامة من خارج الكلية والجامعة .. وتعهدت أنا بحل مشكلة إيجاد المكان وتحييد معارضة الكلية والسعى لايجاد ضمان لعدم اعتراض دخول طلبة من خارج الكلية طالما أنهم يحضرون كفرادى أو فى أوقات سابقة لميعاد عقد الاجتماع، واتفق على أن تتدرج الاجتماعات فى طرح القضايا الوطنية على مدى عدة اجتماعات لاتزيد على أربعة بحيث

تطرح الأهـداف التحـركية والملامح التنظيمـية فى آخر محاضرة بعد ان نضمـن أكبـر عدد من المؤيدين فى اكبر عدد من المعاهد وإننا نسجل أسماء كل الحاضرين ومعاهدهم وعناوينهم لغرضين إضفاء صفة الارتباط معهم وثانيا احتمال الاتصال بهم والاعتماد عليهم فى الخطوات التالية :

لم تفلح محاولاتى مع الكلية، رغم علاقاتى المتميزة فى الموافقة على إتاحة مدرج لهذا اللقاء، وظللت طوال إجازة صيف فى ١٩٤٥ متأرجحا مع التسويف ومحاولات الطمـأنة وإصرارى على تفادى تحريك تظاهر داخلى يقتحم المدرج يوم الاجتـماع ويؤمن استقبال المدعوين لأنى وجدت المنحى الفردى ، باعتـبار ان هذا جهد فردى ، له نشاطه الفكرى والوطنى الموضوعى لبداية دراسة وليس تحريضـا جماهيريا أدعى وأوفق مع مطالب الخطة.

كنت لمدة سنتين عضوا فى الاتحاد الخاص بالطلبة ، وكانت إحدى عقدى التى لازمتنى طوال حياتى أنى لا أقدم أو أسوق نفسى للحصول على منصب أو مكانة عن طريق الانتخاب ، وقد صاحبتنى هذه القصة طوال حياتى على الصـعيد السـياسى والأكاديمى الوطنى والعالمى ، ومن ثم كان لابد من ان تكون هنـاك دعوة اجتماع لتقـديمى باختيار من زملائى ، وقد تحقق لى هذا بفضل الله فى كل المناصب التمثيلية البارزة فى المجال الوطنى والدولى والسياسى والأكاديمى طوال حياتى ،

وكان المشرف على الاتحاد أستاذا من زعيل الحزب الوطني القديم له توجهاته الوطنية ولكن له مفهومه الخاص عن التقاليد الجامعية التى أعجب بها اثناء دراسته فى جامعات بريطانيا حتى انه استمر على ارتداء بدل السهرة التقليدية طوال حياته بالسترة السوداء والبنطلون الأسود المقلم ، كما كان اساتذة الطب البريطانيون يرتدون قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان هذا المشرف يعتبر النشاط الرياضى أساسا من أسس التعليم الجامعى ، رغم الفروق الشاسعة ، حيث ان هذا النشاط خاصة فى مجالات مثل التنس والسباحة إلخ غريب عن الطلبة ذوى الخلفية الزراعية الشعبية وعليه كانت هناك حرب مستمرة بينى وبين-المشرف والفرق الرياضية على أن غالبية الميزانية تنفق على ملابس ومعدات فئة محدودة جدا من الطلبة ، أغلبهم مرتفعو الدخل ليسوا فى حاجة إلى دعم على حساب غذاء ورحلات محدودى الدخل.

والغريب ان حل مشكلة المكان جاءت باقتراح من أعضاء هذه الفرق، فقد كان مشهورا ومعروفا انشغالى باعداد الترتيب لهذه المحاضرات الوطنية على أن تبدأ فى سبتمبر ١٩٤٥ أو على أسوأ تقدير أكتوبر، وحضر إلى بعض أعضاء هذه الفرق ، وقالوا : إن الحل هو عقد هذه اللقاءات فى ملاعب الكلية ، انهم يمكن ان يقنعوا زملاءهم بترتيب الأجهزة والأثاث فى القاعة المسقوفة بحيث تسع لأكبر عدد، على أن

يجلس البعض على الأجهزة أو المفارش وإنهم يمكن أن يشتركوا في تنظيم الدخول والجلوس بما يتفادى معه حدوث أى ضوضاء تجذب أنظار الإدارة أو رجال الأمن ، ولا داعي للحصول على موافقة رسمية حيث إن الدخول للملاعب مفتوح ومتاح لانعزالها عن الكلية وعدم سابقة انطلاق تحركات سياسية منها.. ورحبت بأفكارهم وشكرتهم بحرارة وقد أثر موقفهم في نفسى تأثيرا عميقا ، لا من حيث امتنانى لتقديرهم المنصف لدوافعي العامة بصرف النظر عن الخلافات ، ولكن من حيث إن موقفهم وهم مجموعة بعيدة عن المشاركة السياسية والتفاعل مع الشارع الوطنى كان مؤشرا باعثا على الأمل والرجاء ومحققا لقناعة مبهمة ربما قادت كل تحركاتى الوطنية إلى أن حقيقة الانتماء الوطنى قابعة في ضمير كل مصرى مهما خدعت المظاهر.. ومع ذلك رجوتهم رجاء واحدا وهو أنه لعدم تأكدى من نجاح المحاولة فأنا أطلب منهم فى حالة عدم وجود استجابة واسعة لدعوتى أن يستمعوا إلىّ فى المحاضرة الأولى وإذا وجدوا ما أقول له معنى أو جدوى فلهم حرية الحضور أو عدم الحضور بعد ذلك.

وقد أكمل الزملاء المساهمة فى تربيتى الوطنية انه عند انعقاد المؤتمر التحضيرى فى كلية الطب أكبر مدرجات الكلية وعج بجموع الطلبة بما استحال معه تنظيمهم وعبأت بعض الاحزاب والتنظيمات أنصارها لاغتصاب المؤتمر أو افشاله وعجز انصارى حتى فى تأمين

دخولى للمؤتمر واحتلال المنصة ان تقدمت الفرق الرياضية فى الكلية التى لا يربطها بى أى التزام أو تفاهم وأقاموا من أنفسهم قوة ضاربة احاطت المنصة بسياج كان عاملا أساسيا فى انقاذ الموقف وهكذا بدت سلسلة من دروس الشارع الوطنى وأصالة رجل الشارع الوطنى تعلمنى وتصقل توجهاتى وتدعم ايمانى وانتمائى ، وهذه بداية الإجابة على الاصدقاء والتلامذة الذين طالما أبدوا تعجبهم من اتصال جهودى واستمرار ارتكازها على الايمان بالشارع الوطنى رغم ما بدا لهم انه سلسلة متصلة من الإحباط والانخزال على مدى ستة أحقاب من الزمان.

وأبدأ وصفى لاحداث هذه المرحلة باستعارة وصف د. طارق البشرى فى كتابه عن تاريخ الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ صفحة ٨٤ لأنه أقرب المرويات التاريخية إلى الحقيقة.

«وفى صيف ١٩٤٥ أيضا عرف الطلبة الاجتماعات المتواصلة لتنظيم صفوفهم استعدادا للعمل الوطنى عند بداية العام الدراسى فى اكتوبر آملين فى تكوين جبهة واسعة للكفاح ضد الاستعمار راغبين فى تحديد أساليب نشاطهم السياسى وتوضيح أهدافه ، وكان اجتماعهم الأول بملاعب كلية طب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وحضر هذا الاجتماع وما تلاه ممثلون من الجامعات والمعاهد العليا والمدارس الثانوية والفنية وطلبة الجامع الازهر، كانت تجربة ثورة ١٩١٩ ماثلة أمامهم إذ شكلت

فيها الجماهير «لجان الثورة» واتفقوا فى اجتماعهم الأول على الدعوة لتكوين اللجان الوطنية، كوحدات تقود الحركة الوطنية فى مرحلتها الجديدة، وأعلنوا تشكيل اللجنة التحضيرية للجنة الوطنية للطلبة واضعين لها برنامجا من ثلاث نقاط، ولما كانت النقاط التى وصلت الى المؤرخ لم تكن قرارات اجتماعات الملاعب فى كلية الطب كما سأبين بعد ولا هى كلها تعكس حقيقة قرارات المؤتمر التحضيرى الذى تولى التعامل مع أهداف الحركة فسأؤجل رواية المؤرخ المرموق عند سردى لحقائق الأحداث فى حينها .

أما ما جرى فى اجتماعات ملاعب الكرة التى امتدت الى ثلاثة اجتماعات عقبها اجتماع تشكيل اللجنة التحضيرية فكان كالآتى:

لقد بذل أنصار التحرك من اعضاء الجبهة وغيرهم من المستقلين جهدا مرموقا فى الدعوة للاجتماع بحيث وصل المشتركون الى مايزيد على خمسين شخصا على ما أتذكر ولكن الأهم انهم مثلوا ١١ كلية ومعهدا ولم أطرح فى الاجتماع الأول أى اقتراحات بالنسبة لخطة العمل أو شكل التحرك وبدأت باستخلاص دروس من حركة التحرر منذ ثورة عرابى حتى ثورة ١٩١٩ وحركة ١٩٣٥ . وركزت على ابراز الدور الجماهيرى التلقائى فى تحقيق الانجازات وأبرزت توجه أعداء التحرر الوطنى للتركيز على إجهاض هذه المشاركة الجماهيرية وضرب صفوفها فى تحقيق كل النكسات التى أصابت الكفاح الوطنى وأبرزت دور أخطاء

القيادات والزعامات فى تحقيق أهداف أعداء التحرر الوطنى فى ضرب صفوف التحرك الجماهيرى وخطورة مبدأ الوكالة الوطنية عن الجماهير والتفويض الشعبى للزعامات المختارة ، وأكدت على مسئولية الجماهير ليس فقط بالاستجابة لنداء الطليعة وتدعيم جهودها -ولكن لتأصيل وضمان المشاركة والتفاعل والمحاسبة والمتابعة الجماهيرية كحلقات ناقصة فى سلسلة الكفاح الوطنى وكان مثيرا أن الحاضرين تضاعفوا فى كل اجتماع تالٍ .

وفى المحاضرة الثانية والثالثة ركزت على المتغيرات الداخلية والعالمية التى تعطى لهذه الحلقة الناقصة أهمية مضاعفة لابد من أن تكون حاسمة ومصيرية ، وأكدت أن الوحدة الوطنية مهما كانت العقبات أمامها لابد من أن تفرضها الارادة الجماهيرية ليس كتحالف غير شريف بين مؤسسات حزبية مشكوك فى صلاحيتها المرحلية ولكن كضمان شعبى وحيد لا بديل له عن السماح لها بالمشاركة فى المعركة الوطنية وانه بغير هذا المعيار الحساس والمفروض والمحمى بالارادة الجماهيرية فلا ضمان لجدوى المحاولات المأمولة لرأب الصدع فى الشارع الوطنى وهو ضرورة مرحلية تسمح بتنظيم الصفوف الجماهيرية لتلعب دورها الحاسم المستهدف.

ومن الواضح إذن أن التوجه الذى طرح ورغم أننا لم نأخذ أصواتا على شىء إلا اعتبار ان كل من اشترك فى هذه الاجتماعات عضو فى

اللجنة التحضيرية التي تدعو للمؤتمر التحضيرى دون ادعاء غير حقيقى عن تمثيلنا الديمقراطى للمعاهد التى ننتمى اليها ، فإن التوجهات التى طرحتها اعتبرت دون معارضة أساسا كافيا للدعوة للمؤتمر التحضيرى ومؤشرات لعمل اللجنة التحضيرية.

وللحق فإنه كان من الطبيعى ان تحضر عناصر من التنظيمات والأحزاب هذه الاجتماعات وللتاريخ فإن ما أورده الدكتور طارق البشرى على أنه القرار الثانى لهذه الاجتماعات ويجب القضاء على عملاء الاستعمار المحليين الاقطاعيين وكبار الماليين والمرتبطين بالاحتكارات الاجنبية، طرحه اثنان من الحاضرين فى مجال التعقيب وهم من أعضاء التنظيمات الشيوعية وكان واضحا من تعقيبى عدم استيعابهم لمدلول الجبهة الوطنية .

وأحدهما كان معيدا على ما أتذكر فى كلية الصيدلة مع افتقارهم لخبرة القيادة والتعامل الجماهيرى ولغة الخطاب الجماهيرية واتذكر أنى فى رفضى ومحقى لأطروحتهم كترديد ببغاوى لتقديرات مذهبية تعكس عدم الدراية بطبيعة المرحلة ولا ضرورات تنظيم الصفوف الوطنية لتحقيق أوليات مدروسة ، وأن هذا القصور فى الحساب والتقدير والتخطيط قد يرقى إلى مستوى التخريب وبعثرة الصفوف الى حد أن أحد الجالسين بقربى همس بصوت مسموع يا أبو جلال انت قتلتهم ، وقد استمر هذا الاتجاه المذهبى غير المدروس والمنفلت الحساب

اثناء المراحل التالية حتى أعمال اللجنة الوطنية للعمال والطلبة واستمر احتوائى له ونجاح جهودى بالالتزام بأولويات الجبهة الشعبية ومستلزماتها ، ولعل طبيعة نظم تجنيد وتأهيل هذه الحركات الشيوعية فى أطر أجنبية الاصول غريبة عن لغة وأساليب الشارع الوطنى جردت هذه المجموعات من فاعليتها فى مجال العمل الجماهيرى رغم ما يتمتع به بعض اعضائها من استعداد فكرى وحصيلة تعليمية مرموقة أهلته على المستوى الفردى عند تخطى الحواجز المنقولة بينهم وبين دروب الشارع الوطنى ان يتحملوا مسئوليات ويتخذوا مواقف خدمت الحركة الوطنية رغم أنف تنظيماتهم غير المؤهلة.

ويدا ان موقف الشباب والطليعة الوفدية سيكون دعامة يمكن الارتكان إليها والتعاون معها فى هذه المحاولة كما وضح من اسهاماتهم ولا أظن ذلك كان يعكس أولوية الوفد فى عزل محاولات حكومة الاقليات برئاسة النقراشى اغتصاب دور الوفد التقليدى فى قيادة المطالب الوطنية. فلقد بدا من إسهامهم خاصة فى الجلسات الاخيرة عندما زاد الحاضرون زيادة كبيرة وارتفعت نوعيتهم حيث إن نشر الدعوة عن طريق السامعين يبدو أنه أوفق من نشرها عن طريق المكلفين ، فقد بدا أن الشباب الوفدى يرحب بالمشاركة والتقييم والرقابة الجماهيرية ولا تخيفه هذه الدعوة وان لم يعتبرها بديلا عن الدور التاريخى للزعامة

الوفدية التى اعتبرها فى كل مراحلها وصورها إفرازا للاختيار والتفاعل الجماهيرى.

كما بدا أن أحزاب الاقلية رافضة ومقاومة لهذا التوجه وان لم تملك القوة ولا الحنكة لمجابهته علينا ، وبدا أن الاخوان يشكون فى العمل ككل كامتداد لتآمر كل المنظمات الحزبية وغير الحزبية اليسارية واليمينية على الانحراف بالأمة عن طريق الهداية والحق الذى هو طريقهم ، ومن ثم بدا من تعليقهم ان لا مبرر ولا داعى للمفاضلة بين الاطروحات والخيارات لمسار الحركة الذى يملكون هم من فم مرشدهم الملهم تحديد اتجاه الهداية.

وبدا لى فى أول احتكاك جماهيرى مباشر مع عناصر الحركات الشيوعية انهم أمام طريق ليس بالقصير ليكتسبوا خبرة وحنكة التعامل الجماهيرى وهضم واستيعاب المدلول الوطنى الايديولوجى للنصوص المستوردة من واقع وظروف غريبة عن الواقع المصرى، وبدا ان الاستفادة منهم لحساب التحرك الوطنى ستحفها المصاعب وتقتضى بذل الجهود لإعادة توطين كوادرهم المتميزة فى دروب الشارع الوطنى الجماهيرى ، ولكن لم اخرج بانطباع ان يكون لهم ثقل مؤثر على المدى المنظور فى توجيه أو تنظيم التحرك الجماهيرى ، ومن ثم حصرت أولويات الانشغال فى التحضير لانشاء اللجنة الوطنية للعمال والطلبة كهدف رئيسى مرحلى فى تأمين التعامل مع الاخوان المسلمين

أولا وتدعيم التعاون مع الشباب الوفدى على مستوى الطلبة لأنى كنت أعلم عدم توفر وجودهم على مستوى العمال أوعامل مع أحزاب الاقليات ليس بقصد تحييد تأثيرهم فى الجامعة أو العمال حيث كان وزنهم لايعتد به على مستوى الجامعة، وشبه منعدم على مستوى العمال اللهم إلا لو اعتبرنا ان البوليس السياسى والقسم المخصوص كان يمكن اعتباره امتدادا لنفوذهم فى هذه المرحلة.

وانتهى عمل هذه الاجتماعات بأن طلبت موافقة الحاضرين على تأليف لجنة تعقد مؤتمرا تحضيرياً يمثل كل فئات الطلبة ومعاهدهم ويضع الإطار التنظيمى ويحدد الأهداف لحركتهم وأن يعتبر كل من دون اسمه في اجتماعات الملاعب عضوا فى هذه اللجنة وان أكلف بدعوة هذه اللجنة للاجتماع فى كلية الطب واتخاذ الاجراءات نحو الاعداد لهذا المؤتمر وان يعتبر كل عضو فى اللجنة التحضيرية داعيا منظما للمؤتمر ووافق الحاضرون بالاجماع دون أى اعتراض، وبينت أن المؤتمر التحضيرى سيكون مؤهلا لاتخاذ التوصيات كمؤتمر له صفة تمثيلية ولكن أوليات التحرك الوطنى كما تلاقينا عليها.. فى هذا اللقاء من حيث التوجه نحو إرساء أسس الجبهة الشعبية ممثلة فى لجان وطنية منتخبة ديمقراطيا فى كل الكليات والمعاهد ومن حيث الالتزام بأوليات التحرر الوطنى من حيث تنزيه الاستقلال والجلاء عن المساومة والمفاوضة وتأكيد مسئولية القوى الشعبية على فرض حماية هذا الهدف وتأمين الوحدة الوطنية وحماية صفوفها من الانشغال بمعارك جانبية

مفرقة للصفوف أو منحرفة عن الهدف الأساسي ستكون أول الاهداف التي تسعى اللجنة التحضيرية لاعتمادها من المؤتمر التحضيرى الذى تنتخب اللجان الوطنية والشعبية على أساسه وتم تكليفى كرئيس للجنة التحضيرية بهذه المهام .

وعليه فقد حققت هذه التجربة نجاحا يفوق التوقعات وتأكد أن تقييمي المتفائل للوعى والتعبئة الجماهيرية والثقة فى قدرتها على التصدى للمسئوليات لم يكن مبالغا فيه وأن رفضى للاستسلام لمظاهر البلبلة والفرقة والقنوط التى بدت أرسـخ من أن يحـركها أى جهد محدود كان له مايبرره ، ولكن اتضح أيضا أن هذا النجاح المبدئى يفتح الطريق أمام مسار حافل بالمصاعب والتحديات وأن التصور مهما كان صوابه لن يجدى ما لم يستند إلى جهد مضن ومتصل ووعى متجدد واصرار متصاعد .

وقد يعنينى هنا أن أسجل هفوة ارتكبتها فى هذه المرحلة ربما عكست طبيعة الارتجال المتولد عن عدم اكتمال الاستعداد ، وربما عكست عدم نضوج ملكات القيادة فى هذه المرحلة المتقدمة فقد كان من ضمن تخطيطى للعمل ألا أنفرد بمنصة هذه الاجتماعات على مدار حلقاتها لسببين أولهما حتى لا يظهر التحرك بمظهر المجهود الفردى . الثانى حتى لا يأخذ التحرك صورة فرض شخصيتى وقيادتى على المنضمين، وكان واضحا لى أن إشراك عناصر حزبية أو منظمة سابق لأوانه لحماية التوجه الرئيسى وتأكيد الاستقلالية والحيدة .. وكنت قد

فاتحت أفرادا من المجموعات التى تعاونت فى الإعداد لهذا العمل للمشاركة فى التحدث للمجتمعين بعد أن أمهد الطريق إذا مانجحت فى تحقيق التجاوب وحماية الاجتماع من مناورات الانحراف عن المسار أو استغلال المنبر . والحقيقة أنه يبدو أن النجاح الذى حققته فاق كل توقع إلى حد الإنصات المركز والمتابعة المكثفة والتعامل المنتظم والملتزم من كل الحاضرين بما كان موضع تعليق واستغراب أعضاء الفرق الرياضية عن تعليق اهتمام وتجاوب الجميع على مدى ثلاث ساعات مدة الاجتماع إلى الحد أنى عندما أعلنت فى نهاية الاجتماع ، وأظنه الثانى ، أنى لن احتكر المنبر وسأشرك فيه آخرين أفصح أحد الحاضرين عن عدم ارتياحه وطلب استكمال التسلسل والتركيز الذى حاز ثقة الجميع ، وكان هذا الرأى أدعى بالاعتبار لأنه صدر وأؤيد من أفراد ليست لهم علاقات تنظيمية وهم الأغلبية المستهدفة .. ولكنى أصررت على تنفيذ المخطط المدروس ، وكنت قد فوجئت بأن بعض أعضاء الجبهة من أكثر الأعضاء تأففا من طول مرحلة الدراسة النظرية والمحرضين على الحركة البطولية لم يحضروا الاجتماع الأول وحيرنى وأقلقنى هل كان ذلك عزوفا عن المخاطرة وعنصر المخاطرة كان قائما لاشك فى ذلك، أم أن الرهبة من التعرض لمسئولية القيادة الجماهيرية أقعدهم عن اكتشاف قصور امكاناتهم ، على أى حال ، فهؤلاء الذين حضروا أصروا علي الاعتذار عن عدم المشاركة فى المنبر وكانت الحجة هى أن المستوى الذى أرسيته سيفضح ضعف امكانات وفاعلية من يتبعنى ، واعتذر الآخرون

بمشاكل جدية تستدعي انشغالهم بأمور شخصية ملحة ، وكنت آمل في أحد طلبة الطب محمود محمد محفوظ الذى صار فيما بعد وزير للصحة ، وكادرا بارزا للحزب الحاكم على مدى عهوده ، وكان من الاعضاء المؤسسين للجبهة، وكان قد اتخذ لنفسه دورا مميزا في مرحلة إنشاء الجبهة حيث كان يتعاطف مع الحاضرين أن أسلوب عرضى الأكاديمى المعقد وتحميلي للعديد من الافكار لجملة واحدة يجعل المستمع العادى يشعر بصعوبة فى المتابعة والاستيعاب ، وأوكل لنفسه مهمة التبسيط والتقريب لاطروحاتى حتى بلغنا سن الكهولة فى مختلف مجالات العمل الوطنى والسياسى والاقتصادى والاستراتيجى ، ولكنه مثل الآخرين حالت الأعذار عن قبوله القيام بالمهمة وأسقط في يدى لقرب عقد الاجتماع التالى فأخذت استعرض كل الوجوه المتاحة . وكان فى اتحاد طلبة كلية الطب فتى يافع لفت نظرى طموحه ورغبته فى الظهور وبذل الجهد فى سبيل ذلك ولم تكن له أى توجهات وطنية أو سياسية واضحة أو معروفة وكان اسمه فؤاد محيى الدين الذى أصبح بعد ذلك رئيسا للوزراء وأحد خلصاء أنور السادات فى فترة حكمه ، ودعوته للقائى في متحف التشريح بكلية الطب ، وعرضت عليه فكرة المشاركة فى المنبر على أن أزوده بالأفكار المطلوب طرحها واعتذر أنه لايعتقد أنه يستطيع مجابهة هذا المجتمع مرتجلا فعرضت أن اكتب له المحاضرة التى يلقيها وليست هناك ضرورة للارتجال لأن هذا المنبر منبر دراسى وليس جماهيريا واحتج بأنه لايستطيع أن يعرض نفسه

لإحراج الأسئلة والتعليقات خاصة بعد أن شاهد أن البعض احتاج لحزم منى ليس هو مؤهلا له ، وبعد إلحاح رضى أن يلقى المحاضرة المكتوبة وأن أتولى الرد على أى أسئلة أو اعتراض ، ولعل أصحاب الطموح لم يكن مسار حياتهم متوقفا على أن أتيح لهم أنا الفرصة ، ولكن لا شك أن هذا التقديم المبكر والمنفرد ثم الدعم الذى ركزنا عليه للاحتفاظ بالقيادة للعناصر المستقلة كان أحد أسباب توليه رئاسة اللجنة التنفيذية للجامعة فى المرحلة التالية .. وقد ظل هو يعتبرنى مسئولا عن الاستماع لمشاكله ، وابداء النصح فى كل مسار حياته العامة النقابية والسياسية حتى حقق طموحه الأول ليصير وزيرا للصحة ويعتبر أن ركوب تيار الانفتاح الذى اختاره أنور السادات كبطاقة للارتقاء إلى أعلى ، وكان مجال مقامرته هو مجال صناعة الدواء التى أسهمت فى إقامة دعائمها العلمية من الصفر وجعلت منها ندا للصناعة العالمية ومن ثم أصبحت عقبة وعبئا عليه وأصبح هو مأخذا وملامة علىّ.

وعقب هذا دعونى لاجتماع اللجنة التحضيرية للمؤتمر التحضيرى ، ولم أكن أتوقع مسارا سهلا ممهدا ، ولكن الصعوبات فاقت تقديرى ، وكانت أولى الصعوبات مفاجأة لى فقد أصر ممثلو أحزاب الأقلية الحاكمة على الاجتماع وظهر إصرارهم على اعتبار هذا المؤتمر تحديا للحكومة ومؤامرة للتواطؤ مع الوفد لتأكيد احتكاره لحق الوكالة والتفاوض باسم الشعب ، وحاولت جاهدا أن اقنعهم أولا بأنى لست زعيما أوزع الأرزاق بين الأحزاب وأن جموع الطلبة هى التى

ستتولى اختيار ممثليها ولم يزدهم ذلك إلاَّ رفضـا . ثم فوجـئت في اليوم المحـدد للمؤتمر باصرارهم على اجتماع سابق له آخر ميعاد اجتماع المؤتمر ولكـنى اضطـررت للتـعامل معـهم ، وكانت المفاجأة هى تقدمهـم باقتراح بديل ألا تتشكل لجان تنفيـذية أو وطنية أو شـعبية منتخـبة ولكن تتشكل هذه اللجان من لجان الأحزاب والتنظيمات القائمـة فى الجامعات بحيث يكون ثلث أعضـائها لأحـزاب الحكومة وثلثـها للأحزاب المعارضـة وعـلى رأسـها الوفد، والثلث الآخر للمســتقلين الذين أمثــلهم وأن أفوض أنا بتشــكيل عضوية هذا الثلث ، ورغم حـرج الموقف لم أملك أن اعتـبار هذا الاقتـراح هزليا على الأقل من وجهة نظـر فرض وصـايتنا على جـموع الطلـبة ثم من وجهة نظر ادعاء أن لى تفويضـا للتعـاقد باسـم ثلث الطلبة المستقلين ، ودخلنا المؤتمر طبعا بدون اتفاق واضـطررت لحـرمانهم من فرصة اجهاض بخبرة التعامل مع الحس الجماهيرى التى أدين بها للشارع الوطنى .

كانت مشكلة الاخوان المسلمين أكثر تعقيدا فكان واضحا أن توجيه مكتب الارشاد هو عدم الاشتراك فى هذه التجربة وكانت تربطنى بجماعة الاخوان فى كلية الطب علاقة طيبة رغم اطلاقهم اسم زعيم الطائفة علىّ بحكم ضمانى لتأييد زملائى من الأقباط .

وصادف أن أحد زعمائهم نشر فى مجلة «الكلية» مقالا عنى مع كاريكاتير طريف وأنا أدخن البايب وكانت أهم معالمه هو تأكيد

استعدادى لحماية رأى الخصوم بقدر حماية الأنصار وأكد تقديره للاتزان ونضج الرأى اللذين اتمتع بهما ولم يكن من عادة الإخوان تقييم الاشخاص بغير معاييرهم المذهبية واعتبرت هذا مؤشر خير وعقدت معهم العديد من الجلسات وأذكر أنهم جمعونى بإخوان آخرين ، وتبحروا فى النقاش مما أثلج صدرى ، وطلبوا منى تحليلا مفصلا للمتغيرات الداخلية والعالمية وتقييما لأدوار القوى المتعارضة على المستوى الوطنى والعالمى وتصورى للمسارات المفضلة للحركة الوطنية فى كل الحالات ، وكان للجدية والتعمق والتلهف على الفهم والاستيعاب انطباع ايجابى بالغ علىّ وازداد تعلقى وإلحاحى على تعاونهم ومساندتهم للحركة الوطنية وقدرت أن تنظيما يملك كوادر فيها هذا الاستعداد الكامن يمكن أن يكون ركيزة يعتد بها وعائقا يقدر خطره . ويعلق فى ذهنى تقييم أحد كوادرهم الأكثر بروزا وذكاء بأن فكرى ودراستى بها كل عناصر المصداقية والاقناع لولا افتقارها الى عنصر أساسى لا عوض عنه ، ولما استفسرت باخلاص عن هذا العنصر أكد لى هو القيام بفروض أركان الدين من صلاة وصوم إلخ ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه لو اكتمل لى هذا الأساس لدنت لى القناعة واستوجب الاسترشاد .

والحقيقة أنه كما سبق أن بينت أنه حتى تفرغى للعمل الوطنى فى أول الاربعينات كان جزء كبير من جهدى منصرفا للتعمق والفهم الدينى وأن لم أركز على الأهمية للدوام علي أداء الفروض وأن كنت ملتزما بها،

ولكن كان التزامى الحاكم هو الفهم والاستيعاب وبعد تفرغى للعمل الوطنى اعتبرت هذا أصدق تعبير عن الايمان والبذل فى سبيله على مشقته وجهده أصدق التزام بالفروض والواجبات ، ومع ذلك أخذنى هذا التحفظ لظني أنه يعكس اقتناعا صادقا وعميقا وبدا لى مدى المخاطر الممكنة لهذا التطرف على احتمالات التفاعل المستقبلى على دورب الشارع الوطنى خاصة إذا ما استغل من تيارات منشغلة بطموحاتها وتطلعاتها الشخصية .

وانتهى الحوار عند هذه المرحلة محققا قدرا من القناعة والتقدير والرغبة فى الحوار وتبادل الأفكار رأيت فيه على الأقل ضمانا لتفاد مرحلى للصدام واستأنفته بعد المؤتمر التحضيرى عند بداية العمل على تشكيل اللجان التنفيذية المنتخبة للكليات والمعاهد، وانتهى إلى لقاءات مع المرحوم المرشد حسن البنا بدعوة واصرار من شباب الإخوان فى الجامعة ولم يكن انطباعى أن السيد المرشد كان مرتاحا لهذا الاصرار منهم وحضورهم للحوار الذى دار بينه وبينى وسأرويه فى موقعه .

أما بالنسبة للشباب الوفدى فلم تظهر مشاكل وتبين أنهم سيكونون عاملا مساعدا له وزنه ومصداقيته. ولكن حتى هذا المكسب الايجابى ظهرت له مضاعفات مقلقة ففى هذه المرحلة بدأت المصادمات بين الوفديين والإخوان في الجامعة والتى تضاعفت الى حد الاعتداء واستخدام الجنازير فى مرحلة تالية ومن ثم طفت على سطح احتمالات

التواطؤ بين الإخــوان وأحــزاب الأقــلية والسراى. وبدا أن احتمال انتظام هذه القوى على جانب واحد حتى فى المعركة الوطنية احتمال تقوم أمامه عقبات وعقبات مما حتم علىّ تكريس جهد مضاعف لمحاولة ضم الإخوان لصفوف الالتزام بمتطلبات الجبهة الشعبية المحاربة للاستعمار.

ولم يكن للحركات اليسارية وزن مقلق، وكان التزام العناصر المتحركة المحدودة منهم بالقضية الوطنية واضحا وان كانت تعرجاتهم التنظيرية والتنظيمية وعلاقاتهم التاريخية المشبوهة من وجهة نظرى بعناصر أجنبية ذات صلات صهيونية ومستغربة مدعاة للاحتراس والمراقبة .

وقد يكون مهما تفسير موقفى من التنظيمات الشيوعية فى هذه المرحلة ، فقد ادعى مثلا الدكتور رفعت السعيد فى كتابه عن تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ الذي اعتمد فيه على منشورات المنظمات الشيوعية منذ بدايتها الأجنبية اليهودية وأقوال عشرات من أعضاء هذه التنظيمات تناقش تفاصيل معاركهم الوهمية الداخلية وادعاءاتهم التنظيمية المعتادة «كانت توجد منذ فترة طويلة جبهة اسمها جبهة التحرر التقدمى «جات» وكانت تضم د. عصام الدين جلال ، أحمد طه ، صلاح سلمى ، يحيى المازنى ، وقد اتحدت مع «ع.ث» ثم انفصلت سريعا وقد حاولت التعرف على هذه الـ ع.ث ولم أجد لها ذكرا إلا فى كتاب المؤلف نفسه حيث اتضح أنها أحد

الانشقاقات والتوليفات المتعددة التى كانت الشغل الشاغل لهذه التنظيمات الشيوعية ، وأنها توليفة اسمها «حدتو» العمالية الثورية بقيادة اسرائيلى يدعى مارسيل اسرائيل خلال عمليات طرد متبادل بين مجاهل التخبط لهذه التنظيمات الشيوعية ، وأن هذا التشكيل المدعى قام سنة ١٩٤٨ خلال وجودى فى المعتقل .

ولكن ليس المستغرب على المراجع التى اعتمد عليها المؤلف وهو من جيل تال من الماركسيين لم يعايش المرحلة ولا عصام الدين جلال فهو مقدمة لادعاء طفولى ص ٢٧٣ وسرعان ماينجح الطلاب الشيوعيون فى اقامة تحالف جبهوى واسع بضم الطلاب الوطنيين والتقدميين وخاصة ممثلى مسار حزب الوفد فى إطار اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ثم اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ، ويورد بقية خيالاتهم باستقطاب عناصر واسعة من الشباب الوفدى وبسرعة فائقة نهض الشيوعيون بحقوق هدفهم هو خلق قيادة جديدة للحركة الوطنية .. ولكن حصافة الباحث جعلت المؤلف يقدم الدليل على التشكك فى إدعاءات هذه الشراذم الشيوعية ص ٤١٦ فبعد مظاهرات ٢١ فبراير ١٩٤٦ الصاخبة والتى هزت مشاعر كل مصرى دعت «حدتو» مظاهرة فى ٢١ فبراير ١٩٤٨ لم يحضرها سوى ٦٠ شخصا كلهم من اعضاء التنظيم مالبثوا أن فرقهم البوليس بالقوة واعتقل بعضهم . وفات المؤلف أن يقارن ذلك بعشرات الآلوف التى أنزلتها اللجنة الوطنية للعمال والطلبة يوم

٢١ فبراير ١٩٤٦ واضراب كل وسائل المواصلات وكل المعاهد والجامعات والمدارس والمصانع ونزول العمال بجحافل صاخبة رغم اقفال كبارى شبرا الخيمة والحصار العسكرى واحراق تشلاقات القوات الانجليزية.

وذكر فى قراءة هذه الخيالات والادعاءات للشرازم الشيوعية ماتعودنا سماعه من تهيأت منهم خلال الحركة الوطنية ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ وتذكرت التكليف الوحيد الذى عرضته عليهم قبل الاضراب الوطنى الشامل يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ وهو تقديم سيارتين دعاية بمكبر الصوت تجوب الأحياء الشعبية للحفز على مشاركة الشارع الوطنى على الاضراب الوطنى والادعاءات والوعود الخيالية التى زايدوا بها وتمخضت عن مجموعة تعد على أصابع اليدين حاولت المنافسة للتيار الوطنى التلقائى الجارف فى منطقة السيدة زينب لم تحتج للبوليس لفضها .

وذكرتنى قراءات هذه الخيالات التى نشرها كتاب د. رفعت السعيد والذى نتذكر أن «جات» لها تاريخ طويل والحقيقة أن «جات» هو الاسم الذى اخترناه خلال الحركة الوطنية ٤٥ ـ ٤٦ بعد أن التف زعماء الحركة النقابية العمالية فى القاهرة وشبرا الخيمة حول قيادة الدكتور عصام الدين جلال حسب ما سيرد فى موضعه تحت ضغط حاجتهم

لمقاومة تسلل الحركات العقائدية فى صفوفهم ورغبته فى مجابهة اطروحاتهم باطروحات متكاملة جماهيرية وسياسية أما التشكيل الذى كان له تاريخ طويل فهو كما وضحت «جاد» جبهة الاحرار الديمقراطيين التى تولت التحضير والتعبئة للحركة الوطنية كما بينا وهو أبعد مايكون عن الشيوعية بمدلولها اللينينى الاستالينى الذي اختلفنا معه نظريا وتنظيميا لأسباب مؤكدة فى أثناء عملى الوطنى فى مصر وعملى السياسى فى بريطانيا من ١٩٥٠ ـ ١٩٥٦ سأفصلها فى موقعها لأهميتها فى نشاطى فى بريطانيا وأوجزها هنا فى رفضى لمفهوم ديكتاتورية الطبقة العاملة وقناعتى الأصيلة بلزوم المشاركة الجبهوية الشعبية وتقديرا للدور القيادى للمثقفين من الفئات المتنورة الوطنية .. وقد قدرت أن الطبقة العاملة والتى نمت نموا عشوائيا وسريعا خلال الحرب العالمية الثانية سيكون لها دور رئيسى فى الحركة الوطنية التى كنت مصرا على إعطائها الصدارة وتجنب مخاطر تفريق صفوفها تحت شعارات طبقية ليس لها واقع على صعيد الشارع الوطنى وكان اقتناعنا بالبعد الديمقراطى لحركة التحرير كضمان للمشاركة والندية الشعبية يتعارض مع مفهوم ديكتاتورية الطبقة العاملة بتطبيقاتها الستالينية بل كنا نشك أن هذه الديكتاتورية لابد أن تنقلب الى ديكتاتورية الحزب وأن ديكتاتورية الحزب لابد وأن تتمخض عن

ديكتاتورية البيروقراطية السـياسية المسـتغلة والمنتفعة وأن تأميم وسائل الانتاج ليس أنجع الحلول لمشكلة الفلاح المصرى الذى يحلم . بتوزيع الملكيات ولا فى القطاع الصناعى الوليد الوطنى الخبرة والتكنولوجيا كما لنا تحفظات شديدة على مظاهر التطرف الصبيانى كمعادات الأديان وفرض دين جامد وضعى فى شكل تعاليم مقدسة أصولية لها إنجيلها الافتراضى النظرى . وكنا نرى أن الاشتراكية الديمقراطية الليبرالية التى أرسى بدايتها جان جاك روسو وتطورت أشكالها فى المدارس السياسية والاشتراكية الديمقراطية الألمانية والانجليزية تحت قيادة الفابيان وحزب العمال البريطانى فى أنماط أدعى بالدراسة والتمحيص ، وعلى أى حال لم يكن هذا هو دافعنا الوحيد لمعارضة هذه التنظيمات الشيوعية ، وأظن أن دوافع وطنية وخلقية صبغت توجهاتنا . فلم يكن مقبولا ولا مهضوما أن تفتقر المدرسة الوطنية المصرية لإفراز القيادات لكل التيارات اللازمة ولعله كان انفعال انعكاس لتربيتنا فى الشارع الوطنى أن نمج ونلفظ تصدر أبناء أثرياء اليهود المتحكمين فى السوق المالى المصرى الخادم لمصالح الاستعمار وعصابات السراى فى تسلم مقود أى من تيارات التحرر الوطنى والاجتماعى وهم غرباء عنه وطنيا وثقافيا واجتماعيا .. وزاد من رفضنا وشكوكنا نمو الحركة الصهيونية العالمية ووعد بلفور وموجات

الهجرة اليهودية المغتصبة للوطن الفلسطينى . ولا أنكر أن الخلفية والتربية والتقاليد الريفية ضخمت من جسامة التسيب والانفلات اللذين ظهرت أعراضهما على أوائل المنطوين تحت لواء هذه القيادات الصهيونية كما أصررنا، وخاصة أبناء الأثرياء المتفرنجين الغريبين عن لغة وأعراف الشارع الوطنى . ولم نر دورا أو حاجة لهذه العناصر الدخيلة خاصة بعد دخول الاتحاد السوفييتى الحرب ، ودخول الأدبيات الاشتراكية والماركسية للسوق المصرية التى سرعان ما حصلنا عليها واستوعبنا محتوياتها فى اطار من الانتماء والاندماج مع الواقع الوطنى مما أقنعنا أننا أكثر فهما واستيعابا ووعيا للتراث العالمى من الناقلين الدخلاء والغرباء عن الواقع المصرى .

وكيفما كانت الدوافع فان قدرتنا على استيعاب الإضافات الفكرية العالمية على فرشة راسخة من المشاركة والتفاعل المتد مع الشارع الوطنى اعطتنا فاعلية ليس فقط على تأثير لم يتح للعناصر ذات الاحتمالات الواعدة التى فرض عليها التغرب والتيه عن مسارات الدروب الوطنية كما أمكن معه طرح بدائل لها فضل التواصل الفكرى العالمى ومصداقية الانتماء والاندماج الوطنى . ولم تفهم هذه العناصر أننا خارج لعبتها للمنافسات الصالونية والانشغال بالانتصارات النصوصية وإعادة تفنيط الصفوف بين الحلقات المغلقة والمستغربة . وزاد أسانا ما أحسسناه من تبديد طاقات مثقفة وعمالية واعدة وصرفها عن الاسهام

الفعال والتفاعل الجماهيرى اللازم لأغراض المرحلة وقد يكون خطؤنا أنه خلال حمو المعركة لم يعننا بذل الجهد لانتقاء العناصر القابلة للاندماج مع الشارع الوطنى خاصة أنه كان يغص بجحافل متعطشة للتوجيه .. والسبب الذى دفعنى لاستعارة ادعاء هذه الحلقات الشيوعية كمحاولة لاغتصاب النجاح الذى حققناه باسباغ شبهة الشيوعية بمفاهيمهم علينا ابتدأت بعد نجاحات اجتماعات ملاعب كلية الطب وماتبعها رغم أن خط أغلبهم فى المرحلة السابقة كان اعتبارنا دخلاء على الفكر الاشتراكى فى كل صوره واتهامنا بالرجعية الوطنية والتميز العنصرى ضد القيادات الاسرائيلية . والحقيقة أنها كانت مناورة ساذجة وعاجزة ولم تدخل على أى من عناصر الحركة الوطنية وإلا ماقام حوار بينى وبين حسن البنا واسماعيل صدقى وما رضيت الأحزاب والنقابات برئاستى اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى وللجنة الوطنية والعمال والطلبة، وكان رأس مالى الأساسى هو طهارة سمعتى الوطنية واستقلالى الفكرى الذى قدره الانصار واحترمه الخصوم. وللدقة التاريخية فإن اسمين على الأقل أو ثلاثة مما ادعت التنظيمات اليسارية أنهم كانوا من قيادة جات كانوا من الطلبة الذين انضموا للمجموعة بعد تعثر نجم اللجنة الوطنية للعمال والكلية ١٩٤٧ وفى هذا الوقت كان انشغالى الأساسى معنى بإعادة إحياء الجبهة الشعبية التى هدمها الإخوان المسلمون وتعبئة الجماهير النقابية التى توطدت بها العلاقات الوثيقة فى النقابات الأهلية وشبرا الخيمة ليس على

أسس مذهبية أو تنظيرية ولكن على أسس الممارسة والمعايشة فى مجال الكفاح الوطنى خلال الحركة الوطنية ١٩٤٥ـ ١٩٤٦ مما تأتى عملية ترأس اللجنة الوطنية كممثل للتنظيمات النقابية العمالية وليس كممثل للطلبة فى المرحلة التالية لأحداث فبراير ومارس ١٩٤٦ .

وكنا قد حرمنا من التركيز على العمل الطلابى بحكم انغلاق مجال العمل العلنى المفتوح بعد نكسة اللجنة الوطنية للعمل والطلبة وهو مجال اختيارنا وتمرسنا وكانت المهام التى تتدرب عليها هذه المجموعة هى الاتصال بالقيادات النقابية لتمكين القيادة من المتابعة وسيظهر أنه قبل اعتقالى نما لنا وجود تسرب معلومات للبوليس السياسى وهو أمر لم يكن يشغلنا فى مرحلة العمل العلنى فى أواسط الطلبة، ولكنه أصبحت له خطورة فى العمل فى المجال النقابى، وسيظهر أن محاكمة جماهيرية تمت لأول مرة فى تاريخ الحركة العمالية فى مصر فى أواخر ١٩٤٧ للمشتبه فيهم وجمدت أعمال هذه الحلقة واقامة قنوات اتصال بديلة. والحقيقة أنه بعد اعتقالى عقب هذه الواقعة توقف العمل كلية فى الجبهة كتنظيم وقد حاولت فيما سمعت ، منظمة «حدتو» الشيوعية جذب هذه العناصر الثلاثة المنعزلة المستجدة للعمل معها وظنى أن الغرض الأعمق لم يكن مجرد تحقيق اكتساب شعبية متخيلة وادعاء تراث ولكن فى هذه المرحلة كان هنرى كوريل قد استنفد كل المحاولات والتوسطات لمجرد السماح له بالحديث معى وكنت مع المرحوم العزيز

إبراهيم الشـربينى نقيم فى عنبر قيادة المعتقـل الذى يقيم فيه المعتقلون الأجانب من اليهـود بحكم أن قرار اعتقالنا كان بصفتنا مشاغبين وليس فى عنبر الشيوعيين ، ولم أسمح حتى برد تحيته وطرد عملائه المتوسطين وأذكر أن أحدهـم تقدم برجاء أن أصدر أوامرى للعناصر المتوقفة من أنصارى بالتعـاون أو الاندماج مع تنظيمـهم فى الخارج وهم على اتصال ببعضهم وأفهمت الشخص أننا تجمع حر لا ينصرف أى منا إلا على هـدى الاقتناع والاختيـار، وأن كل أنصـارى يعـرفون أن كلا منهم مسئول عن تصرفه وعلاقاته فى غياب مشورتى وأن العنـاصر القيـادية وليـس التنظيم لعـدم وجـوده لا يمكن أن تنحدر إلى التعامل معهـم وهم أبعد ما يكـون عن شيوعيتهم المراهقة والمستغربة وإنى لو كانت لى سلطة أو اتصال لإصدار نصيحة لعكست موقفى من الترفع على مجرد الحديث مع زعيمهم الدخيل الذى تولد عندى الاقتناع من مشاهدة تصرفه الشخصى فى المعتقل أنه ليس فى حالة توازن نفسى لمبالغته المفتعلة فى تمثل دور غاندى الفقير الزاهد وبعد خروجى من المعتقـل أكد لى الأفراد من هذه الحلقة الصغيرة الذين قابلتهم أنهم لم يسـتطيعوا ايجاد لغة مشتركة مع هذا التنظيم ولا لمدة أيام.

والمهم أن توقعاتى فى مرحلة الاعداد لانتخابات اللجان التنفيذية والوطنية هو تمشى الشيوعيين المنظمين مع الاتجاه المخطط وتأرجحهم

بين محاولة إدعاء المشاركة فى فضل انجاحه وهو ما كنت أرجوه أو الاستجابة لنزعاتهم غير الموضوعية بفتح جبهات حروب جانبية وخلخلة الصفوف وعلى أى حال لم أتوقع منهم فاعلية مؤثرة فى أى من الاتجاهين وان كانت كل اضافة مطلوبة وكل انحراف واجب التوقى منه وتفاديه وان لم أجد فائدة إلا للتعامل معهم على مستوى الأحداث حدثا حدثا وموقفا موقفاً لشيوع التذبذب والتخبط والانقسامات والمزايدات بينهم.

كان عمل اللجنة التحضيرية مرهقا ومستغرقا لمزيد من الوقت والجهد ولكنه كان تمرينا مفيدا لى للاستعداد للتحكم فى جموح نزعات الأعضاء فى اللجنة الوطنية للعمال الطلبة والتى استحال تحقق مناورات الإخوان والشيوعيين لاستبدال رئاستى لاستحالة تحكم رئيس بديل فى مسارها والحفاظ على وحدتها.

وحاولت أن أمنع الشطط والتشتت والتركيز على الأساسيات المتفق عليها والإسهاب فى طرق وأساليب تشكيل اللجان التنفيذية والوطنية وضمان تغطيتها لكل الجامعات والكليات والمعاهد والمدارس وبدا من أعمال اللجنة أن العملية لن تكون سهلة أو رتيبة لافتقار كثير من أعضاء اللجنة للخبرة والنفوذ اللازمين لتحريك مختلف الفرق والفصول الدراسية والحكم فى التوجهات المتناقضة بما

فيها السلبية.

حل يوم انعقاد المؤتمر التحضيرى وإذا بجحافل جموع الطلبة تزحف من الكليات والمعاهد والمدارس حتى لم يعد موطىء لقدم فى سلالم حرم المنصة والفناء أمام مدخل المدرج الكبير لكلية الطب بمبنى المشرحة بل واعتلى البعض المنصة نفسها، من الصباح الباكر حاصرنى أعضاء اللجان الحزبية لحكومة الاقليات وهم مصرون على اقتراحهم الكوميدى بتقاسم مقاعد اللجان التنفيذية على أساس الثلث لهم والثلث للمعارضة الحزبية والثلث لى مع المستقلين، وكل ما أمكن عمله هو محاولة اقناعهم بإرجاء الحوار حول هذه الأمور إلى ما بعد المؤتمر خاصة حين تتابع تحذير لجنة التنظيم من انفلات أوضاع المؤتمر وقرب تحوله إلى حلقة مفتوحة للمساجلة والمهاترة والشقاق، ثم جاء آخر تحذير بتعذر بداية المؤتمر ورئاسته لصعوبة اختراق الزحام وتنظيم الحضور وتوفير الهدوء والانصات. وأخذت أتشاور مع لجنة التنظيم المحدودة فيما يمكن عمله وإذا بالشارع الوطنى يتكرم علىّ بالمبادرة وتحمل المسئولية ورأيت أعضاء من الفرق الرياضية يهرعون إلىّ بقرارهم أن يكونوا حلقة تدخلنى للمؤتمر. وتفسح المنصة من المحتشدين فوقها ويقيموا سياجا لحماية المنصة حتى ينفض المؤتمر وأظن أن الدموع كادت تطفر من عينى اعتزازا وإكبارا للأصالة الوطنية التلقائية ودخلنا القاعة ووصلت إلى المنصة وأنا متظاهر بالهدوء والرزانة وبعد أن

تحقق قدر معقول من الهدوء والانتظام افتتحت المؤتمر بتأكيد الصفة الجموعية التى قررت الدعوة إليها وعملت على تنظيمها وأكدت إنى أتحدث باسم اللجنة التحضيرية التى أعطيتها كل الفضل فى الوصول إلى هذا المنعطف التاريخى وأصررت على ذكر الأعداد الكبيرة لأعضائها حتى وان لم يكونوا جميعا قد انتظموا فى اجتماعاتها والعدد المقنع من الكليات والمعاهد المشتركة وأكدت أن الأسس المطروحة تم تدارسها في سلسلة من اللقاءات المتأنية فى ملاعب الكلية دعى إليها الجميع وأن هذه الأسس أعيدت دراستها وكذلك الأهداف التنظيمية فى اللجنة التحضيرية وان أساس التحرك هو تأكيد مسئولية الجبهة الشعبية المنتخبة ديموقراطيا عن قيادة الحركة الوطنية وحقها فى حماية ورعاية توجهات الحركة كصاحبة المصلحة والمسئولية الحقيقية وان كل التنظيمات والأحزاب والاتجاهات مدعوة ومرحب بها أن تمارس الدعوة لتوجهاتها من خلال الاختيار الديموقراطى، وأن أى خروج عن أحكام هذا الاختيار الديموقراطى هو انتقاص للحقوق الشعبية وخيانة لأمانة المحافظة على تماسك صفوف التحرك الوطنى وخدمة لمصالح أعدائه، وأكدت أنه فى ظل هذا الاجماع الوطنى الديموقراطى لا مجال للمزايدة والانحراف بالتوجه العام من خلال هذا المؤتمر وإنما على كل أصحاب الاجتهادات والاضافات أن يطرحوها على القاعدة الشعبية صاحبة الحق فى تحديد الاتجاه والأهداف وأنه لا رقيب أو حدود تمنع الرأى الأحق والأجدر من التسيد بقبول القاعدة الجماهيرية له وبينت الخطوات

الموصى بها من اللجنة التحضيرية لانتخاب اللجان التنفيذية وأنى مكلف من اللجنة التحضيرية بتقبل النتائج وتجميعها وأن أعضاء اللجنة التحضيرية معتمدون بمتابعة وتنظيم العجلة الانتخابية والاتفاق مع الطلبة المعنيين على أسلوب مرن ملائم لاجرائها سواء بالتصويت المكتوب أو أى طريقة تحوز على رضاء الطلبة وان المرجعية لحل المشاكل وفض النزاعات هى القاعدة الجماهيرية نفسها، وأن المستهدف أن تتم العملية خلال شهر من الزمان كحد أقصى وأن كل أعضاء المؤتمر يشتركون فى مسئولية تنفيذ هذه الاجراءات وحماية التوجهات الأساسية وأن الحركة الوطنية ليست معنية بالمفاوضات كآلية لتحقيق الجلاء والاستقلال انما آليتها الأساسية هى اصرار وتماسك الجبهة الشعبية التى تملى الأهداف الوطنية على كل القوى الداخلية والخارجية وانه لا تفويض ولا وكالة عن المسئولية الشعبية والممارسة والحماية الجماهيرية للأغراض الوطنية، وأنه لتحقيق هذا الهدف فكلنا مسئولون عن امتداد اللجان الوطنية خارج الصفوف الطلابية لكل القوى الوطنية من عمال وفلاحين وموظفين وتجار ومصنعين وحرفيين، وأن علينا أن نقدر ثقل وخطورة المسئولية فى هذا المنعطف الحاسم فى مسار الحركة الوطنية ، إن تكاتف المستقلين والحزبيين والمنظمين فى الالتزام بقواعد المشاركة هو معيار الالتزام بالأمانة الوطنية، وأكدت أن مسئوليتى تنتهى إذا أقر المؤتمر اقتراحات اللجنة التحضيرية وكذلك مسئولية اللجنة

بمجرد تمام انتخاب اللجان التنفيذية للكليات والتى من ممثليها تنبعث اللجنة التنفيذية العليا وان بقيت مسئولية تسليم الأمانة للجان الوطنية فى القطاعات غير الطلابية وهو الأمر الذى لم يتم الإعداد له بعد ودعوة اللجان الحزبية لتحمل مسئوليتها فى المشاركة النشطة والالتزام الأمين وأكدت أنه لا مجال للخروج عن أغراض المؤتمر ومهامه حيث أن المجال مفتوح على مصراعيه أمام القاعدة الجماهيرية حيث تتمركز مسئولية تحديد الأهداف والاتجاهات.

ختمت كلمتي بتأكيد أن رئاسة هذا المؤتمر ليس لها السلطة أن تمنع الاجتهادات والاضافة ولكنه لن تكون هناك حاجة للوصول إلى اجماع عليها بحكم أن مجال الحسم فى أمرها هو القاعدة الجماهيرية التى تنتهى أمانة هذا المؤتمر بتوفير المناخ والظروف الملائمة لها لتولى مسئوليتها.

ولاحظت بأسف رغم توقعي أن وجود الإخوان المسلمين محدود للغاية كما أن القلة الموجودة كان واضحا أنها للمراقبة والمتابعة بحكم أنها لم تشترك فى الحوار على غير عادتهم، وأمكن بكياسة وتأييد مشكور من الحضور احتواء الاجتهادات والمزايدات التى تفاوتت بين التراشق بين التوجهات والمنظمات المختلفة ورفض المفاوضة والمساومة على الحقوق الوطنية والدعوة للكفاح المسلح، الحملة على الخونة والمتواطئين وخدام المصالح الاستعمارية ، وتأكيد الحقوق الاقتصادية والسياسية للجموع المستغلة والمطالبة بالانسحاب الفورى للقوات

البريطانية من العاصمة والاسكندرية والغاء معاهدة ١٩٣٦ وتصفية المحاكم المختلطة وطرد كل الموظفين وضباط البوليس الانجليز واسترداد السيادة الشعبية من مغتصبيها والعودة إلى الأصالة والتقاليد الوطنية والدينية إلخ .

وتمت الموافقة دون اعتراض يذكر على تخصيص الصفة التمثيلية على اللجان المنتخبة من القاعدة الجماهيرية، والتزام الجميع بتنفيذ المهام والخطوات المطروحة من اللجنة التحضيرية وبالأهداف الأساسية للتحرك الوطني المفترض.

ولعل أدعى مظاهر هذا المؤتمر للارتياح والاعتزاز كان اتساع تمثيل الجامعات والمعاهد والمدارس إلى حد يفوق كل توقع وإن قامت شبهات على وجود عناصر غير طلابية أيضا، والظاهرة الثانية هي ما بدا من أن الحماس والزحام والتدافع لم يقلل من جدية المشتركين وانشغالهم بنجاح الجهود وما بدا من رغبة الأغلبية وعزمها على منع المكابرات الغوغائية من أن تختلس منها القيادة وبدا من استعدادها لتحمل قيود الالتزام والانتظام كتكلفة الزامية لضمان استمرارية المسار ومن ثم أعطت جماهير الطلبة من خلال المؤتمر رسالة على اكتمال رشدها وصدق عزمها على ممارسة مسئولياتها وواجباتها وكانت نقلة من وهاد القنوط والضياع استمرا لوقت طويل خاصة ان التيارات المتوقع خروجها على هذا المنحى بدا أنها سمعت وقدرت رسالة القاعدة الطلابية حق قدرها .

الباب العاشر
حشد وتنظيم الصفوف

«الحوار مع حسن البنا ورؤساء النقابات العمالية
إسماعيل صدقي باشا»

لم يكن غزو قوات الحلفاء لشاطىء نورماندى فى أوائل يونيو ١٩٤٤ بداية النهاية للحرب العالمية الثانية فقط عقب احتواء الغزو النازى للإتحاد السوفييتى واستنزافه لكل طاقات المحور الاقتحامية ، ولكنه أيضا كان إعلانا للشارع الوطنى المصرى بدنو يوم الحساب ، وتصفية القضايا الوطنية والعالمية ، وزاد من جسامة هذا الإعلان أو الانذار ، ما كانت عليه الأوضاع الداخلية من ضياع وانقسام وتجريح ومزايدات يغلب عليها التنافس الحزبى أكثر من الانشغال الوطنى، ومن ثم لم تكن كل تحركاتنا من أواخر ١٩٤٤ إلى أكتوبر ١٩٤٥ ومحاضرات ملاعب كلية طب القاهرة واللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى أكثر من تمهيد لتنظيم صفوف الشارع الوطنى لتمكينه من الحركة والتأثير، ومن ثم لم تعمنا هذه الانجازات وإن فاقت توقعاتنا عن جسامة المسئوليات والعقبات التى سنجابهها فى المرحلة التالية، ولقد صاحبت عقد المؤتمر التحضيرى يوم ٧ أكتوبر مؤشرات على هذه العقبات تمثلت أساسا فى الموقف الرافض لفكرة الجبهة الشعبية من الإخوان والتى تمثلت فى محاولتهم استباق المؤتمر باجتماع نظموه وروجوا فيه لدعوة ، ومن ثم تأييد مسعى حكومة الاقليات لفتح باب المفاوضات ووجوب افساح الفرصة أمامها والموقف السلبى الذى اتخذوه داخل المؤتمر من حيث

عدم المشاركة فى أعماله وانسحاب المراقبين قبل اجماع المؤتمر على تبنى فكرة انفراد اللجان الوطنية والشعبية المنتخبة بصفة التمثيل للشارع الوطنى وإخراج تصفية الاستعمار وتحقيق الجلاء والاستقلال الكامل والمسئولية الشعبية عن صياغة المسار الوطنى خارج نطاق مصيدة المفاوضات ومن ثم شجب التراث الحزبى من أساسه ، ولم يكن موقف أحزاب الحكومة يختلف فى شىء عن موقف الإخوان بل كان فى الحقيقة يدعم طغيان السراى على حقوق ومصالح الشارع الوطنى من حيث اصراره على حقوق ومسئوليات الحكومة على معالجة القضايا الوطنية ، وهم حكومة الأقليات المستندة فى سلطة السراى .

وكان موقف شباب الطليعة الوفدية الذى وضح فى اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى من حيث تدعيمهم النشط لتواجهات الحركة يحجمه انشغال الشباب الوفدى بالمعارك الحزبية التى يمليها عليه تأييد القيادة الوفدية من حيث إدعائها باحتكار حق التمثيل الوطنى ومن ثم تولى المفاوضات إضافة لحدة الخلافات الثأرية مع الأحزاب المنقسمة عن صفوف الوفد مثل السعديين والكتلة الوفدية إضافة لأعدائهم التقليديين فى السراى والإخوان المسلمين ، ولم تمثل مصر الفتاة والتنظيمات الماركسية قوة ذات ثقل اللهم من حيث صعوبة ضمان التزامها والتحامها الفعال بالتحرك الجماهيرى والشكوك القائمة فى

استعدادها التقليدى للشطط والانفلات مما قد يزيد البلبلة وانفراط الصفوف.

ولعل تشكيل اللجان التنفيذية وهو الاسم الذى اختاره المؤتمر التحضيرى للجان الطلبة الوطنيـة أو الشعبية الذى طرحناه فى المشروع القومى اعتزازا من المؤتمر بالتقليـد التاريخى منذ حركة ١٩٣٥ الذى شاع فيه استخدام هذا الاسم ، لعل هذه المرحلة كانت أصعب وأهم مراحل حـركة ١٩٤٦ ، ولأن الجهد الجهيد لم يحظ باهتمام الصحافة ولا حتى المعارضة للحكومة ولأن أيا من الأحزاب لم يتبن العمل النشط فى تنفيذ هذه السـياسة إلا بعد حوادث كوبرى عباس عقب المؤتمر العام فى ٦ فبراير ١٩٤٦ ، ومع ذلك كان التحفز الشعبى مدعاة للثقة كما أظهرت المظاهرات الحاشدة التى حطمت بعض المحلات يوم ٢ نوفمبر فى تاريخ وعد بلفور مما أكد ثقتنا فى سلامة القاعدة الجماهيرية.

ورغم أن مسئولية تشكيل اللجان التنفيذية للكليات والمدارس افترض نظريا أنها أوكلت إلى أعضاء اللجنة التحضيرية وأعضاء المؤتمر التحضيرى وأوكل إلىّ بصفتى رئيسا لكلا التشكيلين متابعة وربط الجهود ، فإن المرحلة الحافلة بالغليان والاضطراب من نوفمبر ١٩٤٥ حتى فبراير ١٩٤٦ لم تحقق إلا انجازات متناثرة وغير متكاملة فى هذه المهمة الرئيسية ، فحتى كلية طب القاهرة والتى حققت انجازا أكبر فى

تنفيذ هذه القرارات لم تستطع الالتزام بالحد الزمنى المستهدف وهو مدة شهر وبقيت بعد السنوات الدراسية متقاعسة أو متعثرة في انتخاب ممثليها ، ولعل منشأ الحركة فى الكلية واستضافتها لخطواتها التحضيرية ووجودنا فى الكلية حقق لها بعض الميزات فلم يسُد فيها الصدام الحزبى بنفس الحدة والعنف الذى ساد فى جامعة القاهرة المركزية مثلا وغيرها من الجهات ، ورغم عدم مشاركة الإخوان المسلمين بل ومعارضتهم لهذا الإجراء فقد أفلحت العلاقات التاريخية من التقدير المتبادل في نزع مسحة العنف عن هذا الاعتراض وأصبحت كافتيريا كلية طب هى محط اللقاء للنشطاء من أعضاء اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى لنقل الأخبار لى بغرض تحقيق الربط والتكامل، وكثيرا ما عقدت اجتماعات مصغرة لنشطاء من كلية أو معهد لمناقشة تفاوت الآراء بالنسبة لطريقة الانتخاب أو التعامل مع معارضة القوى الحزبية المعارضة أو عرقلة الإدارة أو البوليس ، وكانت الانجازات دائما جزئية وفى النادر كافية لتشكل قيادة شعبية قادرة على توجيه الأمور على مستوى الموقع ومن ثم قامت الضرورة للتنافس مع القيادات التنظيمية التقليدية أو التعايش معها ، وكان واضحا أن العناصر المستقلة تفتقر في كثير من المواقع إلى الخبرة والممارسة والمصداقية حسب الأوضاع لحساب التوجه المتفق عليه رغم انفتاح القاعدة الجماهيرية وكانت هذه المرحلة فرصة ذهبية لأى تنظيم له إمكانية

وتوجه وطنى شعبى لأن يكسب فى شهور قليلة ما قد يعجز عنه بأساليب تنظيمية منقولة أو موروثة ولعله معيار موضوعى قاطع لضعف امكانيات واستعداد واتصالات هذه التنظيمات أنها فشلت بما فيها جبهتنا فى استغلال هذه الفرصة، وكان يزعجنى أن الانجازات الكبيرة التى تحققت لى تحققت على المستوى الشخصى بحيث أصبحت مرجعيتها هى شخصى وليس تشكيلا سياسيا هو الجبهة ، استمر الجهد الجهيد الذى ركزت على افراغ جهدى واتصالاتى وتأثيرى فى دفعه إلى الأمام ، وفى هذه المرحلة ومن واقع لمسى لنبض الشارع الوطنى أعطيت أهمية كبرى لتأمين موقف الإخوان المسلمين من المشروع.

واستأنفت اللقاء مع مجموعة الشبان من الإخوان عن طريق إخوان كلية الطب وبعد لقاءات وحوارات اقتنعوا أن أطروحتى وتحليلى لمسار الحركة الوطنية وتعقيدات المتغيرات الداخلية والدولية أهل للاستيعاب والتدبر واتفقنا أن لا حل إلا بعرضها على المرشد العام الشيخ حسن البنا ووعدوا ببذل الجهد لبداية هذا الحوار بينى وبينه شخصيا وبحضورهم ويبدو أن هذا الوعد استغرق جهدا ووقتا ولكن على ما أتذكر في أواخر ١٩٤٥ أبلغت بنجاح المسعى وتحدد لى لقاء مع الشيخ حسن البنا فى المقر العام ، وتوجهت مع الزملاء وقابلنى ببشاشة وأسهب فى اعجاب الشباب بعلمى وطهارة توجهى الوطنى مما حدا

به وهو صاحب رسالة هداية كل الصالحين ولم شملهم للاستماع لاطروحتى والاستفادة من رأيى .

ومرة أخرى طرحت عليه المدلول البعيد الأثر للمتغيرات الداخلية والخارجية والتحديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى ستجابهها الحركة الوطنيـة والمخاطر التى ستتعرض لها فى مرحلة إعادة تشكيل التوازنات العـالمية وتنافس مصـالحها ومذاهبها ، وشرحت له ضيق فسحة الوقت والاستعداد المتاح لنا والتخلخل فى الجبهة الشعبية الناتج من تناطح واختـلافات الأحـزاب والقيادات التقليدية مما قد يضيع الفرصة ويجهض الآمال وبينت له دقة الموازنة التى طرحتها فرحبت قيادة التحرر الوطنى من خلال جبهة شعبية متماسكة صلبة حول أولويات وطنيـة لا خـلاف عليها ولا تناقض واحترام دور الأحزاب والتنظيمات وخصـوصية توجهاتها ودعوته لأن يشترك الإخوان فى كل المواقـع فى انتخـابات اللجـان الوطنية والشـعبية ويلتـزموا بوحدة الصـف وحمـاية التوجـه الوطنى من المعـارك الجـانبية التنافسـية مع بقاء المسـاحة خـارج مسـئولية الجبهة الشـعبية التى لابد أن تبتـعد عن المنافسـة الحزبية لتمـارس كل دعوة أهدافها فى مجتمع مسـتقل حر ذى كرامة وقدرة وحرية للاختيار.

وأبدى الشيخ البنا اقتناعه بعقم القيادة العلمانية التقليدية التى لم تورث المجتمع إلا بعدا عن الهدايا والطريق السوى ونشرت فى ربوعه الجاهلية والانحلال وفرطت فى مصالحه وأهدرت مقدراته، وأن دعوة الإخوان لصلاح الفرد والجماعة وهدايتها إلى طريق الحق ونور السلام الذى فيه قوتها وعزتها ومعالجة كل أوضاعها واسترداد عزتها وكرامتها، وأنه بغير هذا ستفرض الذلة على الأمة وتهدر مصالحها، ودعانى للتكاتف على طريق الحق والهداية وأنا على ما أنا عليه من علم وتحصن فى الأمور الدنيوية ووجدت الشيخ البنا ذا ذكاء فطرى لماح ومتحدثا لبقا يختار مدخله فى أقرب الأبواب إلى قلوب أمته ويسلك إلى وجدانها أكثر الطرق تعبيدا وتمهيدا ولمست منه أن خطابه لم يكن موجها إلىّ وقد لمس تعمقى فى فكرى ودراستى لأطروحتى ولكنه كان موجها للكوادر المتميزة الحاضرة فى الاجتماع، وتبين لى فى تبادل الرأى فى هذا الحوار الأول أنه لن يسمح لى بتحديد الحوار أو أساسيات موضوعه ولكنه يحتكر هو تحديد أبعاده ومراجعه، وكان علىّ ألا أقع فى فخ الاختيار الذى يفرضه بين طريق الهداية والدعوة وطريق التخبط فى دروب تبعد بالأمة عن نور الهداية والحق، وأكدت له أنى مقتنع بأن أولى متطلبات المواطن الصالح هو صدق الاقتناع والإيمان وان الإخوة من الطلبة يستطيعوا أن يؤكدوا له احترامى ودعمى لكل صاحب اقتناع وإيمان صادق الالتزام بهما حتى ولو لم يطابق اقتناعى وإيمانى.

وذكرت سيادته أن أبعاد وحدة التحديات القادمة تستلزم أن تحيط الاقتناع والإيمان بحقائق هذه التحديات المعقدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والعالمية وضربت له أمثلة من التحديات الاقتصادية المحلية والعالمية والعقبات الضخمة ونوافذ الفرص الضيقة وانعدام الوعى والمعرفة والفاعلية والتنظيم لأصحاب المصالح الحقيقية من أبناء الأمة فى توقى المخاطر أو اختراق نوافذ الفرص، وبينت له أن على من يرشد الأمة أن يتحمل مسئولية الإحاطة والالمام بمتطلبات حماية مصالحها والتعامل الخبير مع دقائق مشاكلها وأن الهدى والإيمان ليس إلا مدخلا وإن كان أساسيا لأعباء هذه المسئوليات الجسام.

ولا أظن أن تحليلاتى كانت العامل الفاصل فى استمرار الحوار ولكن تفهم وتجارب الحاضرين من الشباب وما بدا عليهم من تعطش لاقتحام مجاهل خفيت عليهم وحجبت عنهم وما بدا عليهم من توسمهم الرجاء من عطائى والاقتناع باخلاصى كان من الصعب اغفاله أو تخطيه ومن ثم فقد ختم السيد المرشد اللقاء بحمد الله أن هدانى لاعمال الفكر ودراسة المسالك العملية لخدمة مصالح الأمة وأكد تفتح عقول وقلوب المؤمنين أعضاء الإخوان المسلمين لاسهام كل مخلص ورأى كل دارس ودعا الله أن يكمل علىَّ نعمة هدايته حتى أجند فكرى ودراستى لدعم الدعوة وتدعيم أركانها واستجاب لطلب ورجاء الشبان بعقد جلسة

أخرى أقدم فيها اقتراحا فى العملية بشأن المطالب العاجلة للحركة الوطنية المتمثلة فى اللجان الشعبية والجبهة الشعبية المتمثلة فى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة وما اقترحه من تكيف مسار الدعوة الإخوانية معها ، وعبرت له مخلصا عن اعجابى واعتزازى بعناصر من خيار شباب الأمة إخلاصا وخلقا قابلتهم فى صفوف الجماعة وكذلك عن سلاسة دعوته وقربها إلى عقول ووجدان جمهرة كبيرة من الناس وهى نعمة وفضل من الله سبغه عليه ليخدم مصالح الأمة ويؤمن مستقبلها كما شكرت له عطفه وكرم اصغائه ووعدته أن أقدم تصورا موضوعيا وأمينا يخدم مصالح العمل الوطنى ويعود بالفلاح والنجاح على كل من يسهم فيه . وتم لى بعد هذا الحوار لقاءان مع الشيخ حسن البنا فى المقر العام للإخوان كان أولهما لقاء مغلقاً معه ونخبة من شباب الجماعة الجامعى وثانيهما مشاركة على منبر اجتماع عام للشباب مفتوح .

ولم أذهب للقاء الثانى خالى الوفاض فرغم تحفظ الإخوان التنظيمى بالنسبة للحركة والدعوة لإنشاء اللجان الوطنية فى كل المواقع وخاصة اللجان التنفيذية فى الجامعات والمعاهد والمدارس وما صاحبها وتوازى معها من تنظيم المظاهرات والإضرابات إلا أن متابعة الواقع الجارى بين لى أن عددا غير قليل من شباب الإخوان لم يستطع على المستوى الشخصى أن يلتزم بالتباعد أو مقاومة هذا التيار رغم

توجيهات القيادة . وحتى فى المواقع الكليات والمدارس التى جرى فيها الانتخاب والتى التزمت القيادات المشهورة ولجماعة الإخوان بعدم المشاركة فيها فإن عددا غير قليل من المتعاطفين والمنتسبين إليهم جرفهم تيار الحماس والانفعال الوطنى والتحموا على حياء لقيادته وهذا يفسر الادعاءات المغلوطة التى نشرها الشيوعيون على عاداتهم فى هذه المرحلة من ادعاء أن الإخوان أصيبوا بالنكسات فى الانتخابات التى جرت ومارتبوه على ذلك بأن الشيوعيين حققوا انتصارات كاسحة .

والحقيقة أن الإخوان لم ينزلوا بكامل صفوفهم إلى الانتخابات حتى أحداث كوبرى عباس فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٦ وكان تركيزهم الرسمى والأساسى هو مقاومة استرداد الوفد لشعبيته من خلال تحمل شباب الوفد العبء الأكثر فاعلية تنظيما فى انتخاب هذه اللجان الشعبية ، وهى استراتيجية سلبية أظهرت الإخوان كمنصرفين عن أولويات الكفاح الوطنى ولم الصفوف وانشغالهم بمعاركهم الحزبية ولعبة توازن القوى التقليدية بقيادة خطيبهم المفوه مصطفى مؤمن ولعل هذا الانطباع السلبى هو الذى أثار مرارة بعض شبابهم وغلب فيهم دوافع التعامل الايجابى مع متطلبات المرحلة وكنت على صلة دائمة بهذ التيار ودائم التشاور معه والاستعانة بعطائه وإن لم استطع أن أهدىء من روح العداوة بينهم وبين الطليعة الوفدية بالقيادة الفعالة لمصطفى موسى فى كلية الهندسة وعلى مستوى الجامعة

والحماية التى أسبغوها على بعض عناصر التنظيمات الشيوعية التى كانت تفتقر إلى الخبرة والمصداقية والتواصل الجماهيرى بحكم تربيتها فى الحلقة المغلقة وشطحاتها الفكرية والقيادية الغريبة على الشارع الوطنى . ذهبت إلى اللقاء الثانى مع الشيخ حسن البنا وأنا تحت ضغط ملح للوصول إلى نتائج ايجابية يستلزمها تباطؤ تحقيق الهدف التنظيمى عن البرنامج المخطط رغم توافر الحماس والالتزام الوطنى الجماهيرى .

وفى الحقيقة أن نجوم هذه المرحلة كانت العناصر غير الحزبية أو ما اصطلحنا على تسميته بالمستقلين فلأول مرة زالت احباطات وقيود الانتساب الحزبى عن الشباب من ذوى النزعات الوطنية ولأول مرة يكتشف هؤلاء أنهم الأغلبية الساحقة وإنهم أصحاب المسئولية والحقوق الرئيسية فى قيادة الكفاح الوطنى ولأول مرة تكتشف الأحزاب والتنظيمات أن هذه الأغلبية بدأت تتبلور لها شخصية مستقلة وكيان ذاتى يعمل له حساب ويحكم التوازنات فى الشارع الوطنى على الأقل على مستوى احتمالات المستقبل حتى وإن كان تفكك صفوفه وتشتت اتجاهاته يفيق فاعليته فى مواقف كثيرة .

وفى بداية اللقاء الثانى مع الشيخ حسن البنا بادرت بوضع الحوار على منطلق لافكاك من الوصول إلى نتائج محدده له .

وبينت لسيادته أن الصدام بين قوى التحرر الوطنى والاحتلال البريطانى آت لاريب وليس لأى قيادة وطنية فضل أو خيار أمامها وفى نهاية المطاف إما هى مع التيار الوطنى أو معادية له . إذا كان يرى صواب تقديرى للأمور ، فالاختيار الباقى لانصار التحرر الوطنى هو إما المبادرة لدعم واحتلال مكانة مشروع فى المشاركة فى توجيهه وقيادته أو الانجراف مع جحافله مضطرة نحو انطلاقة غير المحسوبة وأن الإخوان المسلمين على مشارف أزمة ملحة لعدم وضوح دور ايجابى بارز لهم تؤهلهم له دعوتهم وحجمهم ، وأنهم فى الحقيقة على مشارف منعطف صدق مصداقيتهم على صعيد الأساسيات الوطنية والذى لا يمكن الهروب منه اعتمادا على صدقهم ومصداقيتهم الدينية والتى فى النهاية حكمها عند الله. أما صدقهم ومصداقيتهم الوطنية فحكمها عند الناس ومن ثم فأنا افترض أننا لابد أن نتفق بداهة على المشاركة النشطة والفعالة للإخوان من الجبهة الشعبية حيث كان طريق الجبهة الشعبية هو الضمان الوحيد المطروح لوحدة الصفوف والالتزام بالأصول الوطنية وتفادى انصراف الوطنيين عن قتال المحتل انشغالا لقتالهم لبعضهم البعض ولما كان هذا المنحى لا يختصر من قدرة أى دعوة على نشر دعوتها والالتزام بغاياتها الطويلة المدى والتى ترتكز على ثقة ومصداقية الناس فى بلوغها فإن هذا الطريق ليس هو فقط الأنسب لمسيرة الكفاح الوطنى ولكنه أيضا الأفضل فى إرساء أركان

الدعوة الصادقة المخلصة ، ومن ثم فإنى أطالب المرشد من منطلق مسئوليته الدينية والدنيوية أن يشهر دعم وتأييده ويصدر توجيهاته بالبذل المكثف أمام نخبة الشباب المتميز الحاضرين وهم أهل أن يحملوا فى صدق توجيهاته إلى كل الصفوف . ولعل الشيخ حسن البنا لم يكن متوقعا لهذا الحصبار ولم يكن راضيا عن أن تتحدد له الاختيارات بين الأبيض والأسود ويبسط له الأمر بحيث يبدو لا مجال للتردد فى اتخاذ القرار .

ولعل هذا المنحى المدبر قد أتى بثمار لم أكن أتوقعها فقد بدا سيادته في تأكيد أن كفاح حياته واتصال دعوته منذ عشرين سنة أو تزيد كان له هدف أساسى وواجب أصيل لا يستطيع أن يحيد عنه وهو أن يوفر للأمة ركيزة ودعامة لن تقوم لها قائمة أو يعلى الله من شأنها أو تتوحد كلمتها أو تخلص سعيها إلا بها وعنها ، وأن هذه الركيزة والدعامة يحيط بها الأعداء من كل جانب وتتحفز بها المؤامرة من كل حزب .. هم فى الحقيقة الأعداء المتآمرون على أمة الإسلام ودعوة الاسلام وليس تآمرهم وعداؤهم لدعوته إلا من حيث هى ركيزة ودعامة الإسلام وأمته ، وأنه لن يخاطر اليوم أو غدا بزلزلة هذه الركيزة أو تحطيم هذه الدعامة وهذه هى الأولوية لكل مخلص مؤمن بقدسية الدعوة وسلامة الأمة . وأن التقدير بحتمية الصدام الملح مع القوى الاستعمارية لا يمكن أن يصرفه عن واجبه الأول والأخير فى الحفاظ

على الدعامة والركيزة التى هى فقط القادرة على معالجة مشاكل الإسلام والمسلمين فى نهاية المطاف ومن ثم فهى الركيزة الحقيقية للحركة الوطنية وظنى أن بعض المتنورين من الشباب المتحمس فاجأهم رأى المرشد العام أكثر مما فاجأنى .

وأبديت اتفاقى المتحمس مع السيد المرشد أن الدعائم والركائز الوطنية المخلصة هى فى نهاية المطاف الضمان والسند لفاعلية واستمرارية الحركة الوطنية وأن نظره الثاقب تخطى مطالبة المرحلة الحرجة الملحة لتطلعات أبعاد الكفاح الوطنى الممتد والمتصل ولعل هذا هو سبب مثابرتى فى إلحاحى على مشاركة هذه الدعائم والركائز الوطنية المخلصة فى قيادة الشارع الوطنى ليس فقط لمجابهة مرحلة من مراحل الكفاح الوطنى ، لسنا منفردين فى تحديد زمانها ومكانها ولكن تأصيلا وتثبيتا لهذه الدعائم والركائز التى تعلقت بها عقول الناس وأفئدتهم كملاذها الأخير فى الشدائد والملمات والأزمة الوطنية هى أخطر الشدائد وأظلم الملمات فى ضمير الشارع الوطنى فى مرحلتنا ومن ثم فهى تضع كل دعامة وركيزة فى موضع اختبار حتمى ومصيرى لا منجاة عنه أو تجنبا له بل هى فرصة كل داع ومنجاة لكل دعوة مخلصة أن تتلهف على امتحان الله والناس لصدق وعدها وقيامها على عهدها من ناحية أخرى فإن كل دعوة لم ينق معدنها النفيس من الشوائب الدخيلة إلا نار المصاعب والشدة ولنا فى السلف الصالح خير

مثال ، ومن ثم فأنا أرى فى توجه سيادته بشرى خير للحركة الوطنية وللدعوة والدعاوى لكل المخلصين الذين أظن أنى منهم وأنى أظن أن التئام صفوف المخلصين لابد من أن يكون محل رضاء مرشد الدعوة ومباركته .

وبادر بعض الشباب بملاحظات استحسان فى رقة وحياء دعمت الحاحى بضيق فسحة الوقت وأن يشرفنا فضيلة المرشد بدعمه وتأييده وبعد لحظة تأمل أفادنى أن شباب الأخوان من عادته اللقاء بالقيادة خلال أيام قليلة وأن يدعونى للمشاركة فى هذا الاجتماع وأنه سيسره أن أجلس بجواره على المنصة ودعائه أنه بتوفيق الله وهدايته سأسمع خيرا إن شاء الله وفى الميعاد الموعود توجهت فى أبهى حللى ووجدت جمعا حاشدا من الشباب ثم انضم سيادة المرشد مع جمع من القيادات للإخوان لم أكن أعرفهـم وتوثقت أواصر المعرفة فيمـا بعد وأظن التقدير والمحبة بينى وبين بعضهم خلال اعتقالنا فى معتقل هايكستيب فى صحراء السويس سنة ١٩٤٨ كما أظنه بكل أخلاص على المستوى الشخصى .

وتبادل الخطباء الحديث عن تحركات الشارع السياسى وسعى الحكومة لطرح فكرة المفاوضات والجلاء على بريطانيا (التى كان يؤيدها الإخوان) ومزايدات الوفد وحواشيه من الشيوعيين (وكان الإخوان يعتبرون أن طليعة الشباب الوفدى فى الجامعة لها توجهات شيوعية

وميول إلحادية وهم فى الحقيقة كانوا أبعد عن ذلك وكانوا يضمون عناصر لا يرقى الشك إلى وطنيتـها وارتباطها الجماهيرى المؤثر الذى بدا أحيانا أنه يفوق ارتباط القيادة الوفدية نفسها فى هذه المرحلة المتأزمة من تاريخ الوفد وتحـدثوا عن مسئولية الإخوان والأمانى المعلقة فى رقابهم فى تطهـير صفـوف الأمة من الضالين والغافلين الذين يحيدون بالمخلصـين عن طريق الهداية والحق وعددوا انجازات فى تحقيق هذه الرسالة وأكدوا التفاف صفوف الأمة حول راية دعوة المرشد .. الخ .

ثم جاءت كلمة السيد الشيخ حسن البنا مفاجأة لى أكدت لى ما لمسته فى الاجتماعات السابقة من لماحة ذكائه وعمق تدبيره . فقد تحدث عن حدة الأزمة التى تلم بتطلعات آمل الأمة فى الاستقلال والعزة وافتقارها إلى القيادة الهادية والارشاد المبين ومسئولية الإخوان فى خضم هذه الكروب والشـدائد أن يكونوا ملاذ الحائرين وهداية لليائسين ثم أشار إلىَّ وأنا جالس بجواره وحمد الله أنه هدى الأخ عصام الدين جلال إلى نور الحق وأنه هو رئيس اللجنة الوطنية للعمال الطلبة قد وضع يده فى يد الإخوان المسلمين قناعة بطهارة مقاصدهم وصدق عزمهم وأن يدعو الله أن يهدى مثل ما هداه المخلصين الأبرار من جموع الشباب الوطنى الصادق والأخ عصام جلال أحد رموزهم وموضع ثقته حتى تجتمع صفوف المخلصين على نور الهداية فى الدفاع

عن مصالح الأمة وكرامتها وصافحنى مشددا والحقيقة انبهرت فى الاجتماع كان حاشدا وكان فيه جمهرة من شباب الجامعة واظن أن بعضهم لم يكونوا اعضاء فى الجماعة ولكن من المتعاطفين كما كان فيه شباب من الواضح أنه غير جامعى أو تخطى مرحلة الجامعة ، وهو قد صافحنى كرئيس للجنة الوطنية للعمال والطلبة وصاحب الدعوة للجبهة الوطنية دعا إلى التئام صفوف المخلصين وهو قول يمكن أن يحمل على انتهاء المقاطعة أو المعارضة للتوجه إن لم يكن لبعض العناصر المنطوية فيها من غير «المخلصين» هو ما يحمل معنى احتمال انضمام للأخوان مع تحفظات لا مفر منها .

ولكنه بلغة الأخوان شاع أنى وضعت يدى فى يد الإخوان المسلمين بعد ما سبغه الله علىَّ من هداية الاقتناع بطهارة مقاصدهم وصدق عزمهم ولم يقل إن الإخوان وضعوا يدهم فى يد اللجنة الوطنية للعمال والطلبة اقتناعا بمنحاها الكفاحى الوطنى واستجابة لدعوتها لوحدة صف الجبهة الشعبية . ومن ثم فهو أوحى بانضمام اللجنة الوطنية للإخوان أو على الأقل انضمامى أنا تحت لوائهم .

عقب هذا فاصل هزلى فقد كان الميكرفون ينقل من متحدث إلى آخر كما هو واضح حسب نظام متفق عليه أو متعارف عليه بمعرفة رئيس قطاع الشباب وكان غير مصطفى مؤمن زعيمهم فى جامعة فؤاد الأول بل على مستوى الجامعات الأخرى والمعاهد . ولا يحضرنى الآن اسمه

وانتهزت فرصة مروره خلفى فاسررت إليه أنى أحب أن أشكر السيد المرشد على تزكيته الكريمة لشخصى ، وطلبت الكلمة فاستمهلنى وأعدت عليه الكرة مرة أخرى فاستمهلنى فملت على أحد القيادات الكبيرة بجانبى أشكو له تغافل طلبى فنصحنى بالصبر الجميل وعسى الله يقضى بما فيه الخير والصلاح ، وكنت فى أزمة شديدة ليس لأن هذه الشبهة كان فيها انتحار سياسى لى إذا سكت صاغرا على هذه البلبلة وإنما أيضا كان فيها تعريض خطير باستقلالية وشمولية اللجنة الوطنية والجبهة الشعبية وهذا كان رأس مالنا السياسى الوحيد وأخيرا عزمت بمعالجة الأزمة بما تستوجبه من حزم قاطع وفى المرة التالية التى كان يمر الميكروفون أمامى من يد أحد جيرانى إلى جار على جانبى الآخر مددت يدى وبصوت مسموع للجميع قلت عن اذنك فيما بدا إنى أتطوع لنقله إلى الشخص المعنى ولكنى بدل ذلك احتفظت به ووقفت فى الحال وبدأت الحديث بصوت جهورى متأن .

فحمدت الله وشكرته على شرف المشاركة فى اجتماع الجمع الكريم وأشدت بكرم الوفادة وبالغ الرعاية والتقدير الذى اسبغه علىّ ليس فقط كمواطن مخلص وملتزم بالقضايا الوطنية ولكن أيضا كرئيس للجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى للحركة الوطنية والمكلف بلم شمل صفوف الوطنيين المخلصين . وجنود التحرير والاستقلال من كل التوجهات والمذاهب والفئات إعمالا لفكرة الجبهة الشعبية التى

ارتضتها الأغلبية الساحقة هاديا ورمزا للمرحلة . وإنه كان واجبا عليّ ومسئولية أساسية من السعى لِكى تضع كل الفاعليات المسئولة أيديها فى أيدى بعضها البعض من خلال اللجان الشعبية المنتخبة بإرادة الجماهير والمعبرة عن إرادتها أن أسعى لأن تكون يد الأخوان المسلمين من أوائل الأيدى القوية المخلصة التى تصافح أيدي كل المكافحين الشرفاء لحماية مصالح الأمة وأهدافها ومن ثم فكان شرفا بالغاً لشخصى الضعيف أن يقبل السيد المرشد يدى كرمز لهذا التواصل الشعبى الشامل الجامع لكل المخلصين لتلتقى مع يد الاخوان ويده الكريمة محققين بذلك ركنا راسخا من أركان دعامة الوحدة الوطنية ، حمدت الله وأثنيت عليه أن أسبغ على نعمته أن أكون أداة متواضعة فى تحقيق هذا الإنجاز الوطنى المهم ودعوته أن يعز بالاخوان وحدة الصف الوطنى وتلاحم صفوفه واشتداد شوكته ونافذ قدرته .

وأكدت أنه فيما يتعلق بشخصى الضعيف فإن أملى ودعائى لدعوة الإخوان باستكمال استعدادها وتأهل فكرها وكوادرها على مجابهة الأعباء الجسام والتحديات البالغة التى تطرحها المتغيرات الداخلية والعالمية استراتيجيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا وأنى لأعلم الناس بجسامة المهمة وتعقيداتها فى إطار البلبلة وعدم الاستقرار الداخلى والعالمى ولكنى أرى أنه لا مندوحة من تكامل واستكمال هذا

التأهل والإعداد . وكمثال لعناصر وطنية كثيرة تشغلها الدراسة والتمحيص والتحليل للإسهام فى تحديد المسار وتقييم الاختيارات وحساب التكلفة والعائد وتوقى المخاطر وانتهاز الفرص أرى نفسي مواطنا يعيش على أمل أن يمد قوافل المخلصين المجاهدين بزاد لم يتزودوا به بعد وهو كالماء لا غنى عنه كركن أصيل فى الكفاح الوطنى والإصلاح السياسي الاقتصادي والاجتماعى والاستراتيجى وإنى أدعو الله أن تبقى الأيدى المتصافحة على ترابطها وتعاهدها والقلوب والآذان المفتوحة على تواصلها وتحاورها حتى تتاح الفرص لكل المجتهدين المخلصين أن يقدموا لقافلتكم الحاشدة فى الموقع والوقت المناسب ما تيسر لهم من زاد تستكمل به عدتكم من تقييم موضوعى منهجى لتعقيدات التحديات السياسية والاقتصادية والأمنية .

وارتفع صوت السيد المرشد بتعليق واضح «بشّرك الله خيرا» ولم أستطع أن أتأكد إذا كان هذا اقتناعا بادعائى أو تهكما عليه .

وقد اجتمعت بالشباب من الإخوان المتحمسين وأصحاب الفضل الحقيقى فى هذا الإنجاز وأكدوا لى أن المرشد لم يقصد الإبهام ولا إحاطتى بالشكوك بل إنه كرمنى تكريما غير مسبوق باعتبار أن وضع يدى فى يد الاخوان رمز لمد يد الاخوان للجنة الوطنية للعمال والطلبة بالقبول والدعم وألححت عليهم فى أن يؤكدوا للقيادة أن

إصرارى على التوضيح وتأكيد استقلاليتى وحيدتى كهمزة وصل بين التنظيمات والاتجاهات لم يكن بنـوازع فردية لتأكيد تميز أو ادعاء فضل أو تطلع لمكانة ولكنه كان ضرورة سياسية لتأمين دورى والإبقاء على مصداقيتى اللازمة لإكمال دورى فى تأمين تشكيل الجبهة الشعبية من كل التيارات الوطنية وعدم مضاعفة المصاعب والعقبات مع الموكل إليهم أعباء الإعداد لها وعلى أى حال اتفق الجميع أن هذا المؤتمر يمثل منعطف تحول فى علاقة الإخوان بمشروع الجبهة الشعبية وأن تكرر التأكيد على الشك والتحفظ الدفين بالنسبة لبعض التنظيمات المدعوة للمشاركة مثل الوفد والشيوعيين وأن ما يخفف من مخاوفهم هو تأكدهم من استقلالية القائمين على الدعوة وإصرارهم الصلب على المحافظة على شموليتها الوطنية والتزامها بحدود الأساسيات الوطنية المشتركة والوقوف فى وجه محاولات الانحراف بها واستغلالها ، وأكدت لهم فى حضور قيادات الشباب أن الانتخابات التى تمت فى بعض الكليات والمعاهد دون مشاركتهم الرسمية لا تمثل عقبة لا على مستوى المواقع ولا على المستوى المركزى لأنه يمكن التفاهم مع مختلف التيارات بدعم التشكيلات بعناصر قيادية من الاخوان حتى على مستوى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة التى مازالت فى مرحلة التشكيل والأغلبية من المستقلين المعنيين بتكامل التشكيل الوطنى ، إما فى الأغلبية التى لم تبلغ بعد باستكمال الانتخابات فيها فلا شك أن

فرصهم وامكانياتهم ستؤكد لهم المشاركة الفعالة ، واتفقنا أن يستمر اتصال التنسيق معى شخصيا وعليه ففى أوائل ١٩٤٦ بدا كما لو كان مفهوم الوحدة الوطنية من خلال الجبهة الشعبية المنتخبة والمسئولة ديمقراطيا قد أزيلت من طريقه أكبر العقبات .

وفى نفس هذه المرحلة ديسمبر ١٩٤٥ - يناير ١٩٤٦ قامت اتصالات بينى وبين ممثلى أحزاب الحكومة وكان بعضها غير مجد والآخر لافت للانتباه .

أما الأول فكان عن طريق اللجان الحزبية فى الجامعة وكانت أطروحتهم بعد فشل محاولة إجهاض تشكيل اللجان الشعبية الوطنية المنتخبة هو التركيز على دعوة هذه اللجان لعدم الانحياز فى معركة حق التفويض لمفاوضة الإنجليز وهو الحق الذى تمسكت به أحزاب الأقليات بصفتها الحكومية وتمسك به الوفد بصفته التاريخية واتخذ شكلا حادا من التناحر والمزايدة المنفردة . كان هدف هذه الاتصالات والتى أكد لى أنها تتاح بتفويض من القيادات الحزبية (أى الحكومية) بوعود بدعم اللجان ولى أنا شخصيا هو تأكيد عدم مناصرة اللجنة لأي من الطرفين وعدم التشكيك فى حق الحكومة فى مباشرة مسئولياتها السياسية والدستورية واستغرق الحوار جهدا كبيرا لمحاولة اقناع الحاملين للرسالة بأنهم يسبغون على صفة زعامية وفاعلية سياسية لم أدعها لنفسى ولا أتطلع إليها وأنهم

سيحصلون على دعمي مهما قل شأنه مثل كل التيارات الأخرى لطرح مطالبهم على اللجان ومحاولة الحصول على تأييدها ، أما مشاركتى فى مثل هذا الإدعاء الفئوى فهى خارجة عن حدود مسئولياتى وتتعارض مع الضمانات المطلوب توافرها فى الجهة الموكل إليها تنفيذ قرارات الإجماع الوطنى فى المؤتمر التحضيرى ، وتكررت المحاولة بإلحاح بعد سقوط وزارة صدقى ومشروع مفاوضات صدقى - بيفن سنة ١٩٤٧ .

أما الاتصال الثانى فكان حكوميا أمنيا مباشرا ثم تطور فى وزارة إسماعيل صدقى إلى حوار سياسى مباشر مع رئيس الوزراء نفسه .

وكان أول اتصال قبل أحداث كوبرى عباس وسقوط وزارة النقراشى وتم معى عن طريق استدعائى لمقابلة محافظ الجيزة (مدير مديرية الجيزة) وفى هذا اللقاء أكد لى سيادته اقتناع الحكومة بوطنيتى وطهارتى من النوازع الاستغلالية أو التخريبية ، وبين لى أن الحكومة ترى مكسبا فى تولى العناصر الوطنية المستقلة المخلصة للقيادة كضمان لعدم احتكار القيادات المتطرفة والانتهازية لقيادات الجماهير وأن الحكومة لن تسمح باستغلال العواطف الوطنية لاحداث فوضى أو جر الحركة الوطنية فى معارك جانبية لتحقيق أغراض حزبية أو مذهبية . وأنه يرى أن ثقة الجميع ومصداقيتهم وخاصة المستقلين تعطينى

المسئولية لتأمين المسار الوطني للحركة وأفاد أنه بقدر الظروف الصعبة التي نعمل تحتها لعدم توافر أماكن الاجتماع أو الاتصال أو الانتقال (عن غير طريق الشعبطة فى الترمويات) كما سماها وأنه كمسئول عن منطقة الجامعة يمكنه الإسهام فى حل بعض هذه الصعوبات وإزالة عقباتها المحبطة عن طريق العمل الجاد فأكدت لسيادته أن كل هذه الصعوبات هي محك لاختبار صلابة العناصر المخلصة وصقل قدراتها وأنه ليس من المصلحة اعطاؤها حلولا جاهـزة فلا يعقل أن من يتعرضـون لمسـئولية قيادة حركة التحرر لأمة يعجزون عن التعامل مع مثل هذه المشـاكل ثم إن هـناك اعتبارا للمصـداقية والاستقلالية التي يجب أن يحرص عليها كل المتعـاطفين مع هذه الجهود ومن ثم فأنا أشكره على اهتمـامه ولا أرى داعٍ لأى دعم خاص وكل المطلوب منه هو توجيه جهات الأمن لتخفيف حصـارها واستفزازاتها حتى وإن ادعى أنها موجهة لعناصر متطرفة لأن العجلة الديمقراطية التى نقودها هى الأقدر على احتواء هذه العناصر فى حين أن استفزاز قوات الأمن يدعم توجهاتها ويقيد حريتنا فى احتوائها . اتفقـنا أنه إذا جد جديد سأدعى للقاءات أخرى .

وكانت هناك اتصالات مهمة لابد من القيام بها وهى السعى لإيجاد المشاركة والتواصل مع الحركة العمالية ، وفى المرحلة الأولى عقب المؤتمر التحضيرى لم تكلل جهودنا بنجاح كبير فبعض العناصر

العمالية بدأت الاتصال بنا بداية من المؤتمر التحضيرى وكان بعضها ذا دوافع وطنية واضحة وكانت قلة منها ذات اتصالات تنظيمية أو مذهبية أو حزبية ولم تكن هناك ضمانات عن صفتها النقابية أو التمثيلية العمالية وكان تصورى أنه يجب العمل من خلال القواعد الهيكلية الأساسية للتجمعات العمالية مثل ما فعلنا فى المجال الطلابى حيث بدأنا باللجنة التحضيرية المعتمدة على الدوافع الوطنية المتطوعة ثم عدنا إلى الهياكل المؤسسية الأساسية عن طريق انتخابات الكلية والمعاهد والمدارس . وكان تقديرى أن الهياكل الأساسية للتجمعات العمالية التى يجب اعطاؤها الأولوية هى اتحاد النقابات الأهلية الذى كان يضم عشرات من نقابات العمال غير الحكوميين ونقابات النقل العام من الترمواى والاوتوبيس والمترو والسكك الحديدية وعمال النسيج وخاصة فى المحلة الكبرى وشبرا الخيمة وإمبابة وعمال الأسكندرية وكفر الدوار وطنطا فى المحالج ومضارب الأرز وكانت ضعيفة التنظيم والوعى للطبيعة الموسمية لهذه الصناعات ومن ثم سعيت عن طريق العناصر المستقلة ودون استبعاد العناصر المنظمة لإقامة اتصالات مع هذه التجمعات ، وكان اقتراحى هو الاتصال والحوار المباشر مع القيادات النقابية التقليدية الحائزة علي ثقة العمال وتأييدهم رغم حماس بعض التنظيمات لعمل اتصالات تنظيمية وجانبية لاختيار عناصر «واعية» وبالفعل فى أواخر ١٩٤٥ تمت اتصالات مبشرة بالخير انتهت بالمرور

على كل القيادات المنتخبة هذه التجمعات النقابية فى القاهرة فى مقار عملها أو فى مقاله فى مناطقهم دافعنا رفاهية حسهم الوطنى وصدق توجهاتهم التلقائية وإدراكهم الغريزى العميق بمسئولياتهم وواجباتهم الوطنية واستعدادهم الغريب تحت ظروف الضغوط الأمنية السياسية والعقبات الاجتماعية للمشاركة فى المسئولية وتحمل المخاطر كأصحاب مصلحة رئيسية دافعنا كذلك قدرتهم على تقديم الأولويات الوطنية على مطالبهم النقابية رغم إلحاحها وضرورتها . ولا أرى مهربا فى هذا المجال من أن أذكر بالخير أحد المساهمين الفاعلين فى تدعيم هذه الاتصالات . فقد سبق وبينت أن تحركى التكتيكى من مرحلة الإعداد هذه كان تقديم ودفع العناصر المستقلة المخلصة وفى سبيل ذلك كنت اختار من أعضاء اللجنة التحضيرية أو المؤتمر التحضيرى أو اللجان التنفيذية المنتخبة العناصر الواعية من ذوى التوجهات المستقلة فى مثل هذه الاتصالات التحضيرية غير الرسمية . وكان المرحوم الدكتور إبراهيم الشربينى الذى أصبح فيما بعد سكرتير عام نقابة الأطباء فى عصرها الذهبى والمتحدث المختار بدون منازع للهيئة الطبية قد لفت نظرى بصدق مشغوليته والتزامه الوطنى. الفذ فقلما قابلت فى حياتى على طولها وتقلبها من فاقه فى هذا الالتزام الذى حكم كل تحركاته وعلاقاته وتوجهاته دون استثناء على طول علاقاتنا التى امتدت أربعين عاما ، وكان فيه خاصيتان حيرتانى فهو

كان عازفا باصرار عن أى ارتباط تنظيمى حتى تعذر ضمه لعضوية جبهة الأحرار الديمقراطيين حتى فى شكلها المفتوح الجبهوية البعيدة عن النزعة التنظيمية ثم تعذر اقناعه بعد أن ساعد فى حل مشكلة اجتماعات ملاعب كلية الطب وكان رياضيا نشطا عن المشاركة فى كل الخطوات التنظيمية التالية حتى أصبح أحد الأعضاء البارزين للجنة التنفيذية العليا للطلبة ولكنه احتفظ باتصال لصيق ومفصل معى حتى نهاية حياته كان محوره الحوار والتشاور فى المتغيرات السياسية الداخلية والعالمية لا أظنه استقر على موقف دون أن يتعطف علىّ بالمشاركة فى دراسة المدخلات وتقييم الاختيارات وكان رحمه الله يقدر معلوماتى واستيعابى لهذه الأمور أضعاف ما تستحقه من القدر .

وعلى أى حال سعيت لأن استعين به فى تمكين أواصر الاتصال بالقيادات العمالية وهو ليس عضوا فى أى تيار سياسى رغم شعبيته الواسعة . وفوجئت بنمو تجاوب عميق وثقة راسخة بينه وبينهم وشعرت أنه ببساطته وصراحته وشعبيته وحرارة عواطفه الوطنية الشعبية أوجد لغة مشتركة بينه وبينهم كان يستحيل علىّ اقامتها فى هذه الفترة الوجيزة الصعبة وكانت هذه اللغة المشتركة والثقة الراسخة التى تمت فى لقاءات معدودة بين العناصر الواعية العمالية والطلابية من أبهر مظاهر المرحلة وهى معبرنا نحو التواصل

والالتزام الموثوق به مع القيـادات النقابية فى أنحـاء نقابات الأهليـة برئاسـة محمد عبدالحليم وسكرتارية سيد على وعمال حلوان والمعصرة وعمال المترو برئاسة الزميل حسين وشذ عن القاعدة عمال الترموای الذين كان رئيسهم الشـيخ عبدالظاهر موضع محاصرة مكثفة من أجهزة الأمن وكذلك عمال شبرا الخيمة برئاسة محمود الضمرانى والذين كانوا فى نفس الوضع ويزيد عليه الانقسـامات التنظيمية والحزبية والنقابية فى صفوفهم مما اقتضى تعاملى المباشر معهم كما سيأتى فى حينه .

وقد حاول المتأخرون من المشتركين فى الحركة الوطنية أن يبحثوا لأنفسهم عن أدوار مدعاة ومن ثم حاولوا احتكار فضل انجازات تنظيمية خيالية كأساس لنجاح المرحلة . وإذا كان هناك شخص أو صاحب مدرسة له أن يبالغ فى الإدعاء فاظنه الأدعى أن أكون أنا في صدارة المدعين ولكن سيتبين من السرد الأمين للأحداث ظاهرة بارزة وفى رأيى أدعى بالاهتمام والدراسة وهو أن الحركة فى الأساس ارتكزت على التفاعل العفوى والتواصل التلقائى من آلاف القيادات الجماهيرية التى ارتكزت أساسا على وعيها والتزامها الوطنى الذاتى ، وأن كل مهمة القيادة كانت إتاحة الفرص لهذه العناصر المميزة ومحاولة ضم صفوفهم ، وكان عطاؤها فى مجال التنوير والتنظيم إسهاما مهما ولكنه هامشى كما ستؤكد الأحداث فى مجال التعبئة

والحفز فلم يكن الشارع الوطنى ينتظر من يحفزه أو يعبئه كما اكتشفنا رغم كل تقديراتنا السابقة التى بنيت على استقراء خاطئ للمظاهر السلبية . وكانت خلاصة الحوار مع هذه العناصر مركزة على اختلاف ظروف التحرك الوطنى بين مجال الطلاب والعمال واختلاف لغة الخطاب السياسى أيضا ، فحرية الحركة فى المجال الطلابى كان يحصنها تقلص مسئوليتهم الاجتماعية والاقتصادية وترسخ تقاليد المشاركة الطلابية فى العمل السياسى بدعم ودعوة على القوى السياسية الفعالة والحماية النسبية ضد اعتداءات قوى الأمن بحكم انتمائهم الاجتماعى والطبقى . فى حين أنه اضافة للقيود الاجتماعية والاقتصادية والنقابية كان تحفز ووحشية الكبت البوليسى للتحركات العمالية لأزمة أساسية من لوازم ومميزات النظام اضافة لدور الإدارة فى تغريق الصفوف ووأد القيادات وإخراس الألسنة .

ومع هذا فالتحرك العمالى كان له ثقل سياسى يفوق بمراحل التحرك الطلابى ومن ثم كان مرتبة أعلى فى التصعيد والمواجهة كما سيظهر فيما بعد .

اللجنة الوطنية للعمال والطلبة

وابتدأت معالم اللجنة الوطنية تتشكل بالتدريج فى أواخر ١٩٤٥ ولكنها لم تستكمل أو ترسخ إلا بعد أحداث كوبرى عباس وإن استمر

التوسع والتقلص الديناميكي فى تركيبها حتى أواخر عهدها فى سنة ١٩٤٧ .

وحكم نشاطى الشخصي في هذه المرحلة عاملان أولهما أنه من أواخر ١٩٤٥ اضطررت لتركيز كل نشاطى المباشر على تشكيل اللجنة الوطنية ، ولم أعد قادرا على إعطاء جزء له وزنه من وقتى ونشاطى لأعمال اللجان التنفيذية للطلبة إلى الدرجة أنى لم أحضر أى من اجتماعات اللجنة المركزية منذ أواخر ١٩٤٥ . وقد جاء الوقت فى قمة نشاط اللجنة الوطنية للعمال والطلبة فبراير - ابريل ١٩٤٦ أن حاول الاخوان والشيوعيون استغلال هذا الانقطاع فى الطعن فى رآستى بحكم أن رئاستي كانت تمثيلا للطلبة التى انقطعت عن مشاركة لجانهم حتى على مستوى كلية الطب ولم أعد إلى التركيز على النشاط الطلابى إلا فى ابريل ١٩٤٦ بعد هجمة اسماعيل صدقى الضارية على اللجنة الوطنية للعمال والطلبة وإنشائه البديل الكوميدى اللجنة القومية برئاسة علي ماهر وصالح حرب وحسن البنا كبديل قيادى عن اللجنة الوطنية للعمال والطلبة . والحق يقال أن النشاط الطلابى فى الجامعة كان مؤمنا عن طريق الدور القيادى للطليعة الوفدية برئاسة مصطفى موسى والغالبية الساحقة للطلبة المستقلين الذين أفلحوا فى استمرارية الكفاح حتى أواخر مارس ١٩٤٦ وحصر محاولات

الانفلات والانقلاب التى لم تتوقف وكانت اتصالاتى وتبادل الرأى مع هاتين القوتين لا تنقطع .

وفى الحقيقة أن العمل الجماهيرى فى الأوساط العمالية كانت مدرسة جديدة أقبلت عليها بشغف ونهم ، وجذبنى إليها تلقائيته وتواصله مع الأصول والتقاليد الوطنية المتعارف عليها حيث للعلم وللخبرة وللسن والتاريخ والمسئولية اعتبارها وتقديرها وحيث الالتزام والاحترام المتبادل بين القيادة والمناصرين اعراف لا يصح الخروج عليها أو التسامح فيها وحيث الديمقراطية شعبية ليست نظرية سياسية ولا منحى فكرى ولكنها تواصل وتعاطف ورعاية متبادلة لرواسب مشتركة ومصالح متصلة وحيث الكفاح والمجابهة ليست بطولة رومانسية أو مزايدات عنترية ولكنها ضرورة مريرة يفرضها تأمين المعاش والكيان وينظمها حساب الحرمان والاضطهاد ، وأخذنى أن القناعات التى صرفت السنين من الإطلاع والدراسة والبحث عن منابعها وأصولها الفكرية بدت لكثير من العمال الناضجين الذين تعاملت معهم فى هذه المرحلة مسلمات بديهيـة تأكدها معايشة العمل ومسئوليات الحياة وخبرة التعامل والأخذ والعطاء وأن معسول الكلام ومنمق الأطروحات الفكرية مدعاة للإعجاب والتقدير ولكن جوهر مقاصدها وخلاصة مراميها هى فقط مدعاة القناعة ومبرر الالتزام وافهمنى إصرارهم أن العمل العام ليس بديلا بل هو مدخل إلزامى لحرارة العلاقات

الشخصية واتصال الود والتعاطف وكنت فى حاجة ماسة لتعلم هذا الدرس واستيعابه بعد أن شغلنى جهود التواصل العام على أساس الانبهار الفكرى والإفهام المنطقى وتجاوب وجدانى مع هذا الثراء الأصيل الإنسانى . وجذبنى أيضا مسحة الجدية التى عمت بيئة التعامل العمالى وخلوها من نزوات المراهقة والصبيانية التى تمسخ بعض التصرفات الطلابية وتبينت خطورة أغلال الأمية والجهل التى تقيد وتحد من الامكانيات الهائلة الكامنة فى صفوفهم .

ومن معايشة هذا التراث الأصيل لم يدهشنى أنه خلال أسابيع قليلة حققت معهم وبهم ما عجزت عنه تنظيمات دخيلة مستغربة أو محددة الأفق متخطية لضرورات الواقع ومطالبه وأصبحت هذا القاعدة هى الركيزة الصلبة والمضمونة والموثوق بها للعمل الوطنى خلال هذه المرحلة وكم انبت نفسى وكم أنبنى زعماؤهم أنفسهم أننا لم نتواصل لنتدارس قبل مرحلة التحرك الوطنى ، وظنى أنه لو لم نقع فى هذا القصور الخطير لكتب للحركة استمرارية واتصال أطول مما تحقق لها .

والذى اتفقنا عليه هو أنه لا داعي ولا وقت لإنشاء لجان وطنية منتخبة فى هذه القطاعات العمالية النقابية وأنه يعتمد تمثيل النقابات الأهلية والذى يمثلها اتحادها العام وكانت تضم نقابات النقل من القاهرة ومطابع مصر ، وشركات خط المعصرة حلوان وغيرها من

النقابات بانتخاب رئيس الاتحاد الأخ محمد عبد الحليم رئيس مشارك للجنة الوطنية عن العمال بجانبى كرئيس مشارك عن الطلبة على أساس تناوب رئاسة اللجنة ، عمليا فإن رئاسة هذه اللجنة التى تخطت عضويتها أكثر من سبعين عضوا بعد أحداث كوبرى عباس ممثلين للجان التنفيذية للجامعات والمعاهد والمدارس والنقابات وبعض روابط الموظفين كرابطة موظفى الحكومة والتى استضافة اجتماع واحد من اجتماعاتنا فى مقرها على ما أتذكر فى منطقة شارع الألفي كانت رئاسة هذه اللجنة معجزة متجددة باعتبار كل عضو منها زعيم ومتزعم اضافة لوجود قيادات ونزعات متضاربة ومتنافسة ولكنها غير متقمصة وكانت اجتماعات اللجنة تمتد لساعات طوال ويبدو أنها لن تصل إلى نهاية أو قرار وكنت أدير الاجتماع واقفا على قدمى ومطرقة الرئاسة هى غليونى المفضلة عندى اسمها الحجة وصاحبتى فى المعتقل ثم رئاسة العديد من المنابر البريطانية خلال نشاطه السياسى المكثف بها ١٩٥٠ - ١٩٥٦ وضاعت منى بعد ذلك فى الثمانينيات وحزنت عليها حزنا شديدا . وكانت خطتى فى إدارة اللجنة التزام الحزم فلم أكن اسمح بالمقاطعة ولا الحديث بغير إذن بقدر الامكان وكان المبدأ الثانى هو الحياد بحيث تتاح الفرص المتكافئة لكل التوجهات والمنظمات ولكنى كنت مضطرا لاستخدام هذا المبدأ فى إحداث توازنات بين الطفرات وتحييدها فكنت اتعمد اعطاء فرصة كاملة

ومبالغ فيها لأصحاب طفرة أو انحراف ما حتى يستنفروا جبهتهم ويستنفروا معارضيهم ثم اعطى مساحة متكافئة لأصحاب الطفرات المعارضة وكانوا هم كفيلون فى الأغلب بتحييدها وعندما يتحقق التوازن ونحيد الطفرات والنزوات والنزعات التنظيمية والمنهجية اعطى الفرصة للعناصر المستقلة والمعنية بأساس الأهداف الوطنية المتفق عليها وسلامة التنظيمات الخاصة بها وتأكيد مسئولياتها القيادية وفى كثير من المواقف كان يلزم توزيع سابق للادوار وتوضيح الركائز الواجب تكريسها وفى نهاية الساعات الطوال كان لابد وأن تتعالى الاصوات بالتأفف والحيرة والبلبلة التى تشل القرار . ولقد حبانى الله بذاكرة منهجية وبيان مسترسل كان أحد عناصر نجاحى فى المناصب على منابر بريطانيا والمنظمات العالمية واظننى تعلمته ونميته من خلال رئاستى لتشكيلات الحركة الوطنية ١٩٤٥ - ١٩٤٦ وكثيرا ما رددت هذا واعترفت بهذا الفضل على كثير من هذه المنابر الدولية مدعاة الاعجاب أو التوجس والاحتجاج إن من تعلم على أيدى مختلف الفرق السياسية المصرية يستطيع أن ينظم ويوجه أى تجمعات فكرية فى أى بقعة من بقاع العالم .

ولكان منطقيا بعد اشتداد الحيرة والبلبلة وجمود المواقف أن أقوم كرئيس للجنة بتلخيص القضـــايا والآراء التى طرحت على مدى الساعات ورغم إلتزامى بالأمانة إلى حد التذكرة بالجمل الأساسية التى

أدلى بها كل متكلم وتقدير قدر الاستجابة أو المعارضة لكل توجه فإن مجال تسلسل العرض وتصنيف الآراء والعودة إلى الركائز تسجيلا لموقف أو تذكيرا بالافتقار إلى موقف كان يعطى للتلخيص ايحاء منطقيا متسلسلا يقود إلى استنتاجات لا يبدو مندوحة عنها وأن لم أذكرها أو أذكيها .

وفي النهاية أبسط الاختيارات المحدودة وأبين السلبيات والايجابيات التي ذكرت بالنسبة لكلٍ وكان هذا مجال آخر للإيحاء وابراز الاختيار الاجدر بالاعتماد ولم يفتني من ختام التلخيص أن اسجل اعتراضات وتحفظات المعارضين لهذه الاختيارات وتأكيد احترام دوافعهم ورجاحة حجتهم وإن كنت قد سبق وبينت عدم ملاءمة اختيارهم وكان هذا الختام يعتبر طوق الانقاذ للمستفزين المنهكين كما طوق النجاة للمستقلين المخلصين الذين يخشون أن تجرفهم التيارات ذات النزعات الخاصة . وكنت دائما معتمدا على استجابة تأييد القطاع العمالي الذى كان يحيره التراشق اللفظي والمبارزة الخطابية بين تيارات الطلبة الحزبية فيما يبدو بعيدا عن صلب القضية ومتطلبات المرحلة ومن ثم فكانت ختام جلسات اللجنة أكثر فترات الجلسة هدوءا وانتظاما وحزما . وقد تفضل الأخ محمد عبد الحليم الرئيس المناوب للجنة عن العمال غالبا بالتنازل عن حق العمال لتناوب فى رئاستها إلا بعد محاولة واحدة مؤكدا أن العمال لا يهمهم المظاهر أو النزوع للزعامات ولكن انجاز

العمل والحفاظ على فاعلية اللجنة ووحدتها وأنهم يضعون ثقتهم فى كالكفاءة الأكثر خبرة وقدرة على تحقيق هذه الأهداف ولم يثن العمال صخب واحتجاج عنصرين شيوعيين بين ممثلى العمال على موقفهم حتى نهاية الأمر .

وكان اجتماع اللجنة أولا يتم فى كافتيريا كلية الطب ولما ظهرت ضرورة الاجتماع فى الليل لتمكين الأعضاء من مواقع عملهم المتباعدة للمشاركة ظهرت ضرورة البحث عن أماكن جديدة وحاولنا فكرة استضافة اللجنة بالتناوب بين مختلف المؤسسات ولكن ظهرت خطورة الانعكاسات الأمنية للاجتماع فى مقار المنظمات العمالية والنقابية وصعوبة تدبير اماكن الاجتماع بحكم عدم انتظام كل الاعضاء فى الحضور وانضمام اعضاء لمعاهد ومؤسسات لم تكن قد انتهت من اختيار مؤسسيها بحيث تعذر ابلاغ الاماكن المتفق عليها لكل من يعنيه الأمر خاصة وأن مواعيد اجتماع اللجنة لم تكن لها دورية ثابتة أما تمليها الاحداث والمتغيرات كما أن الاعتبارات الأمنية كانت موضع تخوفنا وكنت قد أشرت إلى أ . د. مصطفى عمر رئيس اتحاد طلبة كلية الطب وكان رئيس قسم له بناية منعزلة فى المساحة بين مبانى كلية الطب القديمة والقصر العينى القديم وكان كوكيل للكلية وأحد شخصياتها البارزة مستقلا فى ادارة قسم ومبانيه ولم يكن هناك مكان أصلح لاجتماعات اللجنة ولا يخضع للاغلاق فى أى

ساعة من ساعات النهار أو الليل وقدم الدكتور الصيدلى أحمد فرج المعيد بالمفاوضة غير المباشرة بينى وبين الدكتور مصطفى والتى تأتى عليها أننا سنجتمع فى قاعته الرحبة دون علم الدكتور مصطفى الرسمى إن الدكتور فرج سيتحمل مسئولية فتح القاعة وإنى سأتخذ الترتيبات مع حرس البوابة للتساهل فى دخول اعضاء اللجنة عن طريق وجود مندوب معهم يتعرف على شخصية الطلبة الداخلين لحضور الدراسات المسائية والحقيقة أن الابطال الوطنيين المجهولين الذين تعاونوا وتطوعوا وعرضوا أنفسهم لانجاح هذه المرحلة دون مزايدة سياسية أو مكاسب فئوية كان مدعاة للفخر والاعتزاز وإحترام المجتمع والبيئة الوطنية التى تكمن فيها كل هذه الدرر الخافية دون اعلان أو إشهار .. ومرة أخرى لم تظهر أى من التنظيمات المدعية الفاعلية والامكانيات على المشاركة فى حل أى من المشاكل العملية .

ومن الطبيعى أن عمال اللجان التنفيذية كانت تحت رقابة ومتابعة متصلة من البوليس السياسى والقسم المخصوص إضافة للمخابرات البريطانية ولكن التركيز المبالغ كان موجها للجنة الوطنية للعمال والطلبة. وبلغ هزل الرقابة أن المخبرين المكلفين بمتابعة تحركاتى توثقت علاقتهم ببواب منزلنا واشتركوا معه فى الوقوف لتحيتى عند خروجى ودخولى ثم يتبعوننى عند الخروج وكنت أحيانا لا اركب الترام إلا إذا وثقت أنهم قادرون على ركوبه .

وكان طبيعيا أني كنت متأكدا أن كل ما يحدث في اللجنة يصل إلى جهات الأمن وتأكدت من ذلك كما سيرد فيما بعد وكان شاغلي أن تعقيد مداولات اللجنة وتوازناتهم قد تفوق مقدرة المخبرين والمرشدين مما يعرضنا لمشاكل . ولم يكن متيسرا ولا مجديا حصر الشبهات إن كان بعض الاعضاء خاصة من العمال والتنظيمات المتمرسة لهم معرفة بأشخاص هذه الفئات ولكن كان معروفا أيضا الاستعانة بالاعضاء العاملين الجدد في اللجان . والحقيقة أنه بحكم علنية العمل وعلنية ممارستنا في الجبهة جاد منذ منشأها لم يمثل ذلك لي مصدر قلق رئيسي في هذه المرحلة وإن كان مصدر خطر واضح ونقطة ضعف قابلة للاستغلال في الطعنات القاتلة في مرحلة تالية لم نقدر خطورتها أو لم نكن نملك توقيها .

وقامت صعوبة شخصية رئيسية لي في هذه المرحلة ففي ديسمبر ١٩٤٦ كان ميعاد جلوسي لامتحان بكالوريوس كلية الطب ورغم نشاطي الوطني المكثف شغلتني آمالي الأكاديمية وطموحاتي وامتحان بكالوريوس الطب لا يعني فقط فرص النجاح والسقوط بل يعني أيضا أهمية بالغة لترتيب الناجحين لتأمين فرص استكمال الدراسات العليا والمناصب الجامعية . ومن الواضح أن ميعاد الإمتحان في ديسمبر ١٩٤٦ ، فزاحم انشغالي المذهل باعداد اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيري وانتخابات اللجان الوطنية .. ولعلي

استفدت من أحد مصاعبي الشخصية الذى أقلقت حياتى على طولها هو حالة أرق مزمن صاحبنى أرق منذ فجر شبابى بحيث أن حصولى على أربع أو خمس ساعات من النوم كان يعتبر حصيلة مرضية على طول اليوم ولم أكن متاح لى تناول الاقراص المنومة كما حدث بعد شيخوختى حتى لتأكيد هذه الحصة المحدودة من النوم . واتذكر بكل وضوح أيام أمضيتها بدون أى نوم فى مرحلة قمة الحركة الوطنية اكتوبر ٤٥ حتى نوفمبر ٤٦، ومع ذلك لم أدفع مستقبلى العلمى ثمنا للإلتزام الوطنى بفضل المساندة البالغة الكرم من زملائى من الوطنيين من الطلبة غير المشاركين فى العمل الوطنى وفى هذه السنة قامت بينى وبين أفراد دفعتى أول فجوة فى تاريخ علاقاتنا حتى أولئك الذين اشتركوا معى فى تأسيس جبهة جاد فقد زاد التركيز على الاستعداد للامتحان المصيرى وعدم المشاركة فى الحركة الوطنية أو حتى اضرابات الكلية وكنت أدخل لإخراجهم من المحاضرات واثق أن الاساتذة لن يضطهدونى لهذا السبب وفى مرة بعد هجوم اسماعيل صدقى على اللجنة أفلتت أعصابى فزجرت زملائى بالفاظ وصفات قاسية لتقاعسهم .

ومع ذلك فلم يكن من الممكن أن ادخل الامتحان إلا ببذل وتضحيات من زملائى تمثل أعز أرصدتى ونعم حياتى حتى يومنا هذا . فلم يكن مستطاعا أن أواظب على المحاضرات أو أكتبها ولم

يكن طبيعيا بعد يوم متصل من الارهاق لمتابعة العمل الوطنى وملاحقة الاجزاء العملية من برنامج الدراسة أن اركز التركيز المكثف الذى يعوضنى عن تشتيت الجهود تلقائيا نظم لى زملائى المساعدة والدعم فى يسر وسماحة وترحيب وحب ورجعت إلى زملاء شبرا من الاخوة الاقباط الذين يتجمعون فى منزل أحدهم للرباطات العائلية فيما بينهم وأعدوا باشراف الوالدة العطوف المقعد المريح والشراب الدافىء والسند الغذائى الخفيف فى أى ساعة من الليل أصل فيها ، حتى ساعات الصباح . كل ما كان على أن استلقى على المقعد المريح ويتولى كل منهم مطالعة متأنية ومنظمة لحصيلة من المحاضرات المقررة لصالحنا جميعا ولكن فى الحقيقة لاستفادتى الاساسية حيث أن كل منهم كان له مذكراته الذى يضيف منها أو يعدل ولم أكن أنا املك إلا الغليون والطباق والكبريت واستضافنى اثنان من أوائل الدفعة من غير هذه المجموعة فى منازلهم الفخمة فى الأيام التى كان عملى السياسى يسمح لى بالتفرغ وإقامة ودراسة ودعما كريما .

وكان أحدهما عضوا مؤسسا فى جبهة «جاد» لكنه انقطع عن العمل معها بعد أن خرجت من طابعها الدراسى إلى طابعها الجماهيرى وكان الآخر ذا ميول شيوعية تأكدت علاقاته بالتنظيمات الشيوعية إلى حد الاحتراف فى المرحلة التالية ، ولكن ثقتى أن

مساعدتهما ودعمهما كانت دوافعه التقدير الإنسانى والتعاطف الوطنى الذى غمرنى به الجميع فى هذه المرحلة والمرحلة السابقة لها ، وعلى أى حال فبمعجزة اجتزت الامتحان الأول واجتزت علوم الشق الثانى بعد ستة أشهر حسب نظام الكلية ماعدا علم واحد لم استطع توفير الوقت لتغطيته ، على هذا تأخر تخرجى ٦ أشهر حتى انخفض تقديرى العام نتيجة لهذا التأخير إلى مستوى جيد ولكنه على أى حال كان كافيا للسماح لى مستقبلا بالتقييد فى دراسات عليا .

وكان لهذا التوفيق الجزئى مدعاة للرضاء لعدة أسباب أولا أنه ازدادت قناعتى خلال هذه المرحلة أنه لا ضمان لمستقبل وظيفى لى فى مصر لأسباب سياسية وتوجهاتى الشخصية المبالغة فى الاستقلالية ومن ثم أصبحت المهنة الحرة الطب فى زمن زهوها ورواجها تأمينا معاشيا وحيدا لمستقبلى ، وثانيها أن التفكير والأسلوب العلمى أخذ على اهتمامى وأصبح هوايتى الرئيسية بما جعل إلحاح التعمق والتخصص العلمى أحد مشاغل حياتى وثالثها وإن لم يكن آخرها أهمية أنى بنجاحى أوفيت بتعهدى لوالدى الذى لم يكن مقتنعا بانغماساتى السياسية أن هذا الانغماس لن يقف عقبة فى طريق نجاحى المهنى . وفى الحقيقة إن قدرتى على الجهد المتواصل فى هذه المرحلة كانت ملاحظة من الجميع ، والحقيقة إن ثقل العمل الوطنى حتى حوادث كوبرى عباس فى فبراير ١٩٤٦ كان مرتكزا على

النشاط الطلابى المحدود حيث تعذر ببداية التحركات العمالية فى هذه المرحلة رغم بداية عملية التواصل والتعاون ، وقد بينت الدور الرئيسى الذى قام به المستقلون والشباب الوفدى فى هذه المرحلة وتدعيما للتوجه نحو توفير ضمان الاجماع الشعبى والاستقلالية عملنا على تعميق الوجود للمستقلين فى اللجنة التنفيذية ، ومن ثم استمر دفعنا لفؤاد محيى الدين الذى قدمناه للجنة التحضيرية ليشارك فى رئاسة اللجنة التنفيذية تأكيدا للدور القيادى للمستقلين بالمشاركة مع القيادة الوفدية التى كانت أكثر القيادات ثقلا فى الجامعة ولم تكن اختيارات المرحلة موضع دراسة ومسح لاجدى العناصر فلم تسمح بها الظروف وبعد الحوار مع حسن البنا تكثف مشاركة الأخوان المسلمين والذى لم ينقطع فى الحقيقة بدوافع عناصرهم الوطنية حتى فى مرحلة مقاطعة القيادة ، والحقيقة أنه حتى بعد الحوار مع المرشد العام فلا يبدو أن تحفظات وشكوك القيادة حول المنحى الجماهيرى المنطلق توقفت بل كل ما يمكن وصف المرحلة أن الضغوط على القاعدة الجماهيرية للاخوان المتعارضة مع نزعاتهم الوطنية خفت أو تلطفت مما سمح لهم بالمشاركة النشطة فى الإضرابات والمظاهرات بما فيها حوادث كوبرى العباس وكان منهم بعض المصابين وكذلك على مشاركة أعضاء منهم فى أعمال اللجان بما فيها اللجنة الوطنية للعمال والطلبة وأن لم يبد مؤكدا أن هذه المشاركة تربط يد القيادة بالالتزام بالقرارات

والخطط المشتركة التى يفترض أن الأخوان تمثلوا وشاركوا فى الاعداد لها ولم يبد هناك داعٍ لتصعيد الآمال فى تحويل توجهات القيادة وبدا لى أن التفاعل المخلص مع القاعدة الجماهيرية الاخوانية أجدى وأدعى وربما أكثر فاعلية .

وفى الحقيقة أن مظاهرات ومؤتمرات واجتماعات المرحلة الأخيرة من ١٩٤٥ وحتى أوائل فبراير ٤٦ اتسمت بالتلقائية الجماهيرية ونظرنا إليها كمحرك لقوى التنظيم الجماهيرى وتأكيد المشاركة المسئولية الشعبية وخلق قنوات تفاعل بين التيار الشعبى والتيارات المنظمة ثم أولا وقبل كل شئ مدرسة لصقل إمكانيات وتدعيم مصداقية القيادات الشعبية الوطنية وهى من هذا المنظور حققت الغرض منها والذى فاتنى فى هذه المرحلة أن الاندفاع والتفاعل الوطنى الذى تفشى بين شباب الاخوان سيكون أحد أهم أسباب انتكاسة قيادة الاخوان على اللجنة الوطنية والجبهة الشعبية يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ وحاولنا تدعيم اتصالات الحركة خارج نطاق القاهرة ولسنا توجها بين طلبة جامعة الاسكندرية ومعاهدها للرغبة في تكوين لجنة وطنية للعمال والطلبة على نمط موازٍ للجنة المركزية فى القاهرة وتمتعهم بحرية الحركة المستقلة ولكن المتناسقة مع الالتزام بالقرارات القومية ووجدت شخصيا مبررا منطقيا لهذا التوجه لصعوبة الاتصال والمتابعة على مستوى الأحداث اليومية ولضعف الامكانيات التنظيمية

للحركة ككل ومع ذلك كان هناك حضور مشترك بين الحين والحين وتشاور واتفاق فى المراحل المتأزمة بل واستفدنا من هذه اللامركزية عندما أحكم الحصار على اللجنة الوطنية العمال والطلبة فى القاهرة بعد أحداث ٤ مارس فى الاسكندرية .

والحقيقة أن هذا النمط التلقائى للتنظيم الاقليمى تحقق فى أغلب التجمعات الطلابية حتى التى لم يكن بها مؤسسات جامعية وحاولت جميعا الاتصال بالقيادة فى القاهرة وانتشر تعريف اعتقد أن مؤلفيه من طلبة كلية الطب المازحين أن اقامة اتصال بالحركة الوطنية فى منتهى اليسر فعليك أن تتوجه لحرم كلية الطب أمام باب الكافيتريا ستجد شابا أصلع يدخن الغليون دون انقطاع فإذا وجدت حوله حلقة من المتبارزين فى الكلام وهو صامت ومطرق الرأس مع هزها بما لا يحمل معنى الموافقة أو الاعتراض فأنت فى مواجهة رئيس اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ويمكنك الاشتراك فى الحلقة لو كان صوتكم أكثر علوا ، وقد أكد لى وافدون جدد فاعلية هذا الدليل ، ومع ذلك فكان أعضاء اللجنة التحضيرية والمؤتمر التحضيرى واللجنة التنفيذية والوطنية المنتجة كل منهم لهم اتصالاتهم الواسعة وتأثيراتهم واسهاماتهم الفعالة بل شارك فى هذا الجهد الكثير من بين المتطوعين الذين لم يكونوا على صلة حقيقية بالتشكيلات وكان لاجتهاداتهم آثارها الإيجابية فى نشر الحركة وتطعيمها بالتجديدات والتنوعات

وهو ما لم أجد فيه غضاضة وعارضت المعترضين عليه ، إذ كان علينا موضوعيا أن نعترف أن قدراتنا التنظيمية تقصر عن أن تحيط بمتطلبات الحركة وإمكانياتها وأنه رغم فضل مبادراتنا فإن الطبيعة التلقائية هى الصفة المقطوع بغلبتها وإنها فى نهاية المطاف هى موقع الرجاء والأمل ولم يشغلنى التوجس من غلبة الطابع التلقائى والدوافع الذاتية قد تقود إلى تحول الحركة عن مقاصدها أو انفلات مسارها لأن الممارسة أكدت لى باليقين صدق الاحساس الجماهيرى الوطنى وسلامة سليقتها وإنه الضمان الأكثر مصداقية وأكد ظنى حماس والتزام واقدام العناصر الجديدة الوافدة التى لم يكن لنا أو لأى فى تشكيل آخر فضل فى تعبئتها أو حفزها .

وفى أوائل سنة ١٩٤٦ يناير وفبراير بدأ ضغط الرأى العام يؤثر على موقف القيادة الوفدية والتى استقرت على تقرير حقها فى تولى المفاوضة بحكم توكيلاتها الشعبية وإنكار حق حكومات الأقليات فى ذلك وبدأ الوفد يلمح بانتقاله إلى موقف الاستقلال والجلاء غير المعلق على قبول الانجليز من خلال مفاوضات تضع شروطا أو قيودا على تحقيق الاستقلال والجلاء ، وبدأ الوفد يعتمد مبدأ الكفاح والجهاد وسيلة تحقيق الأهداف الوطنية بديلا للمفاوضات ، ومن ثم اقترب من موقف ومطالب الجبهة الشعبية التى مثلتها اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، واستمرت التنظيمات الشيوعية المشمولة بالقبول من طليعة الشباب

الوفدى المرتكز فى جريدة الوفد المصرى على ضرورة ضرب قواعد الاستغلال الاقتصادى والاجتماعى متمثلا فى الاحتلال البريطانى وعملائه من الاقطاعية الزراعية والرأسمالية ولكن أطروحة الجبهة الشعبية كان لها الكسب وأشمل القبول فى صفوف الجماهير من حيث أولية التركيز على استئصال شأفة الاحتلال والاستعمار كهدم لأسس الكبت الوطنى والسياسى والاستغلال الاقتصادى والاجتماعى ورفض فتح معارك جانبية مشتتة للوحدة الوطنية وقاومنا من منطلق أن الكفاح الوطنى هو بوتقة الاختبار للصلابة والالتزام الوطني لكل الأفراد الفئات وتحدد الجبهة الشعبية موقفها من كل فرد أو تنظيم فى ضوء أمانة الانتظام فى الصف الوطنى وليس على أساس تعميمات نظرية مسبقة تعكس توجهات مذهبية أو ثأر حزبى . إن التحرر الوطنى هو الخطوة الأولى الضرورية والحاسمة على طريق طويل للاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى له تشكيلاته واستراتيجيته وله جداول مواعيده التالية وإن الخلط فى هذه المرحلة هو مغامرة صبيانية غير محسوبة على افتراض عدم الدراسة وحسن النوايا وأن التيارات السياسية ليس فقط مسموحا لها بل مطلوبا منها طرح رؤياها السياسية والاقتصادية لتوسيع قواعدها الجماهيرية خدمة للأهداف الوطنية ، وكان موقف مصر الفتاة مدعاة للحيرة وعدم الاطمئنان كشأنهم على مدى تاريخهم فقد تفاهموا مع الوفد على

المطالبة بالغاء الأحكام العرفية وإجراء انتخابات محايدة واتخاذ قرار بالجلاء واعتبار ملك مصر هو ملك مصر والسودان فى ظل وطنية وجنسية مشتركة والاحتكام إلى المجالس الدولية لشجب اغتصاب بريطانيا للحقوق والسيادة المصرية ولم يدم هذا التفاهم طويلا وكيفما كانت التفاوتات والمناورات فقد تحقق انجازا مبهرا وتاريخيا فى الاجماع وراء الأهداف الأساسية للجبهة الشعبية فى مجابهة حكومة عاجزة ومعلق مصيرها بقبول الانجليز التفاوض معها ، ومن ثم فقد أسهمت كل الجماهير بل والقيادات المختلفة تلقائيا وبالتجاوب مع حس الشارع الوطنى فى إرساء الأسس السياسية والجماهيرية لسيادة مفهوم الجبهة الشعبية الوطنية حتى وإن لم تفصح صراحة أو ترتبط بمواثيق تسجل بها ذلك ومن ثم واجهنا تعبيرا آخر على قدرة الشارع الوطنى لبناء أسس جبهات الشعبية من القاعدة وليس من القمة وفرض أهدافها ومبادئها على إيقاع الشارع الوطنى ، وهو الانجاز الذى لم يلق العناية الكافية والاشادة المناسبة لمن تعرض لتحليل الأحداث والتطورات من منطلق المراجع المغلوطة أو شهادة من كانوا بعيدين عن بؤرة الأحداث ولم يمارسوا مسئولية تعبئتها ومعايشتها فى كل خطواتها وتطوراتها .

واشتعل الموقف من تخاذل موقف الحكومة المصرية وتعنت الموقف البريطانى والذى أعلن فى ٢٦ يناير ١٩٤٦ والذى أصر فيه

البريطانيون على عدائهم وكانت مذكرة حكومة النقراشي قد قدمت في ٢٠ ديسمبر إلى بريطانيا بشكل سرى بعد تصاعد الهجوم على تخاذل الحكومة وعجزها ونحت المذكرة منحى توفيقى مخالف لأهداف وقناعات الجبهة الشعبية حيث ركزت على تبرير المطالبة بإعادة النظر في معاهدة ١٩٣٦ بقيام مصر بمسئولياتها والتزاماتها قبل حلفائها في زمن الحرب وإن وجود الاحتلال بعد الانتصار فيه استثارة للرأى العام مما يستدعى تقوية القوات المصرية لصد العدوان حتى تصل إليها امدادات حلفائها وإمدادات الأمم المتحدة في ظل علاقة مصرية بريطانية مستقرة على أساس من «التحالف والصداقة الخالصة » ومن ثم فقد أقرت بمسئولية بريطانيا النهائية عن الأمن المصرى والتزام مصر التعاقدى بأحكام هذه المسئولية والتسليم التام بمبدأ التفاوض لتعديل الارتباط التعاهدى لسنة ١٩٤٦ والحقيقة أن الرد البريطانى الذى نشر ومعه المذكرة المصرية في يناير ٢٦ ادعى أن المبادئ والأساس لمعاهدة ١٩٣٦ سليمة في جوهرها وأن بريطانيا إنما تهدف إلى دعم هذا الارتباط والتعاون الوثيق الذى حققته مصر ومجموعة الأم البريطانية الامبراطورية في أثناء الحرب ، ومن ثم فقد وضح إصرار بريطانيا على امتداد التبعية والقيود على الاستقلال وتمسكها بمواقعها المكتسبة المفروضة على الاستقلال والسيادة الوطنية .

وكان ذلك الموقف الحكومى البريطانى الاستفزازى والمتحدى حافزا على الانطلاق من أغلال البلبلة والقنوط التى كبلت الحركة الوطنية فى المرحلة الأخيرة من الحرب وبداية موجة رائعة داعية للفخر والاعتزاز من الانطلاق الشعبى والتحرك الجماهيرى الذى اجتاح تياره الجارف كل التيارات والقيادات التقليدية وفرض عليها وصاية ورقابة جماهيرية قاعدية تلقائية كنا نحلم بها على مدى سنوات ومنها جاء رد الوفد بالدعوة للجهاد ومواقف التيارات الوطنية التى سبق توضيحها فأعلن الوفد بطلان معاهدة ١٩٣٦ التى عقدها سابقا تجاوبا مع مطالب الجبهة الشعبية المتقدة واشتعلت كل التجمعات الوطنية والحملة الصحفية والسياسية على الحكومة وبريطانيا وتوارت فلول أحزاب المعارضة عجزا وقهرا وإفلاسا .

وانبثق حلفاء جدد للجنة الوطنية للعمال والطلبة بدوافعها ومبادراتهم التلقائية الذاتية وسارعنا للتعلق بتطورات الانفجار لتوثيق الاتصال والتكامل مع هذه المنابر الوطنية فأصدرت الجمعية العمومية للمحامين بيانا وطنيا واتحاد خريجى الجامعة وجميع التنظيمات السياسية غير الحكومية اليسارية واليمينية اصرارا على تحقيق الاستقلال والجلاء الفورى دون شروط أو بنود مفاوضات أو تعاقدات والوحدة مع السودان والتخلص من النفوذ البريطانى فى كل المواقع الحكومية والبوليس والقوات المسلحة والاقتصاد واسترداد

السيادة على قناة السويس والتعليم والإلغاء الفورى للامتيازات الأجنبية وتدعيم العلاقات الدولية المصرية كشريك حر مستقل .

وعلى هذا ترجمت القاعدة الشعبية المطالب الوطنية التى التزمتها الجبهة الشعبية بمبادرات تلقائية ذاتية دون محاولة أو توفر امكانيات لنا لنشر الدعوة والحفز على الالتزام بها وثبت صدق احساسنا الوطنى باننا بادرنا منذ أكثر من سنة بالتخطيط والعمل فى إطار تقييم وتوقعات صادقة ودقيقة بنبض الشارع الوطنى .

وبمجرد انتهاء عطلة نصف السنة فى الجامعات قررنا فى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة تكثيف التحرك الطلابى تمهيدا لتكثيف التحرك الجماهيرى واعتمدنا على اللجنة التنفيذية العليا للطلبة فى هذه المبادرة القوية للتحرك الطلابى ، وبالفعل ففى اجتماع لهذه اللجنة كان من أكبرها وأشدها تمثيلا لكل الكليات والمعاهد والمدارس تقرر عقد مؤتمرات عامة للطلبة فى كل المواقع الطلابية ، وكان كثير من حلقاتنا الضعيفة قد تدعمت وقويت بمبادرات تلقائية مثل اعتصام طلبة الأزهر الذى كنا نترقب ونسعى إليه وزاد ورود الممثلين فى كثافة من المعاهد والمدارس بالأقاليم لتدعيم اتصالهم ومشاركتهم للقيادات المركزية وتعهدهم باسم معاهدهم وإقاليمهم ومدنهم بالمشاركة فى كل تحرك وطنى وتحمل كامل المسئولية والتضحيات مع اخوانهم فى كل أنحاء مصر وعمت المظاهرات والاضرابات كل التجمعات

الجماهيرية سابقة للمؤتمرات التى دعت إليها اللجنة الوطنية للعمال والطلبة واللجنة التنفيذية العليا للطلبة وشارك فى الرفض الحزب الوطنى ومصر الفتاة وأصدر الاخوان المسلمون رفضا وتمسكا بالاستقلال والدعوة للصمود وإن لم يعارضوا مثل التيارات الأخرى مبدأ التفاوض واعتبرت هذه الخطوة على أى حال خطوة تأكيدية لفاعلية العناصر الوطنية والضغط الجماهيرى العام فى الإخوان والتى ساعدتنى على وضع اللبنة الأولى فى مشاركة الأخوان أو على الأقل عدم معاداتهم لتحركات الجبهة الشعبية . وتحقق اسهام الاحزاب والتنظيمات الفاعلية .

وكان تنظيم تحرك ٩ فبراير منه شقا معلنا وشقا غير معلن وإن كان متوقعا علم قوات الأمن به . وكان الشق المعلن هو عقد مؤتمرين رئيسيين ومؤتمرات فرعية متعددة تشجب توجهات المفاوضة والمساومة على الحقوق الوطنية باعتبارها خيانة وخروجا عن صف الجبهة الشعبية الوطنية والغاء معاهدة ١٩٣٦ وإتفاقية ١٨٨٩ المتعلقة بالتنازلات المصرية فى السودان للاحتلال البريطانى وعدم الاعتراف بوكالة أى قوى سياسية متخاذلة ومتواطئة عن الحركة الوطنية ، وإرساء أسس حكم دستورى شعبى تكون له المسئولية المنفردة عن تقرير المصير الوطنى ورقابة حمايته ، وكان المؤتمر الأكبر يفترض عقده فى مقر الجامعة فى الجيزة والثانية فى كلية طب القصر العينى وكان الترتيب

غير المعلن أن مؤتمرات أخرى ستعقد فى كل المواقع الطلابية وأنها جميعا ستقوم لقيادة العناصر الوطنية الملتزمة بالتوجه نحو ساحة عابدين لإطلاق تجمع طلابى عملاق إعلانا عن مولد وسطوة التحرك الشعبى العملاق مفترضين انضمام عناصر شعبية كبيرة من كل الفئات على الطريق بعد تحرك الأحزاب والتنظيمات .

ولم أشترك أنا فى مؤتمر الجامعة بالجيزة وإن كان جمهرة من أعضاء اللجان التنفيذية لكلية الطب توجهت للمشاركة فى حين بقى البعض لتنظيم مؤتمر فى استقبال جموع الطلبة الوافدة من المدارس والمعاهد القريبة رغم الحشود البوليسية المكثفة التى وجدت منذ الصباح الباكر بقيادة الضباط الإنجليز العاملين فى الشرطة ولضمان نجاح الهدف من اطلاق هذا التجمع العملاق اتفق بأن تتولى اللجان التنفيذية المحافظة على النظام وتحديد المسار والدعوة للامتناع عن تحطيم وسائل المواصلات ووسائل الإنارة وهى ممارسات كانت شائعة فى هذه المرحلة كما اتفق على عدم مهاجمة قوات الأمن إلا دفاعا عن النفس .

ولم يعترض عقد مؤتمر كلية الطب عوائق رئيسية إلا منع قوات الأمن بعض مظاهرات الطلبة الخارجين من الوصول إلى الكلية فى مواقع الاعتراض المختلفة التى غطت كل الميادين والتقاطعات ومقاومة لخروج الطلبة للتوجه لساحة عابدين بما يتأتى عليه بعض المصادمات .

أما مؤتمر الجامعة والذى صادف نفس الصعوبات فقد خرجت منه أيضا مظاهرة عملاقة من تجمعات الجامعة ثم ميدان الجيزة لعبور كوبرى عباس ولم يكن كوبرى الجامعة قد انشىء بعد فى طريقها إلى ساحة عابدين المستهدفة والتي توافد عليها مظاهرات من مختلف الجهات وما أن توسطت المظاهرة كوبرى عباس حتى تم فتح الكوبرى بأوامر الضباط الانجليز وبادرت القوات بالهجوم على الطلبة من جميع الاتجاهات وبطريقة وحشية ودموية ، ولما كان الضحايا من القتلى والجرحى قد نقلوا إلى القصر العينى فقد أمكننا تقدير الاصابات بحوالى أكثر مائة من الطلبة وثلاثين من البوليس وغطت أنباء المذبحة على المصادمات الكثيرة التى عمت أرجاء مصر حتى بلغت المنصورة ٧ طلاب و ٣ من البوليس واسوان تم اعتقال أعداد من الطلبة وكذلك كان الحال فى أحياء القاهرة والاسكندرية . وكان تصعيد الحركة الشعبية الدموى هذا شهادة ميلاد لأكبر تحرك شعبى تلقائى شامل كما أكد لى مراسلو الصحف الأجنبية فى أى ناحية من نواحى العالم .

وكان أول الآثار المباشرة لمذبحة كوبرى عباس أن انتشرت نشاطات تكوين اللجان التنفيذية والوطنية انتشار اللهيب فى كل أنحاء مصر واجتاحنا طوفان من الاتصال والتأييد والدعم والمشاركة لم نكن مستعدين له ولا مؤهلين بالإمكانيات لاستيعابه ومن ثم أصبح شغلنا الشاغل على مدى ٢٤ ساعة فى اليوم ملاحقته والإبقاء على التواصل

معه بكل الوسائل التنظيمية والشخصية المباشرة وغير المباشرة ، وفى أيام استكمل تشكيل كل المستويات حتى قامت اشكالية بالتأكد من صدق تمثيل جحافل الممثلين الوافدين لمواقعهم ومدنهم حتى اصطلحنا على اعتبار أن شهادة التأهيل هى قيام تحرك جماهيرى فعال يثبت صدق التمثيل وكفاءة القدرة القيادية .

وكان تأثير هذه النقلة التاريخية التى عززت موقف التنظيمات النقابية من التحرك الجماهيرى كذلك رجل الشارع فابتداء من أحداث كوبرى عباس اجتاح تيار المشاركة الفعالة وتحمل العبء الرئيسى للكفاح الوطنى صفوف العمال وقياداتهم بل وممثل المثقفين فى روابط الموظفين وخريجى الجامعات والتجمعات المهنية والتجارية والحرفيين وضج الشارع بحيث اصبحت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة هى البؤرة الحقيقية لالتقاء جبهة شعبية معبأة ومتحفزة وأصبح ميدان المواجهة هى كل مواقع وشوارع ومصانع ومكاتب وميادين مصر وحتى ريفها وليس أفنية الجامعات والكليات وانفجر حجم اللجان التنفيذية واللجان الشعبية للجنة الوطنية للعمال والطلبة وانتظم انعقادها وتركز اهتمامها وتأكد عزمها وصلابتها واظن أن هذه كانت أعز وأمجد أيام حياتى كلها .

وبادرنا فى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة لأخذ المبادرة للطرق على الحديد الساخن وأعلنا يوم ٢١ فبراير يوم اضراب وطنى شامل لكل

فئات الأمة وعمالها وموظفيها وتجارها ومواطنيها وطلابها تحت عنوان يوم الجلاء .

يوم الجلاء ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦

«هذه هى مصر رائدة الأصالة والتحرر الوطنى على المستوى العالمى وليس من يزيفون» كان يوم الجلاء ٢١ فبراير ١٩٤٦ حسب تأكيد الملاحظين الأجانب والمراسلين الصحفيين الأجانب الذين لاحقونى بعده للاجتماع بى كما سيرد يوما فريدا ومشهودا وحادث لا مثيل له على الصعيد العالمى حيث خربت أمة بكاملها بما فيها معاهدها ومواصلاتها ومحلاتها ومصانعها ومكاتبها وكل النشاطات العامة والخاصة تلقائيا وعفويا استجابة لنداء أصدرته قيادة مجهولة وغير معروفة ولم يسبق امتحانها وبدون وجود صلة أو اتصال لها باغلب المواقع أو التجمعات وبدون وضوح مقاصدها وأهدافها أو ثبوت كفاءتها وجدارتها . ولم يشذ عن الصف تجمع أو تيار حتى العناصر المأجورة اختفت وانزوت إلى حد أن مندوب إحدى الوكالات الأمريكية للأنباء بادر فى المؤتمر الصحفى الذى نظموه لى فى جروبى فى نهاية هذا اليوم الخالد بأول سؤال «هل قررتم الاستيلاء على الحكم وماذا تنوون فى تقرير مصير نظام الحكم وهل تنوون المقاومة المسلحة ضد القاعدة البريطانية ولتبدأ القصة من بدايتها فبعد أحداث كوبرى عباس واشتعال الشارع الوطنى وإجماعه وإنتشار تحركه التلقائى نحو تنظيم

صفوفه تغيرت المعادلة السياسية تغيرا كاملا . فقد واجهت الحكومة الجنازة العامة التى نظمناها تلقائيا يوم ١٢ فبراير وحركات الاعتصام التى شملت المعاهد والروابط واللجان الحزبية والمظاهرات التى انتشرت فى كل أنحاء مصر بتكثيف استخدام القوة فى الفض والاعتقال والاعتداء على كثير من الأقاليم المتاخمة للقاهرة والاسكندرية التى قامت فيها مظاهرة ضخمة واعتقالات كبيرة وكذلك الازهر واتحاد خريجى الجامعة الذى انضم إلى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة واتخذنا قرارا مبدئيا بتطوير اسم اللجنة إلى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة والموظفين ولكننا ارجأنا اشهاره حتى لا نصيب الجماهير ببلبلة على بلبلة وحدثت مصادمات عنيفة واعتقالات واسعة من كلية طب القصر العينى من طلابها وطلاب المعاهد المحيطة فى أثناء انعقاد اللجنة الوطنية داخلها وخشينا احتمال اقتحام البوليس للكلية واخذت أترقب الترتيبات لانتشار أعضاء اللجنة فى صفوف الموظفين والمرضى . رغم أن المستشفى كان يموج بالمصابين من أحداث كوبرى عباس والمصادمات التالية فى كل أنحاء القاهرة والأقاليم وأهاليهم بحيث انعدم الحكم فى أى من المواقع فيما عدا اخطار حصار البوليس الخارجى وتتالت أخبار المصادمات والاعتقالات مع المندوبين من الاسكندرية والمنصورة وطنطا والزقازيق والمحلة الكبرى وبور سعيد وشبين الكوم واسيوط حتى تعذر متابعة الاتصال أو تامينه مع كل هذه المراكز التلقائية للتحرك الشعبى وظهرت

حتمية الاعتماد على وسائل النشر من الصحافة للإبقاء على قدر من التواصل وكانت قرارات اللجنة الوطنية للعمال والطلبة واللجنة التنفيذية العليا تنشرها صحافة المعارضة الوفدية ولكنها معرضة للمصادرة ومنع النشر وقد شددت الحكومة حملتها تلك ، كذلك حملتها لاعتقال القيادات تحت قانون منع التظاهر والتحريض الذى كان سائدا فى ظل الاحكام العسكرية التى حكمت مصر طوال سنوت الحرب العالمية الستة وكان التوجه أن يستمر تصعيد المظاهرات والمؤتمرات حتى قمة التحرك فى ٢١ فبراير يوم الجلاء والاضراب الوطنى الشامل ونزول جحافل القوى الشعبية للشارع الوطنى لا فرق أو فاصل بين مواطن وطالب وعامل وتاجر وفلاح وموظف .

وابتدأت التجمعات العمالية ولكن نصيحتى كانت تفادى المواجهة الضيقة حتى يأتى يوم الفصل يوم ٢١ فبراير وقد اتفق معى رؤساء النقابات بأن الغرض المرحلى هو الحشد والتوعية وقد اشـــتركت فى اجتماعات مصغرة مع القيادات النقابية فى مواقـع مختلفة وافعمنى وعيهم والتزامهم الوطنى وحماسهم الوطنى مما بعث فى نفسى الاطمئنان والثقة وطالبنا كل الاحـزاب والتنظيمات كيفما كان توجهها أن تكثف جهودها للإعداد للحشد الشعبى الشامل يوم الجلاء المرتقب .

وكانت علاقتنا بوسائل النشر الصحفية الكبيرة غير مستقرة فكانت الاهرام تنشر أو تشير إلى قراراتنا فى مراحل الاشتعال وتغفلها فى مراحل الهدوء وكانت الاخبار الجديدة لاصحابها على ومصطفى أمين تتخذ موقفا مائعا فهى داعية للملك العامل الأول والفلاح الأول والمواطن الأول والوطنى الذى دافع عن كرامة الوطن فى حصار البريطانى للسراى فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ومبررة لمبادرات الحكومة المتخاذلة لإحياء المفاوضات .

وذهبت فى وفد من الطلبة والعمال لمقابلة الجميل باشا رئيس تحرير الاهرام وفهم هو اصطحابى لهذا التجمع من العمال والطلبة أنه شكل من أشكال الاشعار بالقوة وإن شاء التهديد وطلبت منه النقل الدقيق للأخبار والقرارات وكنت قد قابلته بمفردى قبل أحداث كوبرى عباس شارحا وراجيا والحقيقة أنه قابلنى ببشاشة وتقدير واطلعنى على القرارات الحكومية بالحظر والتهديد بالمصادرة ومنع النشر واكد لى رغبته فى نقل صورة صادقة للأحداث ولكنه برقة بين لى سهولة نشر أخبار الطلبة ومخاطرة نشر قرارات وأخبار العمال والموظفين وتم الاتفاق على ارسال مندوبين بالقرارات له شخصيا واستمر العمل فى ظل هذا التفاهم مع زيارات دورية حتى هجوم اسماعيل صدقى وانشاؤه للجنة القومية كبديل كوميدى للجنة الوطنية برئاسة على ماهر لتولى قيادة الحركة الوطنية وعندئذ لم ينفع التهديد بوفد من عمال شبرا

الخيمة لإقناعه بالمخاطـرة بتناسى القانون الذى أصدره اسماعيل صدقى بالسجن خمس سنوات على جريمة التحريض وإقلاق الأمر العام .

وقابلت على ومصطفى أمين وتولى على أمين فى مكتبه الحوار معى وأبدى تعاطفه كجيل الشباب مع نشاطنا وتوجهاتنا الوطنية وأبدى ترحيبه بأن أكتب بشكل منتظم فى جريدته وأن يقدم لى كل التسهيلات الممكنة وركز على التحذير من انفراط عقد الجبهة القومية وإن مهاجمة السراى والطبقات العليا التى ينزع إليها عناصر يسارية متطرفة قد تؤدى إلى مخاطر كبيرة فى هذا الاتجاه وأكد عليه بأن التوجه الرئيسى الذى أمثله من الالتزام بالأهداف الوطنية المشتركة هو الأدعى بالدعم والمساعدة وإن هذا هو سبب دعوته لى بالكتابة . وحذر أن ثمن المحافظة على وحدة صف الطلاب لا يقود إلى تغطية الانحراف والتطرف ومنها رفض حق الحكومة فى المفاوضة وفرض النتائج قبل بدء الحوار باعتباره غير واقعى . واكدت له أنى لا أملك الوقت للكتابة وإنى بالكاد أجد الوقت للأكل وإنى لست زعيما يملى رأيه على تابعيه ولكنى منظم للمشاركة والتفاعل وإنه لا خطر من انحراف التحرك الشعبى إلى نزعات مذهبية متطرفة إلى غباء الحكومة أو تواطئها وخيانتها وأن أحداث كوبرى عباس اكبر مصداق على سلامة تحليلى وكذلك تهالك المذكرة المقدمة من الحكومة لبريطانيا وصلف الرد البريطانى ودعوته لدعم

وخدمة البنـاء الوطنـى وتأكيد أهدافه كضمان لسلامة ووقاية جماعة الحكومة والسراى من الغباء والانحراف ولم استطع أن أخرج منه بتعهد بالمساندة إلا النيات الحسنة والحوار غير المتبلور والترحيب غير الملزم بالتعاون .

وتم اتصال عـاجل بى من مـدير الجـيزة (محـافظ) على أن أقابله فى مكتب حسـن رفعت باشا وكيل وزارة الداخلـية ، وحسـن رفعت باشا كان معروفا للعالمين ببواطـن الامـور أنـه الـذى يقبض بقبضة مـن حـديد على أجهزة الامـن المصرية وأنـه نقطـة التقـاء ارادة السـراى والانجلـيز والحكـومة ، وتوجـهـت للقـائه وأخـذت انطبـاعا قـويا أنه رجل من طـراز فـذ شـامل الاطـلاع وعميق الخبرة فـى مجـال تخصصـه ولم يبـادرنى بالأسلوب البوليسى باتهام أو سؤال عن اتجاهاتى السـياسية كما حـدث من المرحـوم شـعراوى جمعة نظيره فى السلطة بعد هزيمة ١٩٦٧ حينما اسـتدعيت تقـديرا لخـبراتى وسـعيا للاستـفادة بأفكارى وانتهت المقابلة بتعـذر ايجاد لغة مشتركة حتى للخلاف كما سيرد فى الجـزء الثانى من هذه المذكرات ولكنه أعطانى الانطباع فى كلمات معـدودة أنه يعـرف كل ما يلزم معرفته عنى وعن نشـاطى وأنـه لا يقصد التوجيـه أو التهـديد ولكن خطـورة الموقف تستدعى ضرورة المام كل مشترك فى الاحـداث بحقـائق الواقع ومخاطره .

وكان فى مكتبه الاميرال فيتنرياتريك الحكمدار الإنجليزى للقاهرة ويخجلنى أن انفعالى الوطنى تمادى إلى ارتكابى لفعل صبيانى لا اظنه يتناسب مع مسئولياتى فى هذه المرحلة فقد تعمدت أن أدير مقعدى وأضع رجلا على رجل ليكون نعل حذائى فى وجه فيتنرياتريك مع هز قدمى كلما نظر نحوى لتأكيد تعمدى وضع النعل فى مواجهته . ولم يستجب الرجل لهذا الاستفزاز ولا بدا أن حسن رفعت باشا كان يريد ان يلاحظه أو يعلق عليه . وكان رجلاً هادئا متزنا يشع اعتدادا بالنفس وبقدراته وسلطاته التى ليست فى حاجة الى استعراض أو تأكيد . وكان الغرض من الاستدعاء مباشرا وفى كلمات واضحة ومحددة ان الدعوة لتحرك قومى شامل وإضراب وطنى يضم كل الفئات والطبقات يدخل بنشاط اللجنة الوطنية للعمال والطلبة واللجنة التنفيذية العليا للطلبة ومنظمات الموظفين التى تعمل على ضمها فى مستوى ومجال مختلف عن سابق تقاليد الحركة الطلابية مما قد لا نقدر خطورة انفلات قيادته بين أيدينا ، ويضعنا على طريق المواجهة مع النظام بكل مكوناته وطريق المواجهة مع قوات الاحتلال ولا يمكن حساب مخاطر كل منهما . وسواء قصدنا ذلك ام لم نقصده فقد نقلنا الحركة من مرحلة التعبئة لمساندة الجهود المسئولة للنظام بمكوناته فى مواجهة الانجليز فى مفاوضات سياسية إلى مرحلة احتكار حق املاء الشروط على الجميع تحت تهديد الصدام والفوضى ، وان

اشتراك العمال والموظفين وسائر الفئات غير الطلابية فيما يسمى بالجبهة الشعبية المحتكرة للمسئولية يضع القضية فى ضوء جديد ليس مجرد الخلاف السياسى ولكن فى ضوء حماية أمن الدولة وسلامتها الذى لابد وأن يرقى فوق كل اعتبار وتقدير.

وكان ردى عليه بنفس الاختصار والتركيز فذكرته انه يعرف حقيقة دورى كداعٍ للوحدة الشعبية ومنظم لصفوفها وليس كطامع فى زعامة أو مغتصب لقيادة . ويعرف كذلك ان هدف الجبهة الشعبية ليس اغتصاب سلطة او ادوار من الدولة بكل مكوناتها بما فيها المعارضة ولكن تدعيم موقف كل مسئول وطنى يمكنه التعرض لتحقيق الاهداف القومية والتى لن يحققها مذكرة من حكومة أو حزب وان برنامجنا يخرج الأولويات القومية من سوق المساومة وكل قيادة تلتزم معنا على إخراج الاستقلال والجلاء وممارسة حقوق السيادة الوطنية الكاملة ستجد منا كل عون وتدعيم وحماية مما يدعم وزنها وتأثيرها فى المواجهة مع بريطانيا.

وأشرت له ان الخوف من تعرض أمن الدولة واستقرارها للمخاطر يجب أن يوجه إلى سوء التقدير والجريمة والوحشية التى تستفز القوى الوطنية كما حدث فى مذبحة كوبرى عباس مشيرا إلى فيتنرباتريك وأنه لى أن أعبر عن رغبة كل مكونات الجبهة متمثلة فى اللجنة الوطنية للعمال او الطلبة بكل تحالفاتها على الاتفاق والالتزام بنظام تتولى

مسئولية تنفيذه يسمح للجماهير صاحبة المصلحة بالتعبير عن أهدافها ومطالبها ويحمى أمن وسلامة الوطن من كل سوء . وتصورت ان سعادته يعلم أنه ليس هناك اى قوة سياسية تستطيع حرمان الشعب من مشاركته وان القهر البوليسى مثل كوبرى عباس سيأتى بنتائج عكسية تدعم انفلات الحركة والانفجار وتعريض سلامة الدولة وامن الوطن . وأكدت أنه بالقدر المحدود الذى تقدر بعض مكونات الجبهة إخلاصى ورأيى فأنا مستعد شخصيا للمشاركة فى تحمل مسئولية أحكام التنظيم والرقابة على صفوف تحركاتنا يوم ٢١ فبراير رغم ان سعادته يعلم ان عناصر الانفلات يتعذر على أى قوة استئصالها ، ولكنى ادعيت أننا باسم المحافظة على سلامة الجبهة أقدر القوى على حصارها وتحييد فاعليتها وعلى اى حال فإنى سأكون رسولا أمينا فى نقل وجهات نظر الحكومة الى كل أطراف اللجنة الوطنية وسأتيح الفرصة كاملة لكل التوجهات لاستنفاد فرص التأثير فى التوجه العام واظن ان الجميع يشهدون لى بالأمانة فى ذلك بما فيها احزاب الحكومة، وكرر بهدوء دون انفعال المحظورات ورأى التحذير منها وهى التحرك الجماهيرى المفتوح الشامل وادخال المرافق العامة والخدمات الأساسية فى مجالات النشاط وجرف التجمعات الخاصة مثل الطلاب فى فوضى التحرك الجماهيرى المفتوح الشامل وتعريض أمن الدولة وسلامة الوطن للمخاطر واستفزاز المجابهة الدموية مع قوة الاحتلال ،

أكد ان الدعوة للنزول الجماهيرى المفتوح للشارع ووقف المرافق هى أخطر الاضرابات ورأى أن اجتماعات مغلقة فى مواقع محدودة هو أقصى ما يمكن تحمله من مخاطر.

وتم التفاهم ولا أقول الاتفاق على أن أنقل الرسالة إلى اللجان ممثلى الفئات بأمانة ودقة وأن أعرض على سعادته تصورى لاجراءات التأمين والرقابة التى يمكن للجان مباشرتها فى اطار تخطيط واضح للتحركات والمسارات اذا تعذر العدول عنها واختتم سعادته المقابلة بتأكيد ثقته هو شخصيا فى صدق دوافعى الوطنية واتزان وتعقل اتجهاتى وادعى امله الكبير فى تأثيرى وتوجيهى للفئات المشتركة التى عبر عن ثقتها فىّ بوضعى فى موضع القيادة منذ اللجنة التحضيرية فى اكتوبر من العام الماضى ، وأكدت لسيادته مرة أخرى ان هذه الثقة لا تخرج عن أمانتى وثقة فى التزامى فى عكس توجهات ونزعات الجميع والسعى المخلص للتوفيق بينها.

وقد قمت فعلا بنقل تفاصيل الحوار بكل ما امكننى من امانة ودقة وانتهزت العناصر المحدودة المؤيدة للحكومة الفرصة فى شرح المخاطر بل والمبالغة فيها إلى حد أن اقتراحا غريبا بدا كما لو كان سيحظى بموافقة الاغلبية وهو اتخاذ قرار ظاهرى بالاصرار على الخطة مع استمرار المساومة مع الحكومة ، وبدا ان غالبية الاعضاء من السذاجة السياسية بحيث لا يعرفون ان كل تفاصيل المداولات فى اللجنة تصل

الى أجهزة الامن قبل عودتى لمنزلى . ولهذا وضحت للجنة عدم لزوم هذه المناورة لاننا ملتزمون على التفاهم على المشاركة فى حفظ النظام وهذا هو مجال المساومة والمفاوضة طالما ان الرغبة العامة هى الوقوف خلف قراراتنا المعلنة والتى قد يستحيل تعديلها أو الرجوع فيها بعد انتقال المسئولية إلى الجماهير المعبأة والمتفجرة التى قد تتحرك بقيادة اللجنة أو بدونها بما يضاعف كل المخاطر علما بأن قوة وفاعلية اللجنة نابعة من مواكبتها لتوجهات الجماهير وليس من انصياع الجماهير لتوجهاتها. والحقيقة أنه فى هذه المرحلة تميزت بظواهر إيجابية كانت مثار فخرى ودهشتى فقد تخطت غالبية الجماهير تفاهات خلافاتها الحزبية والتنظيمية ،بدا كما لو كانت قد انفلتت من سطوة وسيطرة قياداتها التقليدية لم يختلف فى ذلك القيادات التقليدية مثل الوفد عن القيادات المستجدة مثل الاخوان ومصر الفتاة والشيوعيين وبالطبع بقيت أقلية محترفة تحولت وظيفتها الرئيسية الى محاولة ركوب الموجة ليس من منطلق كسب قيادة الجماهير وهو ماكانت تفتقر اليه اعدادا وتنظيما وخبرة لكن من منطلق استغلال مواقعها فى اللجان الوطنية لإضفاء ادعاء المبادرة الذهبية على اعمال اللجان وتخيل ادعاء افضال حزبية على انجازات اللجان حتى ان لم يكن لها دور محسوس فيها . ولم ار فى ذلك اى خروج عن طبيعة العمل السياسى خاصة انى كنت على ثقة بصدق حكم الجماهير فى مثل هذه الامور ولكننا ننعم أيضا

بالتعبيرات التلقائية عن اندماج الجماهير ، فمثلا العمال والموظفون الذين كانوا يعدون مكان الاجتماع تحول موقفهم من خدمة يقدمونها كمجاملة شخصية لافراد معينين الى إسهام ذاتى فى عمل وطنى عام لا فضل لأحد فيه على أحد ، وحتى موظفى كلية الطب وعمالها كمجال الذين نظروا الى هذه التحركات المستمرة كشأن خاص بالقائمين بها ومصدر متاعب وقلق وظيفى لهم تحول موقفهم الى مجرد تجاوب مع دور رائد هم أصحابه ولاغراض وطنية هم شركاء فيها ، ولفت نظرى ان الوافدين الجدد من ممثلى اللجان الوطنية لم يعودوا يسألون عن الدكتور عصام الدين جلال (وكانت الحركة الوطنية قد منحتنى لقب الدكتور قبل تخرجى بسنتين) ولكنهم يسألون عن اللجنة الوطنية للعمال والطلبة مما أثلج صدرى وطمأن قلبى بل ظهرت احداث انسانية لا مدلول سياسى لها بينت لى عمق التفاعل الجماهيرى التلقائى فمثلاً كان من مستلزمات الاستعداد لامتحان البكالوريوس هو التمرين على الكشف على بعض الحالات المستعصية التى يمكن ان يعتمد عليها الخريج ولم تكن الدروس الخصوصية قد أصبحت النمط الاساسى للتعليم الجامعى بعد فكنا نلجأ الى نواب الاقسام وإحضار المدرسين لاختيار الحالات لنا والسماح بالاطلاع على دوسيه المريض وربما المساعدة فى قياس بعض الاعراض وكان زملائى من الدفعات السابقة ينصحون باختيار الحالات ويسهلون لى الكشف فى الاوقات

غير العادية التى تسمح بهـا ظروف انشغالى بالحركة الوطنية وكنت عادة مايتناول زملائى مصاحبتى فى هذا الكشف وفوجئت مرة بزميلة وكانت اكثر الدفعة وسامة وحياء تطلب الحديث معى وفوجئت اكثر انها تطلب منى ان تصحبنى فى الكشف لما تعانيه من صعوبات مع المرضى والطلاب وأبديت لها دهشتى لأسباب أولا أنى كنت مشهوراً بالتحفظ فى معاملاتى الشخصية رغم اتساع علاقاتى العامة ثانيا كما بينت لها ان زملاء اكثر منى اجتهادا وانتظاما ينظمون عملهم هذا . وثالثا ان اوقاتى للعمل ليست اكثر الاوقات مناسبة وفسرت هى لى اسبابها انها لا تختلط بحكم اسرتها المحافظة وإنها على مشارف خطوبة وان مسارها فى ركابى هو الضمان الاكيد بالمحافظة على كرامتها ووضعها فوق كل الشبهات والمضايقات لما استقر فى اذهان الجميع بالنسبة لى وكانت مفاجأة لى وأنا ادعى فضل السبق الوطنى والسياسى ان ارى له انعكاسا اجتماعيا عند اقل الناس وعيا سياسيا ولكنه ايضا كان تأكيدا لايمانى بصدق الاحساس الوطنى المصرى الدفين ، وكان ثراء التجارب الانسانية فى هذه المرحلة مدرسة أفخر وأعتز بتتلمذى فيها على كل المراكز المتميزة التى سمحت لى حياتى الثرية بالتجارب والتعلم فيها وكنت دائما فى كل هذه المواقع اذكر ان هناك منبعا حضاريا أصيلا لكل الحضارات والمعارف الانسانية

نهلت من ورثتـه الحقيـقيين أصولا وركائز تقصر كل انجازاتهم وانطلاقاتهم على الالمام باعماقه.

والغريب أن أسرتي لم تكن تدرى حقيقة المهام التى أقوم بها غير إلمامها العام بانفعالاتى الوطنية والسياسية العامة والتى قبلتها على انها جزء اساسى فى كيانى مثل ادمان المكيفات أو السينما وكانت الاسرة وخاصة والدى يلحظ الجهد والارهاق الذى اعانى منهما للتوفيق بين أعباء الدراسة الطبية ، وكان يعلم صعوباتها والجهد الوطنى وكان يدرك أثقاله ومخاطره وكان همه فى هذه المرحلة هو إلحاح على وجوب الراحة والترفيه ، وأظنه من الآباء القليلين الذين شغلهم هذا الخاطر فى وقت كان الآباء مشغولين بالضغط لمضاعفة الجهد والالتزام بالحدود والمسئوليات وكنت اجد فى هذا التعامل غير المباشر تشجيعا وعطفا مشكورا وكريما .. وكان بقية افراد الاسرة يرون فيما يتصورونه من اجهاد ومثابرة مبالغ فيها ضربا من ضروب التزمت الاختيارى يدعو للعطف والتقدير وان لم تبد له ضرورة.

واستمر تصعيد التحركات الوطنية والتى خرجت عن نطاق الطلبة المحدود واتخذت طابعا جماهيريا شاملا وان ابتدأ كثير منها بتجمع طلابى فى معاهدهم ، ففى ١٤ فبراير عمت المظاهرات الجماهيرية احياء القاهرة والاسكندرية ومدن الدلتا وبعض مدن الصعيد وعطلت الدراسة فى الاسكندرية واهتممنا بالحركة فى المحلة الكبرى التى

شاركت فيها كل فئات الشعب بمن فيهم العمال وكذلك في بورسعيد واسيوط وفي يوم ١٥ فبراير عقب صلاة الجمعة قام تحرك جماهيرى تلقائي لم يكن لأى من اللجان الوطنية ولا الحزبية والتنظيمية دور تخطيطي فيه وان حاول كل ادعاء تدعيمه وترتيبه وكان مبعثا للارتياح وعلى عكس التحركات السابقة التقليدية لم ينبعث من المراكز الجامعة في الجيزة أو القصر العيني ولكنه انبعث من الغورية وتحت الربع والموسكي والعتبة ونزلت جحافل الشارع الوطني الاصيل الى منتصف البلد معلنة مشاركتها الاصيلة وتحملها مسئوليتها الاساسية في الكفاح الوطني وقابلها تحرك من حي بولاق الشعبي، وقامت مظاهرات ومصادمات عنيفة متجددة مرة أخرى في بورسعيد حصلت فيها أكثر من مائة من الاصابات بين المتظاهرين والشرطة مما أكد ان التحرك الجماهيرى في الاقاليم ليس انعكاسا مؤقتا ولكنه اصرار على مشاركة متصلة وتولت اللجان - الطلبة والعمال - تشكيل نفسها والمشاركة في القيادة تلقائيا ، واشتركت اسيوط، وغيرها من المدن حتى المدن الصغيرة في التعبير عن تضامنها وعطلت مدارس المنصورة وحتى يوم ١٦ إغلقت المحلات وعمت حركة الاحتجاج والحداد على شهداء يوم ١٥ فبراير وامتدت المصادمات الى الازهر وعابدين معلنة إصرارها وولايتها على التوجه الوطني ، ومضت الجماهير في هجومها على

صنائع وعملاء الاستعمار والخونة فى مراكز السلطة والمسئولية . بصراحة ووضوح..

وفى الفترة نفسها من ١١ فبراير الى ٢١ اشتدت غائلة حملة قوات الأمن وصدرت صحف المعارضة الناشرة لاخبار الحركة الوطنية ونداءات اللجنة الوطنية للعمال والطلبة مثل صحف الوفد والمعارضة وصحيفة مصر الفتاة.. وتم اعتقالى والتحقيق مع الصحفيين وحوصر النادى السعدى مقر الوفد ومنعت كل اجتماعات فيه . ولكن الاحزاب المعارضة ولعلى لم أذكر السبب المباشر للقاء حسن باشا رفعت يوم ١١ فبراير بعد يومين من حوادث كوبرى عباس ، فبالغباء الذى حكم تصرفات الضباط الانجليز والحكومة على كوبرى عباس والذى اعتبرته وذكرت حسن رفعت باشا بأنه كان شهادة ميلاد التحرك الجماهيرى الشامل فقد خطط فى السراى والحكومة وضع حجر أساس المدينة الجامعية يوم ١١ فبراير ولم يخطر على بال الحكومة التراجع عن هذا التاريخ بعد المذبحة، وكان ١١ فبراير هو عيد ميلاد الملك فاروق وكان المقصود ان يتحول الحفل الى مهرجان للاحتفال به وتسيير الشعلات فى الشوارع وزينت الجامعة بالزينات والأنوار، وقوبلت الشعلة بمظاهرة معادية وعنيفة من جماهير الشارع الوطنى وهجم الطلبة وحطموا الزينات وداسوا صورة الملك بالاقدام واشعلوا فيها النيران وانتشرت الشائعات على تصميم الجماهير بمهاجمة الملك ووجود مجموعات

مستعدة لاغتياله ولم يكن هذا صحيحا حسب معلوماتى ولكن كانت الرغبة عارمة لاجهاض زيارته للجامعة مهما حشدت معه الحكومة لفرض حصار عسكرى مكثف واستبعاد لجموع الطلبة والاكتفاء بتمثيلية عصبية مختصرة لوضع الملك لحجر الاساس والهروب السريع فكان اعلانا نهائيا عن افلاس الدولة السياسى وتدهور موقفها الامنى وبداية النهاية لحكومة النقراشى التى انصبت عليها الاحداث المتتالية السابق ذكرها فكان اسقاط هذه الحكومة هو اول انجازات الجبهة الشعبية واللجنة الوطنية للعمال والطلبة وانتقاما سريعا لشهداء كوبرى عباس والتخاذل الوطنى .

ولعل هذا هو الموقع المناسب لاسترجاع انطباعاتى عن النقراشى باشا الذى لم تتح لى الفرصة لمقابلته وهو على رأس الوزارة ولكنى قابلته بعد انشقاقه عن الوفد واثناء معارضته لحكومة الوفد التى وصلت الى الحكم بعد احداث الحصار البريطانى لعابدين فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، وكان النقراشى يعقد لقاءات مفتوحة يحاول فيها تأكيد أحقيته فى تراث ثورة ١٩١٩ وزعامة سعد زغلول .. خلال هذه اللقاءات كان انطباعى كشاب يافع قناعة بوطنية النقراشى وصدق التزامه ولكن وضح لى قصور امكانياته السياسية على الاحاطة بالأبعاد المركبة للقضايا الوطنية وتصورت افتقاره للصفات الجماهيرية اللازمة لتحمل اعباء زعامة شعبية ولكن الذى اقلقنى اكثر كانطباع عام دون تحليل لدوره

التاريخى هو مدى تأجج نوازعه الشخصية وعداواته وخلافاته وأحسست بصعوبة تحكمه فى أبعاد تشابكت بدت لى اكبر من امكانياته وطاقاته واحسست انه سيكون دائما فى خطر الانجراف نحو ارتباطات ومنازعات لايستوعب حقيقة اغوارها والوقوع فى مآزق لا تعكس جذور التزاماته الوطنية الصادقة.

وحتى عندما اصدر قرار اعتقالى فى أواخر ١٩٤٧ وعند اغتياله انتقاما لاغتيال حسن البنا لم استطع التخلص من الانطباع انه كان اكثر منه مذنبا ، كان ضحية للاستسلام لاحداث وافعال اقحمته فى مجال هو لم يكن مؤهلا له سياسيا ولا فكريا . وعلى اى لم تكن هذه الظاهرة ظاهرة نادرة فى هذا العصر ولا فى عصرنا الحاضر على مشارف القرن الواحد والعشرين فكم من الأثمين اثمت فى حقهم ظروف وملابسات اقحمتهم واقحمت عليهم ابعد ما تكون عن مواقعهم الطبيعية فى الحياة ويزيد مأساة هؤلاء ان يعملوا فى اطار نظم هى نفسها مفتقرة الى المناسبة والملاءمة فلا المكان مكانهم ولا الزمان زمانهم.

رقم الايداع ١٤٠٤٤ / ٩٧

I. S. B.N

977-07-0563-2

دار الـهـلال

الفهرس


مصر للطيران
٦٥
عامًا
من الخبرة والريادة

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب السيرة الذاتية لكاتب وعالم كبير وشخصية دولية معروفة هو الدكتور عصام الدين جلال ، ويتضمن أروع مفاخر الحركة الوطنية عقب ثورة ١٩١٩ ، فهو تسجيل صادق لتفاعلات الشارع الوطنى وأبطاله المجهولين فى كل مكان على أرض الوطن الغالى ، وهو أيضا تسجيل أمين لذكريات وطنية كتبها مواطن عايش وانفعل وشارك فى أحداث مهمة تاريخية دونها كما عاشها وشارك فيها بصدق وانفعال زمنها دون تنسيق آملاً أن يحقق هدفها وهو أن نتعرف على مسيرة الحركة الوطنية التى تمتد جذورها إلى عمق وأصالة هذا الوطن العريق بتاريخه المديد وحضارته البراقة الأصيلة ..

وعلى صفحات هذا الكتاب
على نماذج وطنية مشرفة
وناضلت فى صمت ، يقتحمو
المخاطر ، ويتحملون أصعب المس
وهم فى تطهر من كل إدعاءات
والتفاخر .